مهارات التعامل مع الثقافات

أ.د محمد أحمد غنيم

أستاذ الأنثروبولوجيا

كلية الآداب – جامعة المنصورة

أ.د مهدي محمد القصاص

أستاذ علم الاجتماع

كلية الآداب – جامعة المنصورة

مقدمة

تُعد ثقافتنا العربية من أغنى الثقافات العالمية وأهمها، فبعد أن ترسخت جذورها قبل الإسلام لغة مشرقة وحكماً وأمثالاً وشعراً تجلت فيه العبقرية العربية وكان صورة لحياة العرب ومرآة تفكيرهم ومشاعرهم ومسرح خيالهم ، تنزل القرآن الكريم بالعربية فأغناها معاني سامية وبياناً رائعاً ، وفتح لها سبل الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها .

حيث تمتلك شعوب الوطن العربي الوطن العربي هوية مختلفة عن هوية الشعوب الأخرى ، ولا يمكن بحال أن تتفاعل مع ثقافتها ، بل تنبهت مؤخراً إلى الغزو الثقافي الذي رافق الغزو الإعلامي وأصبح موضوع جاد. يُناقش هذا في أوساط المؤسسات الثقافية التي تقف حيرى أمام فشلها في الرقي بثقافة الشعوب وتنميتها.

كما أن العلاقة بين ثقافة المجتمع وقيمه لا يمكن أن تنفصم ، وكل تنمية للثقافة لا تنطلق من قيم المجتمع الذي تطرح فيه فقط، وإنما مع ثقافات أخرى يستمد منها ما يتناسب مع قيمه وعاداته، لذا فإن الشعب العربي لا يمكن أن يتفاعل مع ثقافات تتنافى مع قيمه وإن سميت ثقافة عربية.

ولا تعني أصالة الثقافة إهمال ثقافة الآخر وعدم الاطلاع عليها والإفادة منها، بل تعني العودة إلى الأصالة منهجاً وقيماً ومصدراً في تنمية ثقافة المجتمع أيا كان اتجاهها أدباً أو فكراً أو فناً. والثقافة العربية ليست ثقافة مستوردة ، ولا مترجمة، ولا منغلقة، بل هي ثقافة تعتمد على الإبداع الذي ينبع من التأمل والنظر في الكون، ولا حدود لهذا الإبداع فأفقه مفتوح.

ويُعد حوار الحضارات وتواصل الثقافات من أهم العوامل التي تساهم في بناء مجتمع متقدم، وتكمن الصعوبة أن كل ثقافة تحاول أن تفرض نفسها وتعتبر نفسها

الأمثل والأحسن مفترضة مسبقا تفوقها على الآخرين وان بقية الثقافات يشوبها النقص وعدم الصلاحية ويفترض تهميشها ، ولكن بوجود قنوات تواصل وتعامل مع هذه الثقافات يفتح الجسور للتعرف على الآخرين بسلبياتهم وايجابياتهم وثقافاتهم المتعددة الآراء والمناهج .

ومن هنا لابد من أن يكون هناك تحرك على جميع المستويات في مختلف المجتمعات للعمل على تواصل الثقافات. وتوفير المناخ الملائم للأفراد للتمتع بمهارات العامل مع تلك الثقافات، ولا يعني التواصل بين الثقافات بالضرورة إجبار جميع الاطراف على الاتفاق على جميع الأصول والمعتقدات ، إذ أن اختلافاتنا الاجتماعية والتاريخية هي اختلافات مهمة، ولا هذا الاختلاف ما وجد التنوع والإثراء في المعرف الثقافية وفي كافة مناحي الحياة، فوجودها ذو قيمة وتأثير عظيم. ولن نستطيع رسم الصورة الكاملة لحياتنا في المجتمع من غير الاستفادة من جميع التجارب والخبرات المختلفة ووجهات النظر المتناقضة. بل يجب أن تكون مهاراتنا في التعامل مع ثقافة الآخر وتقبلنا له أساس تبادل مشترك للثقافات وفهم آرائهم وتقديرها، والعمل على تعزيز المشترك فيها.

الفصل الأول

ماهية الثقافة وأهميتها

مقدمة:

تعد الثقافة في شموليتها المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وهي حسب تعريف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم و الذي يشير إلى أنها "تشتمل على جميع السمات المميزة للأمة من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، وتشمل جميع المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها، وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتصرف والتعبير، وطراز الحياة، كما وتشمل تطلعات الإنسان للمثل العليا ومحاولاته في إعادة النظر في منجزاته، والبحث الدائم عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته" كما تعرف أيضا بأنها "شبكة من المعاني والرموز والإشارات التي نسجها الإنسان لنفسه لإعطاء الغاية والمعنى لنفسه وجماعته والعالم والكون من حوله" وهي أيضا" منظومة متكاملة، تضم النتاج التراكمي لمجمل موجات الإبداع والابتكار التي تتناقلها أجيال الشعب الواحد، وتشمل بذلك كل مجالات الإبداع في الفنون والآداب والعقائد والاقتصاد والعلاقات الإنسانية، وترسم الهوية المادية والروحية للأمة لتحديد خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية، وتطلعاتها المستقبلية ومكانتها بين بقية الأمم"، انطلاقا من هذه التعاريف وغيرها تكون الثقافة إرث تاريخي يحمل معه الطابع الخاص بكل أمة، الغير قابل لأي شكل من أشكال العولمة، إذ أن محاولة عولمة أي ثقافة تعني في الحقيقة السعي إلى بسط هيمنتها على الثقافات الأخرى، إما بطمسها أو إلغائها في عدد من المجالات.

ونظراً للدور المحوري الذي تؤديه الثقافة في حياة الأمم وتقدمها، ولأهمية تشخيص انعكاسات ذلك على مجالات الحياة المتعددة، أصبح البعد الثقافي بعداً مهماً من أبعاد التنمية البشرية المستديمة، ومحوراً من محاور التغير الاجتماعي الذي تقتضيه هذه التنمية.

مفهـوم الثقـافة

ليس ثمة من تعريفٍ ناجزٍ ونهائيٍّ ل "**الثقافة**" نستطيع استعارته، باطمئنان، وتأسيس الكلام على معطياته؛ ولذلك، ربما يكون للاستضاءة بتعريفات سبق اقتراحها من قبل مفكِّرين أطلوا على المصطلحين من منظور حقول معرفية عديدة، أنْ يسهم في إثارة أسئلة تساعد على فتح حوار فكريٍّ شُجاعٍ وخلاَّق!

ما الثقافة؟ وما مكوناتها:

الجذر اللغوي للكلمة ثقافة هو الفعل الثلاثي "ثَقِفَ" أو "ثَقُفَ" بمعنى حَذَق أو مَهَرَ أو فَطَنَ (أو فَطِنَ) أي صار حاذقاً ماهراً فطناً فهو "ثَقِفٌ"، وقد ثَقِفَ ثَقَفاً، و"ثَقَافَةً"، وثقَّف الشيءَ أقام المعوَجَّ منه وسواه، وثقَّف الإنسانَ أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه. ويرتبط الفعل "ثَقِف" بدلات ومعانٍ أخرى قد تضيء فهمنا لهذه الدَّلالة الرَّئيسة، ومن ذلك ارتباطه بإدراك الشَّخص أو الشيء أو إصابَتِهِ والظَّفَرُ به، أو صقلُه وتسويته، حيث ورد في القرآن الكريم قوله تعالى "ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذوا وقُتِّلوا تَقْتِيلا" (الأحزاب، الآية ٦١)، وقوله "واقتلوهم حيثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ" (البقرة، الآية ١٩١ – والنساء، الآية ٩١).

ويُعرِّف مجمع اللغة العربية الثقافة بأنها "العلوم والمعارف والفنون التي يُطْلَبُ الحَذَقُ فيها"[١].

وثمة تعريف للثقافة من منظور علم البيولوجيا (الأحياء) Biology وتعريف آخر من منظور علم السوسيولوجيا Sociology (الاجتماع)، ويكاد تعريفها من منظور هذا العلم أن يبلغ مائتي تعريف، أو صيغة تعريف، أو ربما ما يزيد على ذلك.

تدلُ **الثقافة**، في **علم البيولوجيا**، على **نمو الخلايا الحية والأنسجة في الظروف المختبرية**، ويرتبط هذا التعريف، كما نرى، ارتباطاً وثيقاً بالمعنى اللغوي

للكلمة Culture، الذي يحيل إلى الزراعة أو المزرعة والزَّرع وإلى ما تتضمنه معاني هذه الكلمات من إيحاء بالاستقرار والتحضُّر وبدء الحياة في مجتمعات مستقرة متفاعلة ومتعاونة، صارت فيما بعد قرى وبلدات ومدن!

ومن منظور علم الاجتماع، يأخذ التعريف اللغوي السابق في التوسُّع والتعمُّق على يد علماء عديدين (جيرارد أودونيل، ماكس فيبر، ماركس، وغيرهم)، ليصبح تعريفاً اصطلاحياً يُشير إلى **طريقة الحياة التي تتمكن جماعة بشرية من تأسيسها لتكون مقبولةً من جميع أفراد الجماعة**، وملائمةً لهم كمجموع، وهي طريقة تتضمَّن أساليب الإدارة وآلياتها، ونمط التفكير، وآداب السلوك والمعتقدات، أو منظومة الأخلاق والقيم التي تحكم الجماعة، وكذلك اللغة، ونمط العيش بما يتضمنه من مسكن ومأكل ومشرب ومن علاقات وأنظمة سلوك تؤسس التواصل بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، وبين الفرد والطبيعة، وبينه وبين الوجود.

الثقافة، إذنْ، هي جماع الأنظمة المادية والروحية التي ابتكرها الإنسان لتحكم سلوكه فيما هو ذاهبٌ إلى الارتقاء بهويته وذاته ونمط حياته والإعلاء من شأن وجوده في الحياة عبر الانخراط في صيرورة هي الثابت الوحيد في هذه الحياة، وعبر الاحتفاظ بأبنية ثقافية تحملها اللغة إلى الأجيال اللاحقة كي تسكنها وتتولَّى تعديلها أو إعادة إنتاجها وفق حاجاتها وشروط تطورها.

ولئن كان **إدوارد تايلور** قد أحصى ما يزيد على مائتي تعريف للثقافة، فإنه خلص إلى تعريف شامل تمثل في مقترحٍ مفاده أنَّ "**الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفنون والآداب والأعراف والقوانين وغير ذلك من**

منجزات الإنسان كفرد أو كمجتمع" وفي العام ١٩٨٥عرَّفت **منظمة اليونسكو** الثقافة بأنها "**جميع معارف الإنسان المتعلقة بالطبيعة والمجتمع**" [٢].

وربما نكون في حاجة إلى **التمييز بين ثقافة مثقفة أو ثقافة عارفة**، عالمة، وأخرى ليست كذلك، أي غير عالمة، أمية، جماهيرية، ذلك لأن الأولى تنهض على **تأطير معرفي لتجارب الحياة**، على تسمية لها وقبض معرفيٍّ عليها عبر القراءة والتحليل والاكتشاف والتجريد والتدوين والحفظ في مدونات معرفية، بينما تظلُّ الثانية **مسكونةً بالمتخيل، وبالوهم، وبالأيدلوجيا** المتراكمة طبقات فوقها، وهو ما يجعلها في حاجة إلى تحليل يؤدي إلى امتلاكها معرفياً، وإلى **تشذيب معرفيٍّ** يُكْسِبُها قدراً من الرَّشاقة التي تجعلها قادرةً على الخطو في محاذاة الثقافة العارفة، والانخراط في نسيجها.

تبدأ الثقافة من لحظتين: لحظة اكتشاف النار ولحظة اكتشاف القناع، وليس لأيٍّ من هاتين اللحظتين أنْ تقلَّ أهميةً وخطورةً عن اللحظة الأخرى[٣].

هكذا تكون **الثقافة أوسع من مجرد الإبداع الأدبي والفني أو الفكري**، لتصبح حاضنةً لإبداعات وابتكارات جديدة ولوسائل وأساليب وأدوات وطرق عيش، مبتكرة أو منقولة، تشبع حاجة ضرورية أو تكون كمالية تتوخَّى الترفيه أو التزيين أو التجميل، هادفةً في كل حال إلى تيسر الأمور وتسيير الحياة وحل المشكلات وحفظ المآثر والمنجزات، وإشباع الرَّغبات وتلبية الأشواق!

ولعلنا نستطيع، في ضوء ما تقدَّم، أنْ نقول إنَّ **الثقافة**، في جانب مهم من مكوناتها ودلالاتها، هي **حقول من الخبرات والتجارب والمنجزات المؤطَّرة لغوياً ومعرفياً والتي يمكن من خلالها تمييز الهويات!**

وربما تكون **اللغةُ**، بوصفها **مؤسسة المؤسسات**، هي التي تُحَدِّدُ انتماء الأفراد لثقافة معينة، وربما تكون علاقة كل فرد بلغته هي جوهر العلاقة التي تُساعده على تملك ثقافة معينة، وهو الأمر الذي يعني أنَّ **التمكن من اللغة مدخل لا غنى عنه للتمكن من الثقافة**، وأنَّ **الأنماط اللغوية** ليست مجرد أنظمة وأشكال فحسب وإنما هي **عوالم بشريةٌ**، وبيوتٌ مكتنزةٌ بأشكال الحياة، أي بالثقافة.

والثقافة هى المعيار التى تتحدد به هوية كل مجتمع بشرى ، ولا يمكننا تصور مجتمع بلا ثقافة . ولكل مرحلة من مراحل حياة المجتمع سمات ثقافية ، تتأثر وتؤثر فى عوامل نهوضه أو تفككه . وتتواجد داخل المجتمع نفسه مجموعة من الثقافات الفرعية لتغير فى السمات والمظاهر والمستويات المعيشية والعوامل الجغرافية والمناخ وطرائق الإنتاج ، وبهذا فإن الثقافة الفرعية هى ثقافة قطاع مميز من المجتمع ، لها جزء ومستوى مما للمجتمع من خصائص ، إضافة إلى انفرادها بخصائص ذاتية . ويكتسب الفرد الثقافة من مجتمعه ، ولكن بوصفه عضو فى قطاع اجتماعى معين ، فإنه لا يحمل كل ما فى ذلك المجتمع من عناصر الثقافة (٤).

وللثقافة دور هام فى حياة الإنسان ، وهى التى تميز الجنس البشرى عن غيره من الأجناس ، لأن الثقافة هى التى تؤكد الصفة الإنسانية فى الجنس البشرى ، وإزاء هذه الأهمية الاجتماعية للثقافة حاول الكثير من العلماء منذ القرن الماضى وما زالوا يحاولون تحديد مفهوم الثقافة ، ولعل من أقدم التعريفات للثقافة وأكثرها ذيوعاً حتى الآن تعريف إدوارد تايلور Edward .Tylor الذى يعرف الثقافة بأنها " الكل المركب الذى يشتمل على المعارف والمعتقدات ، والفنون ، والقوانين ، والعادات وغير ذلك من القدرات ، والإمكانات التى يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً فى المجتمع .(٥)

ويرى إبراهيم جواد أن الثقافة : "هى المخزون الحى فى الذاكرة ، كمركب كلى ونمو تراكمى .. مكون من محصلة العلوم ، والمعارف ، والأفكار ، والمعتقدات ، والفنون ، والآداب ، والأخلاق ، والقوانين ، والأعراف ، والتقاليد ، والمدركات الذهنية والحسية ، والموروثات التاريخية ، واللغوية والبيئية .. التى تصوغ فكر الإنسان وتمنحه الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى تصوغ سلوكه العملى فى الحياة ."(٦)

ويعتبر منير المرسى سرحان أن الثقافة هى طريقة الحياة فى المجتمع بجوانبها المادية كالآلات والإنشاءات والأزياء وغيرها ، والمعنوية كاللغة والأدب والفن وغيره . وهى من وضع الإنسان فى سعيه للتكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية لإشباع حاجاته العضوية والعقلية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية ، كما أنها تتمثل فى قيم الحياة واتجاهاتها ومعاييرها الحاكمة ، وفى طرق التفكير وأنماط الفكر وفى المعتقدات والتوقعات والعلاقات التى تنظم تعامل الناس فى حياتهم وفى أنماط السلوك ومصطلحاته بين الناس فى المجتمع ونظمه وأجهزته ومؤسساته.(٧)

وعلى ذلك فإن الإنسان المثقف كما حددته الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، هو الذى يمتلك الحد الأدنى من المعرفة المتكاملة ، وإتقان المهارات وتحصيل المعرفة من مختلف مصادرها واختيار المناسب منها ، واتخاذ مواقف ووجهات نظر شخصية تعبر عن ذاته مما يساعده على التفسير والتنبؤ واتخاذ القرار المناسب بشأن ما يواجهه من مشكلات .(٨)

<u>الثقافة وأبعادها فى المجتمع</u>

كما هو عاليه هي مجموعة العادات والتقاليد التي يتقلد بها المجتمع وتلك الثقافة هي نتاج لكل الثقافات والموروثات التي بداخل كل مجتمع فرعي.

- **وكل مجتمع فرعي يتكون من عدة أحياء.**
- **وكل حي يتكون من عدة شوارع.**
- **وكل شارع يتكون من عدة منازل.**
- **وكل مبنى يتكون من عدة شقق أو من الممكن أن نقول عدة أسر تسكنه.**
- **وهذه الأسر مكونة من أفراد ولكل فرد اتجاهاته الخاصة التي يتوجه بها.**

فنستطيع أن نقول أن كل هذه السلسلة تكون مفهوم أن المجتمع عبارة عن عدة مجتمعات فرعية تتشابك مع بعضها البعض لتكون المجتمع. أي ان المجتمع يتكون من مجتمعات فرعية أو **Sub Society**

- إن مفهوم "الثقافة" في اللغة العربية ينبع من الذات الإنسانية ولا يُغرس فيها من الخارج ويعني ذلك أن الثقافة تتفق مع الفطرة، وأن ما يخالف الفطرة يجب تهذيبه، فالأمر ليس مرده أن يحمل الإنسان قيمًاتنعت بالثقافة– بل مرده أن يتفق مضمون هذه القيم مع الفطرة البشرية.
- إن مفهوم "الثقافة" في اللغة العربية يعني البحث والتنقيب والظفر بمعاني الحق والخير والعدل، وكل القيم التي تُصلح الوجود الإنساني، ولا يدخل فيه تلك المعارف التي تفسد وجود الإنسان، وبالتالي ليست أي قيم وإنما القيم الفاضلة. أي أن من يحمل قيمًا لا تنتمي لجذور ثقافته الحقيقية فهذه ليست بثقافة وإنما استعمار في قيم الآخر.

- أنه يركز في المعرفة على ما يحتاج الإنسان إليه طبقًا لظروف بيئته ومجتمعه، وليس على مطلق أنواع المعارف والعلوم، ويبرز الاختلاف الواضح بين مفهوم الثقافة في اللغة العربية ومفهوم "Culture" في اللغة الإنجليزية، حيث يربط المفهوم العربي الإنسان بالنمط المجتمعي المعاش، وليس بأي مقياس آخر يقيس الثقافات قياسًا على ثقافة معينة مثل المفهوم الإنجليزي القائم على الغرس والنقل وبذلك فإنه في حين أن الثقافة في الفكر العربي تتأسس على الذات والفطرة والقيم الإيجابية، فإنها في الوقت ذاته تحترم خصوصية ثقافات المجتمعات، وقد أثبت الإسلام ذلك حين فتح المسلمون بلادًا مختلفة فنشروا القيم الإسلامية المتسقة مع الفطرة واحترموا القيم الاجتماعية الإيجابية.
- أنها عملية متجددة دائمًا لا تنتهي أبدًا، وبذلك تنفي تحصيل مجتمع ما العلوم التي تجعله على قمة السلم الثقافي؛ فكل المجتمعات إذا استوفت مجموعة من القيم الإيجابية التي تحترم الإنسان والمجتمع، فهي ذات ثقافة تستحق الحفاظ عليها أيًّا كانت درجة تطورها في السلم الاقتصادي فلا يجب النظر للمجتمعات الزراعية نظرة دونية، وأن تُحترم ثقافتها وعاداتها. إن الثقافة يجب أن تنظر نظرة أفقية تركيبية وليست نظرة رأسية اختزالية؛ تقدم وفق المعيار الاقتصادي وحده مجتمع على آخر أو تجعل مجتمع ما نتيجة لتطوره المادي على رأس سلم الحضارة. وقد أدت علمنة مفهوم الثقافة بنقل مضمون والمحتوى الغربي وفصله عن الجذر العربي والقرآني إلى تفريغ مفهوم الثقافة من الدين وفك الارتباط بينهما. وفي الاستخدام الحديث صار المثقف هو الشخص الذي يمتلك المعارف الحديثة ويطالع أدب وفكر وفلسفة الآخر، ولا يجذر فكره بالضرورة في عقيدته الإسلامية إن لم يكن العكس تمامًا. ووضع المثقف كرمز "تنويري" بالفهم الغربي

في مواجهة الفقيه، ففي حين ينظر للأخير بأنه يرتبط بالماضي والتراث والنص المقدس، ينظر للأول –المثقف– بأنه هو الذي ينظر للمستقبل ويتابع متغيرات الواقع ويحمل رسالة النهضة، وبذلك تم توظيف المفهوم كأداة لتكريس الفكر العلماني بمفاهيم تبدوا إيجابية، ونعت الفكر الديني –ضمنًا– بالعكس. وهو ما نراه واضحًا في استخدام كلمة الثقافة الشائع في المجال الفكري والأدبي في بلادنا العربية والإسلامية؛ وهو ما يتوافق مع نظرة علم الاجتماع وعلم الاجتماع الديني وعلم الأنثروبولوجيا إلى الدين باعتباره صناعة إنسانية وليس وحيا منزلاً، وأنه مع التطور الإنساني والتنوير سيتم تجاوز الدين..والخرافة!! أما في المنظور الإسلامي فمثقف الأمة هو المُلمُّ بأصولها وتراثها. وعبر التاريخ حمل لواء الثقافة فقهاء الأمة وكان مثقفوها فقهاء.. وهو ما يستلزم تحرير المفهوم مما تم تلبيسه به من منظور يمكن فيه معاداة الدين أو على أقل تقدير النظر إليه بتوجس كي تعود الثقافة في الاستخدام قرينة التنوير الإسلامي الحقيقي، وليس تنوير الغرب المعادي للإله، والذي أعلن على لسان نيتشه موت الإله فأدى فيما بعد الحداثة إلى موت المطلق وتشيؤ الإنسان.]

الثقافة الفرعية

كل مجتمع ينقسم إلى عدة أجزاء تسمى بالمجتمعات الفرعية ولكل جزء من هذه الأجزاء ثقافة خاصة وقيم وعادات وتقاليد وموروثات واتجاهات خاصة بها فقط. تسمى تلك الثقافة بالثقافة الفرعية ومن الممكن ان نجد أن الثقافة الفرعية هي في ذات الوقت تتقسم إلى ثقافات فرعية أصغر منها حتى نصل إلى ثقافة الفرد ومن خلال ثقافة الفرد نجد أن الموروثات والقيم والعادات التي بداخل هذه الثقافة هي جزء من الثقافة العامة للمجتمع.

ووفقا لذلك تحتوي الثقافة علي الافكار والاتجاهات العامة المقبولة والمتوقعة التي يتعلمها الفرد من اتصاله بالواقع الاجتماعي لذلك فانها تلعب دورا مهما في اعداده ليكون اكثر فاعلية في محيطه الاجتماعي كذلك فان كل جيل جديد لا يبدأ من فراغ ولكنه يستفيد ممن حوله ويكون كل اعضاء المجتمع مطالبون بان ينقلوا التراث الي الاجيال القادمة وما تعلموه من الماضي وما اضافوه بانفسهم الي هذا الكل الثقافي.

فالثقافة انتاج الانسانية ويمكن دراستها انها الهيكل الخاص والانظمة واشكال السلوك التي لها صفة الاستمرار والتغير ومن ناحية اخري يمكن النظر الي الثقافة من وجهة نظر تفاعلي الافراد او الجماعات علي انها الانتاج النفسي الذيس يتعلم وينتقل الي الاخرين ليس من طريق الوراثة الميكانيكية بل من طريق التعلم الانساني.

خصائص الثقافة

في اطار ما سبق يمكن تحديد بعض الخصائص العامة للثقافة بانها :

١. تنشأ الثقافة في مجتمع معين ويظهر جليا في سلوك اعضاء ذلك المجتمع
٢. الثقافة قابلة للتناقل وعملية التناقل تقتصر علي الانسان بوصفه الكائن الوحيد الذي يبدو قادرا بدرجة كبيرة علي ان ينقل ما اكتسبه من عادات لأقرانه ، وتعد اللغة عاملا اساسيا في هذا المجال ولا تتضمن عملية التناقل الاجراءات والمعرفة فقط بل تشمل ايضا تهذيب الدوافع الغريزية خلال السنوات الاولي من عمر الانسان.
٣. تتميز الثقافة بالدوام والاستمرار عبر الزمن بسبب قدرتها علي تخليد نفسها وعلي البقاء بعد انقراض اي من الشخصيات التي تسهم فيها ومع ان الثقافة تخرج تماما عن نطاق التركيب الطبيعي للفرد الا انها تصبح خلال مراحل نموه جزءا من شخصيته.

٤. الثقافة ميراث اجتماعي فالعادات الخاصة بالنظام الثقافي تنتقل وتستمر عبر الزمن كما يشارك فيها كل الافراد الذين يعيشون داخل تجمعات منظمة او جماعات تحرص علي الامتثال لتلك العادات تحت وطأة الضغوط الاجتماعية.

٥. للثقافة وظيفة التوافق فهي تتوافق مع البيئة الجغرافية للمجتمع ومع الشعوب المحيطة بها كما تتوافق المطالب النفسية والبيولوجية للكائن البشري.

٦. الثقافة هي ذلك الكل المركب والمعقد الذي يشتمل علي المعرفة والعقائد والفنون والقيم والقانون والعادات التي يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع ويشمل ذلك الجانبين المادي وغير المادي.

٧. الثقافة تنظيم يشمل مظاهر الانفعال والافكار والمشاعر التي يعبر عنها الانسان عن طريق الرموز بفضل اللغة التي يتعامل بها وبهذه الصفة الرمزية اصبح من السهل انتقال الثقافة.

٨. الثقافة مكتسبة فهي المصطلح الاجتماعي للسلوك المتعلم فجوهر الثقافة عند الانسان هو التعلم تمييزا لها عن الصفات الموروثة وتأكيدا لقدرة الانسان علي التعلم.

٩. الثقافة العقلية فهي تتكون من السلوك المكتسب والفكر المكتسب لدي افراد المجتمع ويتمثل هذا الفكر في المعاني والمثل والانظمة والمعتقدات.

١٠.الثقافة تنظيم يقوم علي التفاعل الاجتماعي بين الافراد ووظيفتها توجيه سلوك هؤلاء الافراد

١١. الثقافة مثالية وواقعية فالثقافة المثالية تشتمل علي الطرق التي يعتقد الناس ان من الواجب عليهم السلوك وفقها او التي قد يرغبون في انتاجها او التي يعتقدون انه

من الواجب عليهم السلوك بمقتضاها اما الثقافة الواقعة فانها تشكل من سلوكهم الفعلي وفي الثقافات التي تجتاز تغيرا سريعا فان الفاصل بين الثقافة المثالية والثقافة الواقعة اخذ بالتأكيد في الاتساع وتؤدي هذه الفجوة الي التخلف الثقافي.

وظيفة الثقافة

تتحدد ثقافة اي مجتمع اسلوب الحياة فيه سواء من ناحية وسائل الانتاج والتعامل والانظمة السياسية والاجتماعية او من ناحية الافكار والقيم والعادات والتقاليد وآداب السلوك وغير ذلك .

وتعبر عناصر الثقافة في اي مجتمع عن خلاصة التجارب والخبرات التي عاشها الافراد في الماضي مشتملة علي ما تعرضوا له من ازمات وما حددوه من اهداف وما استخدموه من اساليب وما تمسكوا به من قيم ومعايير وما نظموه من علاقات وبهذا المعني تعد الثقافة اساسا للوجود الانساني للفرد والمجتمع الذي ينتمي اليه.

وللثقافة وظائف متعددة للفرد اذ توفر له :

- **الاتجاهات والقيم ما يساعده في تكوين ضميره الذي يتواءم به مع جماعته ويعيش متكيفا معها.**
- **ما يشعره بالانتماء وما يربطه بسائر افرادها لتميزهم عن سائر الجماعات الأخرى.** (٩)

عناصر الثقافة

١. **العموميات** : وهتي التي يشترك فيها غالبية أفراد المجتمع الواحد ، من أمثلتها اللغة والزي وطريقة التحية وأساليب الاحتفال في المناسبات ، وهذه العموميات تعطي

الثقافة طابعها العام الذي يميزها من غيرها من الثقافات وتساعد على تنمية روح الجماعة اللازمة لتماسك المجتمع ووحدته والعمل على تحقيق أهدافه ٠

٢. **الخصوصيات** : وتختص بها جماعة معينة من أفراد المجتمع دون غيرها من الجماعات كالخصوصيات التي تسود بين أفراد مهن وأعمال معينة أو بين أفراد طبقات معينة ويكون لدى بقية أفراد المجتمع فكرة عنها ٠

٣. **المتغيرات "البديلات"** : ومن أمثلتها التجديدات والاختراعات التي تظهر في ظل ثقافة معينة فإذا انتشرت اندمجت في خصوصيات الثقافة أو عمومياتها وإذا لم تنتشر فأنها تبقى على حالها أو تندثر ٠ (١٠)

مظاهر الثقافة

للثقافة مظاهر كثيرة نذكر منها :

أ – الديـن :

للقيم الروحية النابعة عن الدين قدرتها على توجيه الحياة، في طريقها الإنساني الحق، فقد تمكنت الديانات على إختلافها تحديد الإنسان من القيود اليومية للحياة، ومطلباتها القائمة على إرضاء الحاجات البيولوجية، وإستطاعت أن تسو به نحو عالم التأمل والتفكير المرتبط بالقيم والمثل العليا للإنسانية جمعاء.

وهكذا فالثقافة مرتبطة بالدين، ولايمكنها ان تطهر وتنمو نموًا إنسانيا إلا إذا إرتبطت بالدّين لأنه هو الذي يرسم للإنسان أسلوب الحياة الصحيح القائم على الإيمان بعقائد روحية مثلى. ولاشك أن هذا الأسلوب هو الثقافة بالذات.

ب – الفلسفة :

التفكير الفلسفي تفكير تأملي تركيبي يصوغ المعارف الإنسانية كلها في مركب منطقي كلي معقول. والفلسفة بهذا المعنى موقف من الوجود والحياة والتاريخ ينصب على المنتوج الثقافي كله قصد التنسيق بين جوانب ثقافة المجتمع أو الثقافة الإنسانية ككل، وقصد التوفيق بين مجالات التقدم الحضاري والمقاربة بين القيم القديمة وإتجاهاتها والقيم والإتجاهات الجديدة لكن الفلسفة لاتكتفي بالتركيب والتوفيق بل تعمد الى النقد والتقييم والتقويم اللازمين لتوجيه العلوم والفنون والأفكار ومختلف النشاطات الثقافية يقول زكي نجيب محمود " **التفكير الفلسفي في كل عصر هو الذي يبرز الجذور العميقة الدفيفة في الجو الثقافي** " ويقول هو كما **يمد** " **الوظيفة الإجتماعية للفلسفة تكمن في نقدها كل هو سائد** ".

ج – العلم :

لاشك أن الثقافة تستمد أصولها من مقومات كثيرة. لكن العلم اليوم هو أقوى هذه المقومات لأن طابعةه هو الغالب على عصرنا هذا. لكن العلم بإعتباره موقف معرفي ونهج قائم على الموضوعية والصراحة ومتوجه نحو السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها لتحقيق المزيد من الوعي والتقدم وليس العلم بإعتباره آلآت، وإقتناء منجزات تكنولوجية متقدمة لأن تلك من نتائجه. فالعلم بهذه الصورة هو أساس التغير الذي حصل في تفكير الإنسان وسلوكه ومعتقداته وقيمة، مما يؤكد أن العلم رافد ن الروافد الأساسية للثقافة

خصائص الثقافة وعلاقتها بالمنهج

ينبغي أن يهتم المنهج بعموميات الثقافة حتى يكون هناك قدر مشترك من المعارف والمهارات والاتجاهات والسلوكيات التي تكفل نوعاً من التفاهم والتعاون بين أفراد المجتمع وتنمي فيهم روح الجماعة والانتماء وتساعد على تماسك المجتمع وتحقيق أهدافه وعلى المنهج أن يهتم أيضاً بخصوصيات الثقافة حتى يتم توفير التخصصات المختلفة التي يتطلبها المجتمع والتي تناسب الأفراد وفقاً للفروق الفردية القائمة بينهم مع مراعاة التوازن بين الخبرات العامة والخبرات الخاصة في المنهج ، وبالنسبة للمتغيرات فمن الضروري أن ينمي المنهج أساليب التفكير السليمة حتى يمكن الحكم على المتغيرات وقبولها أو رفضها نهائياً في إطار معايير معينة تحدد هذا القبول أو الرفض . (١١)

١. **الثقافة إنسانية** : فهي نتاج إنساني يختص به الإنسان دون غيره من المخلوقات الأخرى وله قدرات مختلفة وعلى المنهج أن يعمل على تنمية تلك القدرات التي تميز الإنسان من غيره من المخلوقات كتنمية أساليب التفكير السليم وتنمية الاستعدادات الخاصة .

٢. **الثقافة مكتسبة** : فالإنسان يولد عديم الثقافة بمعنى إنه لم يكتسب بعد عادات مجتمعه وطرائق تفكيره واتجاهاته والمهارات السائدة فيه ، والثقافة أنماط سلوكية قد يتعلمها الإنسان عن طريق الخبرات التي يمر بها في أثناء عملية تنشئته الاجتماعية وينبغي على المنهج العمل على المحافظة على ثقافة الإنسان والانتفاع منها باختيار الجوانب المهمة والمناسبة في الثقافة وتهيئة الظروف الملائمة لاكتساب الخبرات المتصلة بها .

٣. **الثقافة قابلة للنقل والانتشار:** إذا كانت الثقافة تكتسب يمكن نقلها من جيل الى آخر ومن مجتمع لآخر ومن فرد لآخر داخل المجتمع الواحد ، وقد ساعد على نقل الثقافة وانتشارها تعدد وسائل الاتصال بين المجتمعات بعضها مع البعض وفي مقدمتها اللغة وينبغي على المنهج أن يسهم في حسن الانتفاع من ثقافة المجتمع والثقافات الأخرى عن طريق الاهتمام باللغة القومية واللغات الأجنبية ودراسة الفنون والعلوم وتنمية أساليب التفكير الناقد لتمحيص الثقافات الأخرى للإفادة من إيجابياتها وتجنب سلبياتها .

٤. **الثقافة مشبعة لحاجات الأفراد** : فهي تقدم لهم أنماطاً ثقافية جاهزة يمكنها أرضاء تلك الحاجات وتزودهم بوسائل تمكنهم من مواجهة المشكلات وعلى المنهج أن يختار من التراث الثقافي ذلك القدر المناسب الذي يحقق النفع والإشباع لهم ويسهم في إعدادهم للمواطنة الصالحة .

٥. **عناصر الثقافة في تفاعل مستمر** : عناصر الثقافة لا تعمل منفصلة عن بعضها وإنما متفاعلة تفاعلاً مستمراً يتجه نحو تكوين نمط ثقافي متماسك يتصف بالاتساق مهما كان المجتمع متطوراً فاكتشاف الكهرباء مثلاً واختراع الآلات أدى الى تعديل كثير من العادات والاتجاهات وأساليب العمل والسلوك وغيرها من عناصر الثقافة لذا ينبغي أن يراعي عند تخطيط المنهج وتنفيذه الربط بين ما يتم دراسته وما يتم اكتسابه من خبرات في الحياة .

٦. **الثقافة متغيرة** : الثقافة في نمو مستمر وتغير دائم وللتغير الثقافي أسباب متعددة فقد يكون بسبب ظروف طبيعية كحدوث زلزال أو بركان أو اكتشاف موارد طبيعية تؤثر في حركة الحياة في المجتمع أو بسبب تعديلات أحدثها الأفراد ويتطلب تغير الثقافة أتصاف المنهج بالمرونة وبالقدرة على استحداث التعديلات في مكوناته . (١٢)

بعض نظريات دراسة الثقافة

على الرغم من أن الظروف قد ساعدت مفهوم الثقافة أو فكرتها على فرض نفسها، إلا أن البحث في عمل الثقافة بشكل عام أو الثقافات على وجه الخصوص، لم يتطور بشكل كبير في كل البلاد التي بدأت فيها الإتنولوجيا بالانطلاق.وحظي هذا المفهوم بأحسن استقبال في الولايات المتحدة وفي كنف الأنثروبولوجيا الأمريكية الشمالية وجد أفضل تعميق نظري له.في هذا السياق العلمي الخاص كان البحث في مسألة الثقافات تراكمياً ولم يشهد بعدها أي تراجع.وهذا الأمر كان حقيقياً لدرجة أن الكلام"عن أنثروبولوجيا ثقافية" هو الكلام نفسه من الناحية العملية.وقد بلغ التكريس العلمي ل"الثقافة" في الولايات المتحدة لدرجة اعتماد المصطلح بسرعة، بمعناه الأنثروبولوجي، من قبل العلوم المجاورة كعلم النفس وعلم الاجتماع على وجه الخصوص.

البحث العلمي ليس مستقلاً تماماً عن السياق الذي أنتجه.ويعد السياق الوطني الأمريكي سياقاً نوعياً إذا ما قيس بالسياقات الوطنية الأوربية.والولايات المتحدة تقدم نفسها دائماً على أنها بلد يضم المهاجرين من مختلف الأصول الثقافية.وبالتالي فإن الهجرة في الولايات المتحدة تؤسس وتسبق الأمة التي ترى نفسها كأمة متعددة الأعراق.

الأسطورة الوطنية الأمريكية القائلة بأن شرعية المواطنة ترتبط تقريباً بالهجرة- الأميركي هو مهاجر أو ابن مهاجر- هي أساس الاندماج الوطني المثالي الذي يقبل بتأهيل الجماعات العرقية الخاصة.وغالباً ما ينسجم انتماء الفرد إلى الأمة مع المساهمة المُعترف بها مع جماعة معينة.لذا فإن بعضهم يصف هوية الأميركان بأنها "صلة وصل"، إذ، في الواقع يمكنك أن تكون "إيطالياً أميركياً" و"بولونياً أميركياً" و"يهودياً أميركياً" الخ.وقد نتج عن هذا الأمر ما يمكن تسميته ب "الفيدرالية الثقافية [شينابر

١٩٧٤]، التي تسمح باستمرارية معينة لا تخلو من التغيرات بسبب الوسط الجديد والثقافات وأصول المهاجرين.ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن الأسطورة الأميركية تقود إلى اعتبار الهنود الذين لا ينطبق عليهم تعريف المهاجرين، والسود الذين كان تهجيرهم قسرياً، غير أمريكيين تماماً.

وللأسباب التاريخية نفسها فإن علم الاجتماع الأميركي الناشئ يفضل البحث في ظاهرتي الهجرة والعلاقات البيعرقية.وعلماء الاجتماع في جامعة شيكاغو، وهي أول مركز لتعليم علم الاجتماع ونشره في الولايات المتحدة، يضعون مسألة الأجانب في المدينة في صلب تحليلاتهم، مساهمين في هذا بتطوير مجال أساسي بالنسبة للمجتمعات الحديثة، وهو مجال لم يتطور في فرنسا ولم يحظ بالاعتراف إلا في وقت متأخر.أي في السبعينات .وذلك لأن فرنسا، خلافاً للولايات المتحدة لا تعتبر نفسها بلد هجرة، مع أنها كذلك بشكل كبير وبنيوي منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر.إن التمثل الواحدي للأمة مضافاً إلى تمجيد الحضارة الفرنسية المعتبرة نموذجاً عالمياً، يفسر جزئياً أسباب ضعف تطور التفكير الذي استمر طويلا حول التنوع الثقافي للعلوم الاجتماعية في فرنسا. أما السياق الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية فقد فضّل طرح تساؤل منهجي حول التباينات الثقافية واحتكاك الثقافات.

طالما وُصفت الأنثروبولوجيا الأميركية ب"الثقافوية" culturaliste وهو مصطلح ينطوي على إيحاء تحقيري.إذا أخذنا المصطلح بصيغة المفرد فإنه يبدو تقليصياً:والحقيقة أنه لا يوجد ثقافوية أمريكية بل ثقافويّات تمثل، إذا لم تكن إحداها مرتبطة بالباقيات، مقاربات نظرية متباينة ويمكن جمع هذه الثقافويات في تيارات ثلاثة كبرى : الأول هو التيار الذي ورث تعاليم بواس بشكل مباشر، وينظر إلى الثقافة من

زاوية التاريخ الثقافي.والثاني يهتم بتوضيح العلاقات القائمة بين الثقافة (الجماعية) والشخصية (الفردية).أما التيار الثالث فيعدّ الثقافة منظومة اتصالات بين الأفراد.

التاريخ الثقافي:إرث بواس

من بين الطرق التي فتحها بواس نشير إلى البحث في البعد التاريخي للظواهر الثقافية التي سيتمسك بها خلفاؤه المباشرون على وجه الخصوص.وهؤلاء، لاسيما ألفرد كروبر وكلارك فيسلر، سيجهدون في توضيح عملية توزع العناصر الثقافية في المكان. فأخذوا عن الاتنولوجيين"الانتشاريين" الألمان في بداية القرن، مجموعة من الأدوات المفهومية التي حاولوا تهذيبها، لا سيما مفهوم "المجال الثقافي" aire culturelle ومفهوم السمة الثقافية trait culturel الذي يقع على عاتقه، بشكل خاص، السماح بتعريف أصغر مكونات ثقافة معينة، وهو تمرين يبدو في ظاهره بسيطاً لكنه في الحقيقة تمرين صعب بل وهمي طالما أنه ليس من السهل عزل عنصر عن مجموع ثقافي لا سيما في المجال الرمزي، فكيف إذاً والحال هذه يمكن تحليله!.تقوم الفكرة على دراسة التوزع الفضائي لسمة ثقافية أو أكثر في ثقافات قريبة من بعضها وتحليل عملية انتشارها.وفي الحالة التي يكون فيها تلاق كبير بين السمات الثقافية المتشابهة، يمكن الكلام على"مجال ثقافي"وفي مركز المجال الثقافي تقع الخصائص الأساسية لثقافة معينة:وعلى محيطها تتقاطع هذه الخصائص مع السمات الناشئة عن مجالات مجاورة.

كما بيّن كرومر فإن مفهوم المجال الثقافي "يعمل" جيداً في حالة الثقافات القديمة لأمريكا الشمالية، لأن المجالات الثقافية والزراعية تتلاقى هنا تقريباً.لكن في كثير من مناطق العالم نرى أن طابعها فاعل وقابل للنقاش، لأن الحدود أقل وضوحاً ولا يمكن تعريف المجالات الثقافية إلا بشكل تقريبي وانطلاقاً من عدد ضئيل من

السمات المشتركة.ومع ذلك، إذا استخدم هذا المفهوم بشكل مرن فإننا نرى أنه لا يخلو تماماً من الفائدة الوضعية [كروبر، ١٩٥٢].

لقد قسونا في بعض الأحيان على التخطيطات النظرية والمفهومية للأنثروبولوجيين الذين يركزون تفكيرهم على الظواهر المسماة ب"الانتشارية" لأن الانتشار هو نتيجة التماس أو الاحتكاك بين مختلف الثقافات وبين حركة السمات الثقافية.وإذا صحّ أن بعض إعادات البناء التاريخية خاضعة للصدفة أو غير معقولة فمردّ ذلك إلى بعض الباحثين من دعاة الانتشار الواسع hyperdiffusionistes من الأوربيين وليس الأمريكيين.وأغلب أتباع بواس الذين تأهلوا على دقّته المنهجية التجريبية كانوا حذرين في تأويلاتهم.

بالإضافة إلى التراكم المذهل للملاحظات التجريبية التي ندين بها لبواس هناك المساهمات النظرية لتيار الأنثروبولوجيا الأمريكية هذا الساعي لفهم تشكل الثقافات، وهي مساهمات ليست قليلة أبداً.كما ندين لهذا التيار بالمفهوم الأساسي ل"النموذج الثقافي" cultural pattern الذي يدل على المجموع المتكون للآليات التي تتكيف الثقافة مع وسطها (بيئتها)وقد أخذت مدرسة "الثقافة والشخصية" هذا المفهوم من أجل تعميقه. أدى تركيز بواس وأتباعه أبحاثهم على ظواهر الاحتكاك الثقافي وبالتالي على الاقتراض، إلى فتح الطريق أمام الأبحاث المستقبلية على المثاقفة والتبادلات الثقافية.وكشفت أبحاثهم عن أن أشكال الاقتراض ترتبط بالمجموعة المُعطية والمجموعة المتلقية في الوقت نفسه.كما صاغ أولئك الكتاب فرضية، سيتم التنظير لها لاحقاً، تقول بعدم وجود اختلاف أساسي بين الاقتراض والإبداع، على اعتبار أن الإبداع غالباً ما يكون تغييراً، أي إعادة خلق العنصر المُقتَرَض لوجوب تكيفه مع النموذج الثقافي للثقافة المستقبلية.

مالينوفسكي والتحليل الوظيفي للثقافة:

مثلما أدت تنظيرات الاتجاه التطوري إلى رد فعل بواس التجريبي، فقد أثارت المبالغات التأويلية لبعض دعاة الانتشارية رد فعل برونيسلاف مالينوفسكي (١٨٨٤-١٩٤٢) وهو الأنثروبولوجي الإنكليزي الذي ولد نمساوياً من عائلة بولونية.وقد وقف ضد أية محاولة لتدوين تاريخ الثقافة الشفوية، وطالب بالاكتفاء بملاحظة الثقافات مباشرة في حالتها الراهنة دون السعي إلى تتبع أصولها، الأمر الذي يمثل مسعى مؤقتاً لأنه لا يستند إلى البرهان العلمي.

ومن جانب آخر، انتقد مالينوفسكي تشظية الواقع الثقافي الذي تؤدي إليه بعض أبحاث التيار الانتشاري المتميز بمقاربة متحفية muséographie للوقائع الثقافية المردودة إلى سمات نجمعها ونصفها لذاتها دون أن نكون دائماً قادرين على فهم مكانتها في المنظومة الشاملة.ليس المهم أن تكون هذه السمة أو تلك موجودة هنا أو هناك بل المهم هو قيامها بوظيفة محددة في كلٍّ ثقافي معين.ويستبعد دراسة تلك السمات منفصلة عن بعضها لأن كل ثقافة تشكل منظومة ترتبط عناصرها مع بعضها بعض:

"[في كل ثقافة] يقوم كل من العرف والشيء والفكرة والمعتقد بوظيفة حيوية معينة، وتضطلع بمهمة معينة وتمثل جزءاً لا يمكن استبداله في الكل العضوي"[١٩٤٤].

علينا تحليل الثقافة من منظور تزامني انطلاقاً من تحليل معطياتها المعاصرة.وفي مقابل الانتشارية التي تهتم بالماضي والتطورية التي تهتم بالمستقبل، اقترح مالينوفسكي الوظيفية التي تركز على الحاضر، وهو الفسحة الزمنية الوحيدة التي يمكن للأنثروبولوجي من خلالها دراسة المجتمعات البشرية بشكل موضوعي.وبما أن

كل ثقافة تشكل كلاً متجانساً، وأن كل عناصر منظومة ثقافية تنسجم مع بعضها بعض فإن هذا يجعل المنظومة متوازنة ووظيفية، وهو ما يفسر كون الثقافة تسعى للاحتفاظ بانسجامها مع نفسها.ومالينوفسكي يقلل من أهمية اتجاهات التغير الداخلي الخاص بكل ثقافة.ويعتبر أن التغير الثقافي ينشأ أساساً عن الخارج بفضل الاحتكاك الثقافي.

ولتفسير الطابع الوظيفي للثقافات المختلفة يضع مالينوفسكي نظرية ستثير الكثير من الجدل، وهي النظرية المسماة بنظرية "الحاجات" أساساً لنظرية علمية للثقافة.(عنوان أحد كتبه المنشورة عام ١٩٤٤). ويرى أن من شأن العناصر المكونة لثقافة ما، تلبية الحاجات الأساسية للإنسان.ويقترض نموذجه من علوم الطبيعة، ويذكر بأن البشر يشكلون نوعاً حيوانياً. لأن الإنسان يعيش عدداً من الحاجات الفيزيولوجية (الغذاء، التناسل، الحماية، الخ..) التي تفرض مقتضيات أساسية.والثقافة هي تماماً الاستجابة الوظيفية لتلك المقتضيات الطبيعية.والثقافة تستجيب لها من خلال "المؤسسات"وهو المفهوم الذي يتبناه مالينوفسكي والذي يشير إلى الحلول الجماعية (المنظمة)للحاجات الفردية.والمؤسسات هي العناصر المادية للثقافة وهي الوحدات الأساسية لأية دراسة أنثروبولوجية أما السمات الثقافية فليست كذلك:إذ لا تتمتع أية سمة بأية دلالة إذا لم تعز إلى المؤسسة التي تنتمي إليها.ليس غرض الأنثروبولوجيا دراسة الوقائع الثقافية بشكل عشوائي معزول، بل دراسة المؤسسات(الاقتصادية، والسياسية والقانونية والتربوية ..)والعلاقات القائمة بين المؤسسات في علاقتها مع المنظومة الثقافية المندمجة فيها.

من نظرية الحاجات هذه التي تضع الأنثروبولوجيا في مأزق، نرى أن مالينوفسكي يخرج من إطار التفكير حول الثقافة بمعناها الحقيقي لكي يعود إلى دراسة الطبيعة البشرية التي يجهد في تحديد حاجاتها بشكل عشوائي إلى حد ما، ويضع قائمة

بالوقائع التي تعزز فكرته عن الاستقرار المنسجم لأية ثقافة، وهنا تتضح حدود الوظيفية:كما يتبين شيئاً فشيئاً أنها غير قادرة على النظر في التناقضات الداخلية والخلل الوظيفي أي الظواهر الثقافية المَرَضيّة.

ومع ذلك فإن لمالينوفسكي الفضل الكبير في بيان عجزنا عن دراسة الثقافة من الخارج أو عن بعد.ولم يكتف مالينوفسكي بالملاحظة المباشرة(الميدانية)إذ قام بتنظيم systématisé استخدام المنهج الاتنوغرافي(وصف الأعراق) المسمى ب"الملاحظة المشارِكة"observation participante (وهو صاحب هذه العبارة) وهي الشكل الوحيد للتعمق في معرفة الغيرية الثقافية التي يمكنها الإفلات من المركزية العرقية ethnocentrisme .في استطلاع مكثف وطويل يتقاسم الاتنولوجي حياة (وجود) شعب يجهد في النفوذ إلى عقليته الخاصة به من خلال تعلم لغة أهل البلاد.ومن الملاحظة الدقيقة للوقائع الأكثر خلواً من الدلالة (ظاهرياً) وهذا يعني أن نفهم بشكل أساسي وجهة نظر ابن البلد الأصلي.وهذا المسعى الناشئ هو وحده القادر بالتدريج على إظهار العلاقات المتبادلة بين كل الوقائع التي تمت ملاحظتها وبالتالي تحديد ثقافة الجماعة المدروسة.

مدرسة ((الثقافة والشخصية))

إن الأنثروبولوجيا الأميركية التي طالما سعت إلى تفسير الاختلافات الثقافية بين الجماعات البشرية قد انخرطت تدريجياً منذ الثلاثينات في طريق جديدة.

ولأن دراسة الثقافة جرت حتى هذه الساعة بشكل مجرد، ولأن العلاقات القائمة بين الفرد مع ثقافته لم تؤخذ بعين الاعتبار فقد اهتم عدد من الأنثروبولوجيين بفهم الكيفية التي تقوم من خلالها الكائنات البشرية بتجسيد ثقافتهم ومعايشتها وهم يرون أن الثقافة لا توجد كواقع"في حد ذاته" خارج الأفراد، حتى لو تمتعت كل ثقافة باستقلالية

نسبية إزاء هؤلاء الأفراد.وبالتالي فالمسألة هي كيف أن ثقافتهم موجودة فيهم وكيف تدفعهم إلى الفعل.وما هي التصرفات التي تثيرها لديهم طالما أن الفرضية تقوم تماماً على أن كل ثقافة تحدد أسلوباً معيناً للتصرف المشترك بين الأفراد المشاركين في ثقافة معينة.وهنا قد يكمن ما يشكل وحدة الثقافة ويجعلها نوعية بالنسبة للثقافات الأخرى.إذ ينظر المرء إلى الثقافة دائماً على أنها كلّ وأن الاهتمام يتركز دائماً على الانقطاعات التي تحدث بين مختلف الثقافات لكن طريقة التفسير تتغير.

كان إدوارد سابير E Sapi (١٨٨٤-١٩٣٩) من أوائل الذين أسفوا لإفقار الواقع الذي رأى سببه في محاولات إعادة تكوين انتشار السمات الثقافية.ويرى أن الموجود ليس العناصر الثقافية التي تنتقل كما هي من ثقافة لأخرى بمعزل عن الأفراد.، وهي السمات الخاصة بكل ثقافة ومن شأنها تفسير الاقتراض الثقافي [١٩٤٩].وقد تكون تيار ثقافي وُصف بمدرسة "الثقافة والشخصية" مارس تأثيراً كبيراً على الأنثروبولوجيا الأميركية.لا شك أن هذا المصطلح ينطوي على بعض المبالغة نظراً للتنوع الكبير في توجهات الباحثين ومناهجهم. فبعضهم يميل إلى القول بتأثير الثقافة على الفرد، وآخرون يميلون إلى رد فعل الفرد إزاء الثقافة.ومع ذلك فهم يشتركون في الاهتمام بالمكتسبات التي تم إحرازها في علم النفس العلمي والتحليل النفسي ويتسمون بالانفتاح على تعددية المعارف.ومع ذلك فإن إشكاليتهم تقلب المنظور الفرويدي، حيث لا يرون أن الليبيدو هو الذي يفسر الثقافة، بل على العكس فإن عُقد الليبيدو يمكن تفسيرها من خلال أصلها الثقافي.

إن المسألة الأساسية التي يطرحها باحثو هذه "المدرسة" على أنفسهم هي مسألة الشخصية. وتساءلوا عن آلية التغيير التي تقود أولئك الأفراد، ذوي الطبيعة المتشابهة في البادية إلى اكتساب أنماط مختلفة من الشخصية التي تتميز بها جماعات معينة.

وفرضيتهم الأساسية هي أنه ينبغي على تعددية الثقافات أن ترتبط بتعددية أنماط الشخصية.

روث بينديكت و (الأنماط الثقافية)

كرّست روث بينديكت، (١٨٨٧-١٩٤٨)، التي كانت تلميذة بواس ثم مساعدة له، جزءاً كبيراً من أعمالها لتحديد "أنماط ثقافية" تتسم بتوجهاتها العامة واختيار تلك الأنماط للانتقاءات ذات الدلالة المسبقة من بين الخيارات الممكنة.وضعت بينديكت فرضية وجود "قوس ثقافي"يتضمن كل الإمكانيات الثقافية في المجالات كلها على اعتبار أن كل ثقافة غير قادرة على تحقيق سوى جزء خاص من هذا القوس الثقافي، وبالتالي تظهر الثقافات المختلفة محددة ب"نمط" أو بأسلوب معيّن.وهذه الأنماط من الثقافات الممكنة لا توجد بعدد غير محدود بسبب حدود "القوس الثقافي"وبالتالي يمكن تصنيفها بعد أن يتم تحديدها.وإذا كانت بينيديكت مقتنعة بنوعية كل ثقافة فإنها تؤكد على أن تنوع الثقافات يمكن رده إلى عدد معين من الأنماط المحددة.

واشتهرت بينيديكت على وجه الخصوص، باستخدامها المنهجي لمفهوم النمط الثقافي pattern of culture (الذي سيكون عنوان أشهر كتبها الصادر عام ١٩٣٤) مع أنها لم تكن مؤلفته بالمعنى الحقيقي للكلمة. لأن فكرته كانت موجودة سابقاً عند كل من بواس وسابير.وهي ترى أن الثقافة تتميز بنموذج pattern خاص بها أي بشكل معين وأسلوب ونموذج خاصين.وهذا المصطلح الذي لا مكان له في اللغة الفرنسية، يقتضي فكرة وجود كل متجانس ومنسجم.

وبالتالي فإن كل ثقافة هي متجانسة لأنها تنسجم مع الأهداف التي تسعى إليها وهي أهداف مرتبطة بخياراتها من مجموعة الخيارات الثقافية الممكنة.ولا تسعى إلى هذه الأهداف بعلم الأفراد بل من خلالهم بفضل المؤسسات (لاسيما التربوية) التي

ستشكّل كل التصرفات المتفقة مع القيم المهيمنة الخاصة بها.وبالتالي فإن ما يحدد ثقافة معينة ليس حضور أو غياب سمة أو عقدة أو سمات ثقافية بحد ذاتها، بل في توجهها الشامل في هذا الاتجاه أو ذاك، إنه نمط فكرها وفعلها المنسجم.الثقافة ليست مجرد مراكمة سمات ثقافية، إنما هي شكل متجانس لتراكبها كلها مع بعضها بعض.وكل ثقافة تقدم للأفراد مخططاً غير واع لكل نشاطات الحياة.

بالنتيجة فإن الوحدة الدالة التي ينبغي دراستها هي الشكل الثقافي configuration culturellr من أجل إدراك منطقها الداخلي.وقد أوضحت بينيديكت منهجها من خلال دراسة مقارنة لنموذجين ثقافيين متناقضين هما نموذج هنود بويبلو في المكسيك الجديدة لاسيما شعب الزوني(وهو شعب محافظ ومسالم ومتضامن مع بعضه بشكل عميق، كما يحترم الآخرين وهو معتدل في التعبير عن مشاعره) ونموذج جيرانهم هنود السهوب ومنهم شعب الكواكيوتل kwkiutl (وهو شعب طموح، فردي وعدواني بل وعنيف ويميل إلى التميز بالعاطفة الجياشة): فوصفت الأول بأنه نموذج "أبولوني" والثاني "نموذج ديونيسي"(الإحالة إلى نيتشه واضحة هنا) وبينت أن ثقافات أخرى ترتبط بهذين النموذجين وبينهما أنماط وسيطة[بينيديكت، ١٩٣٤].

في الفترة نفسها التي عاشت فيها بينيديكت اختارت مارغريت ميد M. Mead(١٩٠١-١٩٧٨) توجيه أبحاثها إلى الطريقة التي يتلقى الفرد من خلالها ثقافته والنتائج المترتبة على تكون الشخصية. وقررت أن تضع عملية النقل الثقافي وإخضاع الشخصية لضوابط المجتمع socialisationفي مركز تفكراتها واستطلاعاتها.وبالتالي فقد قامت بتحليل ظواهر استقرار الثقافة في الفرد لتفسير المظاهر المهيمنة في شخصيته التي يكمن سببها في عملية الاستقرار هذه.

وأهم أبحاث ميد في هذا المجال هو ذلك الذي قادها إلى أوقيانوسيا حيث تعرفت على ثلاثة مجتمعات في غينيا الجديدة هي مجتمع الأرابش Arapesh ومجتمع الموندوغومور Mundogomore ومجتمع الشامبو يلي Chambuili [ميد، ١٩٣٥].ومن خلال هذه الحالات الثلاث بينت أن الشخصيتين المذكرة والمؤنثة اللتين نظن أنهما موجودتان في العالم كله وأنهما ميزتان بيولوجيتان، لاوجود لهما كما نتصورهما في المجتمعات كلها، بل هناك ما هو أكثر من هذا، فبعض المجتمعات تتمتع بمنظومة تربوية ثقافية لا تهتم بمقابلة الصبيان بالبنات على مستوى الشخصية.

عند الأرابش يبدو كل شيء منظماً منذ الطفولة الأولى حيث يربى كل من الرجل والمرأة على أن يكونا لطيفين وحساسين ومحبين لخدمة الآخرين.بينما عند الموندوغور، فإن نتيجة منظومة التربية تؤدي إلى التنافس والعدوانية سواء بين الرجال أو بين النساء أو بين الجنسين.المجتمع الأول يدلل الطفل دون تمييز بين الجنسين، أما الثاني فيربي أطفاله بطريقة قاسية لأنهم غير مرغوب فيهم سواء أكانوا صبياناً أم بنات.هذان المجتمعان ينتجان، من خلال منهجيهما الثقافيين، نموذجين متناقضين من الشخصية.وفي المقابل يشترك هذان المجتمعان في نقطة واحدة:باعتبارهما لا يميزان بين "علم نفس أنثوي"و"علم نفس ذكري"فهما لا ينتجان شخصية نوعية ذكرية أو أنثوية.وفقاً للمفهوم السائد في مجتمعنا، يبدو الأرباشي، ذكراً كان أم أنثى، متمتعاً بشخصية أنثوية أما الموندوغومورية أو الموندوغوموري فيتمتعان بشخصية ذكرية.لكن عرض الوقائع على هذا النحو من شأنه أن يؤدي إلى معنى مضاد.

على عكس ما سبق، فإن الشامبوليين، وهم المجموعة الثالثة، فيفكرون مثلنا أي أن الرجال والنساء يختلفون عن بعضهم اختلافاً عميقاً من حيث نفسيتهم psychologisme لكنهم يختلفون عنا في قناعتهم أن المرأة، بطبيعتها، هي

صاحبة المبادرة وديناميكية ومتضامنة مع أفراد جنسها وغير باطنية أما الرجل فهو حساس وأقل ثقة بنفسه، يهتم كثيراً بمظهره الخارجي وسريع الغيرة من نظرائه.والسبب هو أن شعب الشامبو لي يرى أن النساء هن من يمسك بالسلطة الاقتصادية ويقمن بتأمين ما هو أساسي لحياة الجماعة بينما يتوجه الرجال أساساً، إلى النشاطات الطقسية(الاحتفالية) والجمالية التي غالباً ما تضعهم في حالة تنافس مع الآخرين.

إن سمات الشخصية التي نصفها بالذكورة أو الأنوثة يتحدد عدد كبير منها إن لم يكن كلها بالجنس وبطريقة سطحية كالملابس وأشكال التصرف وقصة الشعر التي تفرضها على هذا الجنس أو ذاك.[(١٩٣٥)١٩٦٣، ص٢٥٢)].

وبالتالي لا يمكن تفسير الشخصية الفردية بخواصها البيولوجية(كالجنس على سبيل المثال) بل ب"النموذج" الثقافي الخاص بمجتمع معين يحدد تربية الطفل.بدءاً من اللحظات الأولى يتشبع الفرد بهذا النموذج عن طريق منظومة من المحرّضات والممنوعات المصاغة بشكل صريح أو غير صريح، تقوده بعد أن يصبح راشداًً، للتقيد بشكل لاواعٍ بالمبادئ الأساسية للثقافة.هذه العملية هي التي سماها الأنثروبولوجيون بالتثقيف الداخلي enculturation ، .وبما أن بنية الشخصية الراشدة تنتج عن نقل الثقافة عبر التربية فستتكيف من حيث المبدأ مع نموذج هذه الشخصية.والشذوذ النفسي الموجود والظاهر المعالم في أي مجتمع لا يمكن تفسيره بالطريقة نفسها وليس بشكل مطلق(شامل) إنما بشكل نسبي باعتباره[أي الشذوذ] نتيجة لعدم تكيف الفرد المسمى ب"الشاذ" مع التوجه الجوهري لثقافته(شعب الأرابش أناني وعدواني، وشعب الموندوغور هو شعب لطيف وغيري).بالتالي هناك علاقة بين النموذج الثقافي ومنهج التربية ونمط الشخصية المُهيمن.

لينتون كاردينر و(الشخصية الأساسية)

يرى الأنثروبولوجيون المنتمون إلى مدرسة "الثقافة والشخصية" أنه لا يمكن تحديد الثقافة إلا من خلال البشر الذين يعيشونها.صحيح أن الفرد والثقافة يشكلان واقعين متمايزين لكن لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض ويؤثر أحدهما على الآخر كما لا يمكن فهم أحدهما إلا في علاقته بالآخر.

لكن الأنثروبولوجيين لا يتوقفون إلا عند ما هو مشترك في نفس الفرد بين أعضاء الجماعة نفسها.في الواقع يتعلق المظهر الفردي للشخصية بفرع معرفي آخر هو علم النفس. هذا المظهر المشترك، في الشخصية يسميه رالف لينتون (١٨٩٣-١٩٥٣) "الشخصية الأساسية" وهو يرى أنها تتحدد مباشرة بالثقافة التي ينتمي إليها الفرد.لينتون لا يجهل تنوع النفسيّات psychologies الفردية. ويظن أن مجموعة الاختلافات النفسية يمكن العثور عليها في أية ثقافة.وهو أمر يصح على ثقافة معينة وما هو صحيح في هذه الثقافة أو تلك هو هيمنة هذا النمط أو ذاك من أنماط الشخصية،وفي تطويره لأبحاث بينيديكت وميد رأى لينتون من خلال استطلاعاته المبدئية في جزر ماركيز ومدغشقر أن كل ثقافة تفضل من كل الأنماط الممكنة نمط الشخصية التي يصبح عندها "عادياً" (متفقاً مع المعيار الثقافي وبالتالي معترف به بأنه نمط عادي.هذا النمط العادي هو "الشخصية الأساسية"، بمعنى آخر هو "الأساس الثقافي للشخصية"(وفقاً للعبارة التي ستتحول في عام ١٩٤٥ إلى عنوان لأحد كتبه).كل فرد يكتسب هذه الشخصية من خلال منظومة التربية الخاصة بمجتمعه.

وجه المسألة هذا-اكتساب الشخصية الأساسية من خلال التربية- شكل معظم الأبحاث النوعية التي أجراها أبرام كاردينر Abram Kardiner (١٨٩١-١٩٨١)، وهو محلل نفسي مؤهل وتعاون بشكل وثيق مع لينتون..وقد درس كيفية تكون

الشخصية الأساسية عند الفرد عبر ما يسميه "المؤسسات الأولية" الخاصة بكل مجتمع(وأولها العائلة والمنظومة التربوية) وكيفية تأثير هذه الشخصية على ثقافة الجماعة عبر إنتاجها-عن طريق نوع من آلية الإسقاط)"مؤسسات ثانوية"(منظومات قيم ومعتقدات على وجه الخصوص) تعوّض الإحباطات التي تسببها المؤسسات الأولية التي تؤدي إلى تطور الثقافة بشكل ملموس[كاردينر، ١٩٣٩]

أما لينتون فقد جهد لتجاوز المفهوم الجامد للشخصية الأساسية.وكان يأخذ على بينديكت الاختزال الذي كانت تقوم به من خلال ربطها الثقافة بنمط ثقافي واحد يرتبط بنمط سلوكي مهيمن.ويؤمن أن الثقافة الواحدة من شأنها أن تتضمن في الوقت نفسه عدة "أنماط"عادية من الثقافة، لأن عدة منظومات قيمية تتعايش في عدد من الثقافات.ثم ينبغي النظر بعين الاعتبار، كما يقول لينتون، إلى تنوع القوانين في كنف المجتمع الواحد.والفرد غير قادر على أن يجمع كل الثقافة التي ينتمي إليها ولا يملك معرفة تامة بثقافته.كما أنه لا يعرف من ثقافته إلا ما هو ضروري له لكي يتوافق مع قوانينها (الجنس، العمر، الوضع الاجتماعي الخ) ليقوم بأدوار اجتماعية تنتج عنها.ووجود قوانين مختلفة يقود في نهاية الأمر إلى هذه التنوعات الدالة، إلى حد ما، على الشخصية الأساسية وهي "الشخصيات القانونية "[لينتون ١٩٤٥].

وتابع كل من لينتون وكاردينر تفكراتهما حول الفعل المتبادل بين الثقافة والفرد فقالا بأن الفرد ليس مستودعاً سلبياً لثقافته.ويعرّف كاردينر الشخصية الأساسية على النحو التالي:

"هي تمظهر سيكولوجي خاص يتعلق بأفراد مجتمع معين وتبدى في أسلوب معين من السلوك الذي ينمّق الأفراد تنوعاتهم(اختلافاتهم) بمقتضاه" [١٩٣٩] .

إن أي فرد كان، ولأنه فرد فريد في حد ذاته وله سماته الخاصة به(حتى لو كانت تلك السمات نفسية تتضمن الشخصية الأساسية إلى حد ما) ويتمتع بقابلية أساسية، باعتباره كائناً إنساناً، على الابتكار سيشارك(الفرد) في تغيير ثقافته بشكل لا يبدو، في أغلب الأحيان، ملحوظاً، كما يشارك بعدها في تغيير الشخصية الأساسية.بعبارة أخرى، ، لكل فرد طبيعته الخاصة في فهم وعيش ثقافته مع بقائه مطبوعاً بطابعها.إن تراكم التنوعات أو الاختلافات الفردية، بدءاً بالموضوع المشترك الذي يكون الشخصية الأساسية يسمح بتفسير التطور الداخلي لثقافة معينة، وغالباً ما يتم هذا التطور وفق إيقاع بطيء.

إن مختلف الاعتبارات السابقة تبين عدم إمكانية خلط النتائج التي توصل إليها كل من لينتون وكاردينر حول الشخصية الأساسية بالنظريات الرومانتيكية حول " روح"الشعوب و"عبقريتها".ولا يعني انطلاق الأنثروبولوجيين الأميركيين من التساؤل الذي بدأ به الكتّاب والفلاسفة الألمان، على وجه الخصوص، حول الطابع الأساسي لكل شعب لايعني، مع ذلك، أنهم يقدمون الأجوبة نفسها.إذ إنّ لدى كل من لينتون وكاردينر مفهوماً مرناً حول الانتقال الثقافي الذي تحل التنوعات الفردية محله بالإضافة إلى كونه لا يهمل مسألة التغير الثقافي.وبالتالي فإن مقاربتهما للثقافة وللشخصية هي مقاربة ديناميكية أكثر منها سكونية.

دروس الأنثروبولوجيا الثقافية

خضعت أعمال الأنثروبولوجيا الثقافية الأميركية لعدة انتقادات منها ما هو مشروع في حد ذاته، في المناقشة العلمية.لكن ما هو أقل مشروعية هو ذلك العرض الاختزالي الذي تعرض من خلاله لأنك تراه أحياناً عرضاً كاريكاتورياً في فرنسا لا سيما حيث تُعرض أطروحات الثقافويين culturalistes .

وأكثر وجه من أوجه هذا العرض قابلية للجدل هو طابعه التعميمي.فيقدمون الثقافوية على أنها منظومة نظرية واحدة في الوقت الذي يكون فيه الأصح هو الحديث عن "ثقافويات". وهناك مجموعة من الانتقادات التي وجهت إلى الثقافوية دون أن تحدد أن عدداً كبيراً منها قد صيغ أولاً من قبل ثقافويين ضد ثقافويين آخرين.وقد شهدت الأنثروبولوجيا الثقافية نقداً داخلياً واسعاً.لقد عُرضت المقترحات الثقافوية تدريجياً وصححت بعض المقترحات السابقة.وإذا نظرنا إلى أغلب الباحثين بشكل منفرد سنرى تطورات ملموسة لفكرهم طيلة ممارستهم لمهنتهم.

هناك الاتجاه الذاتي essentialiste أو الجوهري الذي يقوم على فهم الثقافة باعتبارها واقعاً في حد ذاته–وهذا ما أُخذ على الثقافويين– هو نقد لا ينطبق بالفعل على كروببر الذي كان يرى أن الثقافة ناتجة عن مجال "فوق عضوي" يحدد مستوى مستقلاً للواقع ويخضع لقوانين خاصة وبالتالي فهو يعزو إليه وجوداً خاصاً مستقلاً عن وجود الأفراد ويفلت من رقابتهم[كروببر، ١٩١٧].واحتفظت بينديكت بشيء من مفاهيم الاتجاه الذاتي، إذ كانت تعتقد أن الثقافة تتجه إلى هدف له علاقة بتوجه النمط الخاص بها دون علم الأفراد.لكن غالبية أنثروبولوجي مدرسة "الثقافة والشخصية" تحركوا في وجه المخاطر الناجمة عن إعادة تعريف الثقافة.وتؤكد مارغريت ميد بشكل واضح على أن الثقافة هي شيء مجرد(لكن هذا لا يعني أنها وهم).ما هو موجود، كما تقول، هم الأفراد الذين يخلقون الثقافة وينقلونها ويغيرونها.الأنثروبولوجي لا يستطيع ملاحظة الثقافة على الأرض، فما يلاحظه ليس سوى تصرفات فردية.كل جهد الثقافويين القريبين من ميد انصب في نهاية الأمر على فهم الثقافات انطلاقاً من تصرفات الأفراد الذين "هم الثقافة" بحسب تعبير ميد.

ومن الاتهامات الموجهة إلى الثقافوية ما يقول أنها قدمت مفهوماً سكونياً جامداً للثقافة.وسبق أن بيّنا أن هذا النقد لا يقوم على أساس صحيح.الثقافويون لا يؤمنون باستقرار الثقافويات ويهتمون بالتطورات الثقافية ويسعون إلى تفسيرها من خلال عملية الاختلافات الفردية في اكتساب الثقافة.والفرد الذي ينتج حياة نفسية خاصة به "يقوم بإعادة تفسير"ثقافته على وجه الخصوص تبعاً لتاريخه الشخصي.ومجموع التأويلات الفردية كلها مضافة إلى فعلها المتبادل هي التي من شأنها تطوير الثقافة.وتشدد مارغريت ميد كثيراً على حقيقة أن الثقافة ليست "مُعطى" يتلقاها الفرد بشكل كليّ دفعة واحدة من خلال التربية .ولا تنتقل الثقافة كالمورّثات (الجينات).لكن الفرد يمتلك ثقافته تدريجيا خلال حياته وفي كل الأحوال، فهو لا يستطيع اكتساب ثقافة المجموعة التي ينتمي إليها كلها أبداً.

إن النقاش الأكثر جوهرية حول الأنثروبولوجيا الثقافية هو ذلك الذي يتعلق بالمقاربة النسبية للثقافات ويشدد على تعدديتها أكثر من تشديده على وحدتها.وترى هذه المقاربة أن الثقافات تُعامَل على أنها كليّات نوعية بعضها مستقل عن البعض الآخر، وبالتالي ينبغي على الثقافة أن تُدرس لذاتها وضمن منطقها الخاص بها.والمسألة كلها تكمن في معرفة ما إذا كانت هذه النسبية الثقافية تشكل ضرورة منهجية أم هي مفهوم نظري.الأنثروبولوجيون الثقافويون يكتنفهم الغموض أحياناً حول هذه المسألة.فقد كانت النسبية في بدايتها مع بواس عبارة عن رد فعل منهجي ضد التطورية.وهذا لا يعني الزعم بأن الثقافات المختلفة هي بالقطع غير قابلة للمقارنة مع بعضها بعض.لكن لا يمكن إجراء هذه المقارنة إلا بعد القيام بدراسة كل ثقافة لذاتها بشكل كامل. لا ريب أننا واهمون إذ نعتقد بقدرتنا على مماهاة ثقافة خاصة بسهولة مع ثقافة أخرى وتفصيل حدودها وتحليل الكيفية التي لا تُختزل فيها ثقافة إلى

أخرى..وكذا الأمر على المستوى المنهجي، إذ من المفيد أحياناً بل من الضروري أن نتصرف "كما لو" أن ثقافة خاصة كانت توجد كماهية منفصلة وتتمتع باستقلالية حقيقية حتى لو لم تكن تلك الاستقلالية، في الواقع، إلا استقلالية نسبية إزاء الثقافات الأخرى المجاورة.

لا شك في أن الثقافويين لم ينجحوا في تحديد طبيعة "الثقافة" بشكل نهائي كما يقول كروبير[١٩٥٢] .ويبقى النقاش مفتوحاً.وهو نقاش لم تتوقف الأنثروبولوجيا الثقافية الأميركية عن المشاركة فيه واستمرت في متابعة أبحاثها بشكل يغلب الابتكار عليه.ودروس الثقافوية أو الثقافويات غنية بالتعاليم.ولم يعد اليوم ممكناً تجاهل وجود أشكال أخرى للعيش والتفكير وأنها ليست تجليّات أساليب قديمة من أي نوع، كما أنها ليست تجليات أي نوع من أنواع "الوحشية" أو "البربرية".ونحن ندين لتلك الدروس في أنها وضحت التجانس النسبي بين المنظومات الثقافية كلها.وكل منظومة هي تعبير خاص وأصيل لكل المنظومات الأخرى، عن إنسانية واحدة.

ساهم الباحثون الثقافويون كثيراً في جلاء الغموض القائم بين ما ينشأ عن الطبيعة(عند البشر) وعن الثقافة وكانوا شديدي الانتباه إلى ظواهر خلط الثقافة بالمعنى الحقيقي للعبارة، مبينين أن الجسد نفسه من صنع الطبيعة.ويفسرون هذا بقولهم إن الثقافة "تفسر" الطبيعة وتقوم بتغييرها.حتى الوظائف الحيوية للإنسان كالأكل والنوم والجماع والوضع "تمليها" الطبيعة، بالإضافة إلى التغوّط والتبوّل والمشي والركض والسباحة الخ. إن هذه الممارسات التي هي من شأن الجسد تبدو طبيعية بما لا يقبل الشك، وهذا ما برهن عليه مارسيل ماوس عام ١٩٣٦ في دراسته حول "تقنيات الجسد" حيث يقول:" إن المرء يختلف في طريقة جلوسه ونومه ومشيه من ثقافة لأخرى.ولا يمكننا ملاحظة الطبيعة عند الإنسان إلا بعد أن تقوم الثقافة بتغييرها.

وندين لمدرسة"الثقافة والشخصية" لتوضيحها أهمية التربية في عملية التميّز الثقافي.فالتربية ضرورية للإنسان وحاسمة بالنسبة له لأن الكائن البشري لا يملك عملياً، أي برنامج وراثي يوجه سلوكه.والبيولوجيون أنفسهم يقولون إن البرنامج "الوراثي" الوحيد للإنسان هو برنامج التقليد والتعلّم، وبالتالي فإن الفروق الثقافية بين الجماعات البشرية تُفسّر في جزء كبير منها بالمنظومات المختلفة للتربية التي تتضمن مناهج تربية الرضّع élevage (الرضاعة، العناية بالجسد، طريقة النوم، الفطام، الخ) تختلف بشدة من جماعة لأخرى.

وجهد ثلاثة باحثين أمريكيين في تفسير وجود طقوس اليافعين في فترة بلوغهم سن الرشد في بعض المجتمعات وغيابها في مجتمعات أخرى.وظنّ هؤلاء الباحثون أنهم قادرون على إقامة علاقة بين الارتباط الوثيق بالأم في فترة الطفولة المبكرة وبين شرعنة هذه الطقوس.فهناك حيث تنظيم النوم يتطلب أن ينام الطفل والأم معاً واستبعاد الأب لعدة أشهر وربما لعدة سنوات عن المخدع الزوجي، فإن طقوس الإدخال، وهي ذروة التأهيل التربوي، تتسم بصرامة خاصة.في هذه الحالة يتم كل شيء كما لو أن الآباء، في فترة نضوج أبنائهم النفسي، يقررون إبعادهم عن تأثير الأم وتأكيد سلطتهم عليهم للحيلولة دون قيامهم بأي تمرد ويقومون بدمجهم في عالم الذكورة[وايتنغ، كلوكهون، أنتوني ١٩٥٨].

هناك عدد كبير من الباحثين اللاحقين لم يرغبوا في الانتماء إلى الاتجاه الثقافوي ولايمكن حسابهم عليه، هؤلاء استفادوا من أعمال الأنثروبولوجيين الأمريكيين في مجال التربية.وبينت جاكلين رابان أن تربية الطفل الصغير وولف(السنغال) تفضل أخذ العلاقة بالآخر بعين الاعتبار .وخلافاً لما نراه في المجتمعات الغربية المعاصرة، فإن تربية وولف تجهد في تجنب تمييز (فردنة) singularisation الطفل من أجل

تشجيع اندماجه الاجتماعي.لذا لانقدم المديح للأطفال ولا إلى الأهل بشأن أطفالهم أو لا تقوم بها إلا بشكل مدروس.بالنسبة لجماعة وولف يمكن للمدح أن يكون شؤماً لأنه يشجع على تخصيص الطفل وبالتالي على تهميشه.والعلامات الوحيدة المقبولة بالنسبة للأطفال هي تلك التي تشير إلى ما يمكن "تفسيره كعلامات اندماج اجتماعي على طريق التحقق في سلوكهم"[رايان، ١٩٧٩، ص ١٤١].إن علم تربية وولف يقوم أساساً على تربية التواصل، وتعلم الاستخدام الاجتماعي الشديد الترميز للكلام هو "تعلم قواعد العلاقات الاجتماعية[المرجع السابق، ص ١٤٢].وفي نهاية المطاف فإن المكتسبات الاجتماعية أهم من المكتسبات التقنية التي تعلمها بشكل غير منهجي، وأهم من التفتح "الشخصي"للطفل.

لقد اغتنى مفهوم الثقافة كثيراً بفضل الثقافويات المختلفة ولم تعد الثقافة تظهر كمجرد مجموعة من السمات المتفرقة بل كمجموع منظم من العناصر المترابطة فيما بينها وشكلها يساوي في أهميته مضمونها إن لم يكن أكثر .

<u>ليفي شتراوس والتحليل البنيوي للثقافة</u>

لم تتمكن الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية من تكوين أتباع كثيرين لها في فرنسا، إلا أن ليفي شتراوس عاد إلى موضوع الشمولية الثقافية التي يعرّفها على النحو التالي:

"يمكن اعتبار الثقافة كمجموعة من المنظومات الرمزية التي تحتل المرتبة الأولى فيها اللغة وقواعد الزواج والعلاقات الاقتصادية والفن والعلم والدين.وهذه المنظومات كلها تهدف إلى التعبير عن بعض أوجه الواقع المادي والواقع الاجتماعي وكذلك العلاقات التي يقيمها هذان النمطان مع بعضهما بعض وتلك التي تقوم بين المنظومات الرمزية نفسها مع بعضها [١٩٥٠، صXIX].

لقد سبق وأن اطلع شتراوس على أعمال زملائه الأمريكيين، وخلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، أي خلال الفترة بين ١٩٤١ إلى عام ١٩٤٧ أقام في الولايات المتحدة فترة طويلة حيث تشرب بأعمال الأنثروبولوجيا الثقافية لا سيما أنثروبولوجيا بواس وكروبير وبينيديكت.

وأخذ ليفي شتراوس أربع أفكار أساسية من روث بينيديكت.أولها فكرة أن الثقافات المختلفة تتحدد بنموذج معين pattern ، والثانية هي أن عدد أنماط الثقافات الممكنة محدود.وثالثاً، اعتبار أن دراسة المجتمعات ا"لبدائية" هي أفضل منهج لتحديد التركيبات combinaisons الممكنة بين العناصر الثقافية.وأخيراً يمكن دراسة هذه التركيبات في حد ذاتها بمعزل عن الأفراد المنتمين إلى الجماعة التي تبقى[التركيبات] غير واعية بالنسبة لها.

ويتضح إرث بينديكت في السطور التالية المأخوذة عن كتاب ليفي شتراوس : مدارات حزينة:

يتميز مجموع أعراف شعب ما دائماً بأسلوب معين، وهذه الأعراف تشكل منظومة معينة وأنا مقتنع بأن عدد هذه المنظومات محدود وأن المجتمعات البشرية، شأنها شأن الأفراد في ألعابهم وأحلامهم أو هذيانهم-لا تنشأ أبداً بشكل مطلق، لكنها تكتفي باختيار بعض التركيبات في مسرد مثالي حيث يمكن إعادة تشكيلها.ويمكننا من خلال وضع كشف بكل الأعراف التي تمّت ملاحظتها وتلك التي نتخيلها في الأساطير، والتي توحي بها ألعاب الأطفال والبالغين وأحلام الأفراد الأصحّاء أو المرضى والتصرفات النفسية المَرَضيّة، (يمكننا)وضع جدول دوري يشبه جدول العناصر الكيميائية حيث قد تظهر الأعراف الحقيقية أو الممكنة فقط مجموعة في

عائلات وحيث لا يعود بإمكاننا إلا الاعتراف بتلك التي اعتمدتها المجتمعات بشكل فعلي [١٩٥٥، ص ٢٠٣].

على الرغم من وراثة فكر ليفي شتراوس لبعض من فكر الأنثروبولوجيين الثقافيين الأمريكيين إلا أنه يتميز عن ذلك الفكر من خلال سعيه لتجاوز المقاربة الذاتية particulariste للثقافات.وأراد ليفي شتراوس من دراسته للتنوعات الثقافية تحليل (ظاهرة)عدم تغيّر الثقافة.ويرى أنه لا يمكن فهم الثقافات الخاصة دون الرجوع إلى الثقافة"التي هي رأس المال المشترك" للبشرية التي تمتح الثقافة منها لوضع نماذجها النوعية.وما يسعى ليفي شتراوس إلى اكتشافه في تنوع الإنتاجات البشرية هو المقولات catégories والبنى اللاواعية للعقل البشري.

تطمح الأنثروبولوجيا التي ينادي بها ليفي شتراوس إلى الكشف عن "الثوابت" ومن ثم تصنيفها.والثوابت هي المواد الثقافية التي تتشابه دائماً من ثقافة لأخرى، وعدد هذه الثوابت محدود حتماً لأن النفسية البشرية واحدة.في الوقت الذي تحل فيه الثقافة محل الطبيعة، أي في مستوى الشروط العامة جداً لعمل الحياة الاجتماعية يمكن إيجاد القاعدات العامة التي تشكل في الوقت نفسه مبادئ لازمة للحياة في المجتمع.فمن طبيعة الإنسان أن يعيش في مجتمع، لكن تنظيم الحياة في مجتمع سببه الثقافة ويقتضي وضع قاعدات اجتماعية.وأكثر الأمثلة دلالة على هذه القاعدات الشاملة التي تقوم البنيوية بتحليلها هو تحريم جماع المحارم الذي يقوم على ضرورة المبادلات الاجتماعية.

تضطلع الأنثروبولوجيا البنيوية بمهمة العثور على ما هو ضروري للحياة الاجتماعية، أي الكليّات الثقافية أو، بعبارة أخرى، ما قبليات المجتمع البشري.وانطلاقاً من هنا توضع البناءات structurations الممكنة والمحدودة

عددياً، للأدوات الثقافيةmatériaux culturels أي ما من شأنه خلق التنوع الثقافي الظاهر بعيداً عن ثبات المبادئ الثقافية الأساسية.ولعرض هذه العلاقة بين عالمية الثقافة وخصوصية الثقافات يستخدم ليفي شتراوس مجاز لعبة الورق:

الإنسان يشبه اللاعب الممسك بيده، حينما يجلس إلى الطاولة، تلك الأوراق التي لم يخترعها، لأن لعبة الورق معطى تاريخي وحضاري[..].وكل توزيع للأوراق ينجم عن تمييز ممكن بين اللاعبين، ويتم هذا التوزيع دون علمهم.هناك توزيعات تتم لكن المجتمع كاللاعب، يفسرها وفقاً لعدة منظومات يمكن أن تكون مشتركة أو خاصة هي قواعد اللعب

أو قواعد التكتيك.ونعلم جيداً أن مختلف اللاعبين لا يقدمون مع التوزيعة نفسها الشوطَ نفسه مع أنهم غير قادرين على تقديم أي شوط في توزيعة معينة بسبب ضوابط القاعدات نفسها[١٩٥٨].

وتنهي الأنثروبولوجيا رسالتها حين تنجح في وصف كل الأشواط parties الممكنة بعد التحقق من الأوراق والإعلان عن القاعدات.وعلى هذا فإن الأنثروبولوجيا البنيوية تزعم العودة إلى الأسس العامة للثقافة، أي إلى تلك المرحلة التي تم فيها الانفصال عن الطبيعة.

<u>الثقافوية وعلم الاجتماع مفهوما (الثقافة الفرعية) sous-culture والاستشراك socialisation</u>

مارست الأنثروبولوجيا البنيوية تأثيراً كبيراً على علم الاجتماع الأميركي وكَثُر استخدام مفهوم الثقافة من قبل عدد لا بأس به من علماء الاجتماع الأميركيين الذين استندوا إلى التعاريف التي قدمها الأنثروبولوجيون.

قبل ظهور الثقافوية بمعناها المعروف، كان علماء الاجتماع المؤسسون لما يسمى ب"مدرسة شيكاغو" مهتمين بالبعد الثقافي للعلاقات الاجتماعية، وهو ما يمكن فهمه حين نعلم أن أبحاثهم كانت تنصب أساساً على العلاقات القائمة بين الأعراق.وسبق لهم أن اهتموا بتأثير الثقافة الأصلية للمهاجرين على اندماجهم في المجتمع الذي يستقبلهم، ومن هؤلاء وليام توماس الذي بحث هذا الأمر في دراسته الشهيرة حول الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا المنشورة بين عامي ١٩١٨و ١٩٢٠.وهناك أيضاً روبيرت بارك الذي درس مسألة مواجهة الفرد الأجنبي، بشكل مباشر، لمنظومتين ثقافيتين متنافستين أحياناً هما منظومة ثقافته الأصلية ومنظومة مجتمع الاستقبال.حيث ينشأ عن هذه المواجهة "الإنسان الهامشي" الذي يتطبع إلى حد ما بطباع المنظومتين وفقاً لتعريف بارك.

إن التطور الكبير الذي شهدته الأنثروبولوجيا الثقافية الأميركية في الثلاثينات أثر بشكل كبير على قسم من علم الاجتماع.والتقريب بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا قاد الأول إلى اعتماد مناهج الثانية كما أخذت هذه ميدانها عن الأول.ولهذا تكاثرت الدراسات المتعلقة ب"الجماعات المتمدنة" في الولايات المتحدة.هذه الجماعات التي تتكون عموماً من المدن الصغيرة أو المتوسطة أو الأحياء، تمّت دراستها من قبل الباحثين عبر الطريقة نفسها التي يدرس فيها الأنثروبولوجيون جماعة قروية أصلية.وتقوم فرضية الدراسة على أن الجماعة تشكل عالماً صغيرا يسمح بفهم كليّة ثقافة هذا المجتمع(هيربان ١٩٧٣).

في بداية الأمر، كانت الدراسات المتعلقة بالجماعات البشرية، لا سيما دراسات ليند، تلجأ إلى تعريف الثقافة الأميركية في شموليتها، كما تمكنت روث بينديكت من تعريف ثقافة هنود البويبلو، ومارغريت ميد في تعريفها لثقافة الآرابش.لكن خَلَف ليند

اهتموا بالتعرف على التنوع الثقافي الأميركي ودراسته أكثر من اهتمامهم بالبحث عن البرهنة على وحدة ثقافة الولايات المتحدة.

هذه الأبحاث أدت إلى خلق مصطلح جديد حول مفهوم "الثقافة التحتية" الذي سيشهد فيما بعد نجاحاً كبيرا. ونظراً لشدة تنوع المجتمع الأميركي من الناحية الاجتماعية فقد تطبعت كل مجموعة اجتماعية بطابع ثقافة تحتية خاصة.وهنا نجد فكرة وضع لينتون خطوطها الأولى من خلال مفهوم "الشخصية القانونية" statuaire .وبالتالي يميز علماء الاجتماع الثقافات التحتية تبعاً للطبقات الاجتماعية والمجموعات العرقية.وذهب الأمر ببعض الكتّاب إلى الحديث عن الثقافة التحتية للمنحرفين واللوطيين والفقراء والشباب الخ.في المجتمعات المركبّة التي يمكن أن يكون فيها لمختلف المجموعات أشكال تفكير وتصرفات خاصة إضافة إلى مشاركتها في الثقافة العامة للمجتمع حيث تفرض على الأفراد نماذج أكثر مرونة وأقل تقيداً من نماذج المجتمعات "البدائية"بسبب تغاير المجتمع المركب نفسه.

على صعيد آخر فإن الظواهر المسماة ب"الثقافة المضادة" في المجتمعات الحديثة مثل حركة "الهيبيين" التي انتشرت في الستينات والسبعينات ليست سوى شكل من أشكال جعل الثقافة الشاملة مرجعيةَ تزعم الحركةُ الوقوف في وجهها، والسبب في ذلك طابع الثقافة الإشكالي وغير المتجانس.وهم يساهمون في تجديد وتطوير الديناميكية الخاصة بالمنظومة الثقافية ولا يضعفونها.وحركة "الثقافة المضادة" لا تنتج ثقافة بديلة عن الثقافة التي تدينها وتستنكرها وهي في نهاية المطاف ليست سوى ثقافة فرعية.

وتساءل علماء الاجتماع عن موضوع الاستمرارية عبر الأجيال وعن الثقافات أو الثقافات التحتية الخاصة بمختلف المجموعات الاجتماعية.وللإجابة على هذا السؤال

لجأ بعضهم إلى مفهوم "الاستشراك" socialisation بما هو عملية دمج الفرد في مجتمع معين أو في جماعة خاصة عبر استبطان أشكال من التفكير والشعور والتصرف، أي نماذج ثقافية خاصة بذلك المجتمع أو تلك المجموعة.والأبحاث التي غالباً ما تجرى من منظور مقارن (بين أمم، بين طبقات اجتماعية، بين جنسين، الخ)تدور حول مختلف أنماط التعلّم التي يخضع لها الفرد والتي من خلالها يتم ذلك الاستبطان، وكذلك حول الآثار التي تتركها على السلوك.

على الرغم من أن استخدام كلمة استشراك يعدّ حديثاً نسبياً– لم يدرج استخدامه إلا في نهاية الثلاثينات–فهو يحيل إلى سؤال أساسي يطرحه علم الاجتماع:كيف يصبح الفرد عضواً في مجتمعه وكيف تتم عملية مماهاته في ذلك المجتمع؟ويعدّ هذا السؤال مركزياً في أعمال دوركهايم وإن لم يستخدم هذه الكلمة.يرى دوركهايم أن المجتمع ينقل إلى الأفراد الذين يتكون منهم، عبر التربية، مجموع المعايير الاجتماعية والثقافية التي تؤمن التضامن بين أعضاء هذا المجتمع وأنهم مجبرون، نوعاً ما، على أن يجعلوا هذا المجتمع مجتمعهم.

لقد جهد عالم الاجتماع الأميركي تالكوت بارسونز Talcott Parsons للتوفيق بين تحليلات دوركهايم وفرويد.ويرى أن العائلة، وهي أول من يقوم بعملية الاستشراك، تلعب في هذه العملية دوراً كبيراً.لكن علينا ألا نستهين بدور المدرسة أو مجموعة الأقران (رفاق الصف واللعب)ويظن أن الاستشراك يكتمل في سن المراهقة، فإما أن ينجح هذا الاستشراك ويتكيف الفرد مع المجتمع بشكل جيد أو يفشل فينزلق الفرد ربما نحو الانحراف.وبمقدار ما يتدخل الامتثال لمعايير المجتمع وقيمه بشكل مبكر في وجود الفرد بمقدار ما يتجه إلى تكيّف ملائم ل"المنظومة الاجتماعية"[بارسونز، ١٩٥٤].

إن مفاهيم الاستشراك هذه تفترض أولوية المجتمع على الفرد، كما تفترض أن الاستشراك ينتج عن ضغط يمارسه المجتمع على الفرد.يمكن فهم الاستشراك، عند بارسونز، على أنه تكييف حقيقي.ويبدو الفرد ككائن غير مستقل وسلوكه ليس سوى إعادة إنتاج نماذج مكتسبة خلال مرحلة الطفولة.وكما بيّن بعض المعلّقين فإن الاستشراك هو نوع من الترويض كما يراه بارسونز.

هناك تحليلات اختلفت عن تحليلات بارسونز تركز على الاستقلال النسبي للفرد الذي لم يتحدد الشكل النهائي لاستشراكه الذي عاشه خلال طفولته.فهو قادر على الاستفادة من الأوضاع الجديدة ربما لكي يعدّل مواقفه.على أية حال، فإن النماذج الثقافية في المجتمعات المعاصرة تتطور باستمرار وتقود الأفراد إلى مراجعة النموذج المُستَبطَن خلال مرحلة الطفولة.

وقام كل من بيتر بيرغر وتوماس لوكمان بتمييز "الاستشراك الأولي"(خلال مرحلة الطفولة) و"الاستشراك الثانوي"(الذي يتعرض له الفرد طيلة حياته البالغة والذي هو ليس مجرد إعادة بناء آليات الاستشراك الأول.ويرى هذان الباحثان أن الاستشراك لا يكون ناجحاً أبداً تماماً ولا ناجزاً.قد يكون الاستشراك الثانوي في حالات أخرى، امتداداً للاستشراك الأول.وفي حالات ثانية يكون الأمر معكوساً ففي أعقاب الصدمات السيرية مثلاً، يقوم الاستشراك الثانوي بإحداث قطيعة مع الاستشراك الأولي.والاستشراك المهني، الذي تحدث عنه هذان الباحثان بشكل مباشر، هو أحد المظاهر الأساسية لهذا الاستشراك الثانوي.إذاً يظهر الاستشراك كعملية لانهاية لها في حياة الفرد القادر على معرفة مراحل"نهاية الاستشراك"(انفصال عن نموذج الاندماج المعياري) وعن "إعادة الاستشراك"(على أساس نموذج مُستبطن آخر).

ومن خلال مقاربة أحرى، لكنها تفضي إلى نتائج مشابهة تقريباً، وضع روبيرت ميرتون، انطلاقاً من التمييز الذي أقامه بيين "مجموعة الانتماء" ومجموعة المرجع"، وضع مفهوم "الاستشراك الموسع ليدل على العملية التي من خلالها يمتلك الفرد ويستبطن مقدماً معايير وقيماً جماعية مرجعية لا ينتمي إليها بعد ويتمنى الاندماج فيها[ميرتون، ١٩٥٠].وساق عنها دومينيك شنابر مثالاً حين بيّن أن التغيرات العميقة في الممارسات الثقافية للمهاجرين الإيطاليين في فرنسا، لايمكن تفسيرها تماماً إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار الاستشراك الموسع في إيطاليا مضافاً إلى عوامل تغيير أخرى[شنابر، ١٩٧٤].

المقاربة التفاعلية للثقافة

لا ريب أن سابير كان من أوائل الذين عدّوا الثقافة منظومة اتصال بيفردية أي (بين الأفراد) حينما قال :" مكان الثقافة الحقيقي هو التفاعلات الفردية".وهو يرى أن الثقافة عبارة عن مجموعة من الدلالات التي يتبادلها أفراد مجموعة معينة عبر هذه التفاعلات.ومن هنا فقد عمل خلافاً للمفاهيم الجوهرية للثقافة.وبدلاً من تعريف الثقافة على أنها جوهر افتراضي فقد اقترح ربطها بتحليل عمليات تكوين الثقافة[سابير، ١٩٤٩].وبعده شدد باحثون آخرون وصفوا ب"التفاعليين" على إنتاج معنى تولده التفاعلات المتبادلة بين الأفراد مستندين في هذا إلى حدس سابير بعد أن قاموا بمنهجته.في الخمسينات، نشأ في الولايات المتحدة تيار التف بشكل خاص حول كل من غريغوري باتسون وبالو ألتو سمي ب"أنثروبولوجيا الاتصال" الذي يعير الاتصال غير الكلامي والاتصال الكلامي بين الأفراد عناية خاصة.فلم ينظر إلى الاتصال على أنه علاقة بين مرسل ومتلق بل وفقاً لنموذج أوركسترالي أي كنتيجة مجموعة من الأفراد المجتمعين ليعزفوا جميعاً وهم في وضع فعل متبادل دائم.وكلهم يشاركون بشكل

متضامن، لكن يقوم كل منهم، على طريقته بعزف نص موسيقي غير مرئي.والنص الذي يعني هنا الثقافة، لا يمكن أن يوجد إلا من خلال الفعل المتبادل بين الأفراد.ويقوم جهد أنثروبولوجيي الثقافة كله على تحليل عمليات الفعل المتبادل التي تنتج منظومات ثقافية للتبادل.

ومع هذا لا يكفي التوقف عند وصف هذه الأفعال المتبادلة وآثارها بل علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أيضاً" سياق" هذه الأفعال المتبادلة، حيث يفرض كل سياق قواعده وشروطه، ويفترض توقعات خاصة من قبل الأفراد.وتعدد سياقات الفعل المتبادل تفسر الطابع الجمعي وغير المستقر لكل ثقافة.وكذلك تصرفات الفرد نفسه التي تبدو متناقضة ظاهرياً، إلا أن هذا الفرد ليس بالضرورة متناقضاً(من الناحية النفسية) مع نفسه.ومن خلال هذه المقاربة يصبح ممكناً النظر إلى تنوع الثقافة بدلاً من أن نفرض قصارى جهدنا للعثور على تجانس وهمي.

المقاربة التفاعلية تقود إلى إعادة النظر في مسألة القيمة الكشفية لمفهوم "الثقافة الفرعية" أو بشكل أدق في التمييز بين "ثقافة"/"ثقافة فرعية"فإذا كانت المسألة ناشئة عن التفاعلات بين الأفراد ومجموعات الأفراد فيصبح من الخطأ النظر إلى الثقافة الفرعية على أنها ثابت مشتق من الثقافة الكليّة التي قد تكون سبقت الثقافة الفرعية.لقد تكوّن مفهوما الثقافة والثقافة الفرعية وفقاً لمنطق التقسيم الفرعي المتدرج للعالم الثقافي وبالطريقة نفسها التي ينظر عبرها البيولوجيون إلى تطور العالم الحي باعتباره يتكون من أنواع وأنواع تحتية(فرعية)..لكن في البناء الثقافي الأول تكون لثقافة الجماعة، الثقافة المحلية، الثقافة التي تربط الأفراد بفعل متبادل مباشر مع بعضهم بعض وليس الثقافة الكلية للجماعة الأوسع.ما نسميه "ثقافة كلية" هو ما ينتج عن علاقة المجموعات الاجتماعية التي تحتك ببعضها، وبالتالي هي ربط ثقافات تلك

المجموعات ببعضها.ومن هذا المنظور تقع الثقافة الكلية، إلى حد ما، عند تقاطع"الثقافة الفرعية" للمجموع الاجتماعي نفسه.وهذه الثقافات الفرعية التي تعمل كثقافات مستقلة تماماً أي كمنظومات قيم، تبدو على شكل تمثلات وتصرفات تسمح لكل مجموعة بالتماهي في الفضاء الاجتماعي المحيط وترى نفسها وتتصرف فيه.وبالتالي فإن التفاعليين لا يرون مصطلح "الثقافة الفرعية" مصطلحاً مناسباً.

الثقافة واللسان واللغة

طالما أثار الرابط الوثيق بين اللسان والثقافة عدة تعليقات ، وكان هردر من الأوائل الذين استخدموا كلمة "ثقافة" بشكل منهجي ، وقد أسس تأويله لتعدد الثقافات على تحليل تنوع الألسن [هردر ١٧٧٤].

وحاول سابير وضع نظرية للعلاقات بين الثقافة واللغة langage، إذ يقول: "على الباحث ألا يكتفي فقط بالاهتمام باللغة باعتبارها الموضوع المفضل للأنثروبولوجيا، لأنها حقيقة ثقافية قائمة بذاتها، بل عليه أيضاً دراسة الثقافة باعتبارها لساناً langue. وفي مقابل المفاهيم الجوهرية للثقافة، فقد عرّف الثقافة على أنها مجموعة من الدلالات المستخدمة في الأفعال الفردية المتبادلة . ويعتبر أن الثقافة أساساً عبارة عن منظومة اتصال [سابير،١٩٢١] . والفرضية المسماة بفرضية سابير "سابير –وورف"(اللغة باعتبارها مصنِّفة ومنظمّةً للتجربة المادية)والتي أشار إليها سابير بشكل سريع نافياً وجود علاقة مشاركة مباشرة بين نموذج ثقافي معيّن وبين بنية لغوية ، هذه الفرضية وجّهت (أرشدت) سلسلة من الأبحاث حول التأثير الذي يمارسه اللسان على منظومة التمثلات (التصورات)لدى شعب معين . اللسان والثقافة يرتبطان ببعضهما عبر علاقة ارتباط متبادل :ومن بين وظائف اللسان ، وظيفة نقل الثقافة ، لكن اللسان نفسه يتأثر بالثقافة .

كلود ليفي شتراوس الذي تدين أنثروبولوجيته البنيوية بالشيء الكثير لمنهج التحليل البنيوي في علم اللغة ، أشار بدوره أيضاً إلى تعقيد العلاقات القائمة بين اللغة والثقافة:

إن قضية العلاقات القائمة بين اللغة والثقافة هي من أعقد العلاقات . يمكننا أولاً معالجة(دراسة)اللغة على أنها منتوج ثقافي:واللسان الذي يستخدمه مجتمع معيّن يعكس الثقافة العامة للسكان . لكن ، بمعنى أخر ، فإن اللسان جزء من الثقافة :إنه يشكل أحد عناصرها . لكن هذا كل شيء :إذ يمكننا معالجة(دراسة)اللغة كشرط للثقافة ، وهي تطورية ، لأن الفرد يكتسب ثقافة جماعته عن طريق اللغة ، ونحن نعلم الطفل ونربيه عن طريق الكلام ، ونوبّخه ونلاطفه بالكلمات . وإذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر أكثر نظرية نقول إن اللغة تبدو أيضا كشرط للثقافة طالما تتمتع هذه الثقافة بهندسة مشابهة لهندسة اللغة . كلاهما ينبنيان من خلال التعارضات والعلاقات المتبادلة ، أي عبر علاقات منطقية . كما أنه يمكننا اعتبار اللغة بمثابة مؤسسة fondation هدفها استقبال أعقد البنى في بعض الأحيان ، لكنها بُنى تشبه بُناها وترتبط بالثقافات المعينة ، بأشكال مختلفة، [١٩٥٨،ص ٧٨-٧٩] .

المراجع

(١) أنظر مادة "**ثَقِفَ**"في "**مختار الصحاح**" و"**المعجم الوسيط**"، أو في غيرهما من معاجم اللغة العربية.

(٢) أنظر: إدوارد تايلور: ما الثقافة ؟، واليونسكو؟.

(٣) لمزيد من التفصيل حول هذه الفكرة أنظر: عبد الرَّحمن بسيسو: قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر "تحليل الظاهرة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - عمَّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، الفصل الأول "تأصيل المفهوم، ص ٦ ومواضع أخرى.

(٤) محمد البطراوى :٢٠٠٣.

(٥) إبراهيم محمد شعير ، إبراهيم محمد أحمد على :١٩٩٩،ص ٥١.

(٦)عبد الحسين السيد :١٩٩٩.

(٧) منير المرسى سرحان : ١٩٧٨، ص ١٣٣.

(٨) الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس : ١٩٩٠، ص ١٢٩.

(٩) هادى نعمان الهيتى . ثقافة الاطفال. الصفاة: المجلس الوطنى للثقافى والفنون والادب ، ١٩٨٨.

(١٠) العزاوي ، ٢٠٠٩ : ٦٩.

(١١) اللقاني وعودة ، ١٩٨٩ : ٣٧.

(١٢) هندي وآخرون ، ١٩٨٩ : ٩٤-٩٥.

الفصل الثانـي

ثقافة التواصل في المجتمع

تمهيد:

يُعد التواصل الثقافي بين المجتمعات قناة إنسانية عريقة، واتخذت العلاقة بين الثقافات أشكالا متنوعة لإثراء بعضها البعض، ومقاومة عوامل الفناء و كسب طاقة التغيير، وتعزيز المكانة الأدبية ...لكن في ظل تحولات المجتمع الدولي في العقود الأخيرة، وما حققه الغرب من امتياز حضاري و تقني وعلمي و سياسي وعسكري، انبثقت مفاهيم على مستويات شتى، خاصة مفهوم العولمة الذي طغى على الساحتين الإعلامية و الفكرية وأفرز إشكاليات عديدة ، إذ بوسائلها و آلياتها طرحت نفسها باعتبارها بديلا للتنوع الثقافي و اكتساح الهوية الحضارية للشعوب، فشاع الحديث عن الصدام الحضاري و نظرية المركز و الهامش أو الأطراف،التي وظفت لدى العديد من المفكرين شرقا و غربا ، وهذا ما ولد تساؤلات جوهرية : ما مصداقية موضوع تواصل الثقافات في عصرنا وآفاقه في ظل ثقافات تمارس الاستعلاء على بعضها الآخر ؟ وما حقيقة التواصل في كنف ثقافات تؤججها مواقف إيديولوجية متصارعة؟ و كيف يمكن أن نقيم حوارا بين طرفين غير متكافئين؟ هل يمكن تحقيق تواصل قادر على إقامة جسور من التفاهم تتجاوز الصراع؟ هل يمكن أن تتحول كل دعواتنا للحوار والتواصل مع الآخر إلى نوع من الاستعطاف و الاستجداء إن لم نغير من الأنا بما يجعل حضورها فاعلا في المشهد العالمي؟ وهل من المنطقي أن نتحدث عن تواصل واع مع الثقافات العالمية ونحن نعاني ضعفا في التواصل العربي – العربي، و في تواصل جيل عربي جديد مع ثقافته ؟ ما هي التحديات التي تواجه الثقافة العربية وأثرها على التواصل؟ و ما هي الطرق النوعية لإقامة ثقافة حوارية تواصلية مع الآخر تحفظ تميز هويتنا، و تحترم حقنا في إغناء الثقافة الإنسانية و تؤمن بمبدأ التكافؤ والتنوع؟

نتدرج فيما يأتي في معالجة أهم المعطيات و القضايا و الرؤى الجدلية المتعلقة بهذه الإشكالية، ونستهلها بأهم تحولات المشهد الدولي الراهن .

١- العولمة لغة الهيمنة والإقصاء:

بتفكك الثنائية القطبية ، ونهاية الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفياتي ، فأعيد صنع النظام الدولي الجديد وفق مبدأ القطب الواحد ووفقاً لسياسته ومصالحه الإستراتيجية ، وفرض ثقافة الأقطاب الاقتصادية العالمية الكبرى على باقي ثقافات المعمورة ، تحت سيطرة الثقافة الأقوى ثقافة الدولة الأمريكية العظمى ، لهذا كثيراً ما يطابق بين العولمة والأمركة(٢).

أما بالنسبة للتلقي العربي لمفهوم العولمة ، فقد أنتج ردود فعل مختلفة تراوحت بين العداء والرفض أو التحفظ والقبول ، لكن هناك " إجماع على كون العولمة تمثل تحدياً لنا أو للعالم ، وإنها تستحق أن نبذل جهداً جادًا ودؤوباً في محاولة فهمها وتحليلها ومتابعة تجلياتها المتنوعة(٣) ".

وقد واكب المفكرون العرب مفهوم العولمة بعناية خاصة منذ نهاية العقد الأخير من القرن العشرين ، وتباينت الآراء والتحاليل التي تناولت هذه الظاهرة بتباين المجال المعرفي الذي يتشكل المفهوم في إطاره ، (إطار اقتصادي ، وسياسي ، ثقافي ، تاريخي ، علمي ، ...). (٤).

تقابل العولمة لغة مصطلح" Globalisation"التي تدل على مشروع لمركزة العالم في حضارة واحدة ، ومن الباحثين العرب من يستعمل لفظة الكونية أو الكوكبية مقابل كلمة "Mondialisation" (٥) ،أما المفهوم الاصطلاحي في عمومه هو محاولة توحيد العالم في نمط واحد وربطه اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، واختزال العالم في مفهوم القرية الكونية والثقافة الواحدة بتأثير ثورة المعلومات والاتصالات .لكن هناك

إجماع على أن المفهوم مازال في طور التبلور ، وأنها ظاهرة لم تكتمل بعد ،" مادامت العولمة أفقاً أو عملية مستمرة ...فهي مشروع مفتوح ، وهذا عامل مهم ...لأنه يشكل فرصة وإمكانية لفتح المجال لتحويل اتجاهها وتغيير مسارها ، ومن ثمة التخفيف من انعكاساتها السلبية علينا ..."(٦) ، وهو رأي بناء للتفاعل مع هذه الظاهرة ومواجهة تحدياتها ، تبعد الموقف العربي عن الردود الانفعالية والأحكام المسبقة، والدعوة للانخراط في مسار التحولات الدولية للتخفيف – على الأقل– من الانعكاسات والتأثيرات ، بدل التفجع والركود وإذكاء لغة العداء التي تقف حجر عثرة أمام المشاركة في المشهد العالمي، وإنتاج حوار إيجابي في إشكالية الثقافة الإنسانية.

٢- صراع الحضارات وتأزم المواجهة بين الأنا / الآخر:

إن راهن العلاقة بين الإسلام و الغرب واقع متأزم ، والعلاقة بين الطرفين تزداد توترا وحساسية وتؤجج لغة العداء المتبادل ،في ظل تصارع المركزية الغربية للسيطرة على الهامش و كل طرف يتخذ من الآخر موقفا متشنجا لأسباب تاريخية و اقتصادية و إيديولوجية... مشحونة بالسلبية و كل طرف يرفض الرؤية التي تشكلت عنه عند الآخر ،"...يعود التجافي إلى زمن بعيد ... و قد عرفت العلاقة ..أطوارا من الحروب ومعاهدات الصلح وأشكالا من التعاون والتلاقح وأطوارا من المعارك اتخذت صورا وأشكالا لا حصر لها، وقد كانت المعارك المتواصلة تتخذ لها أيضا مظاهر ثقافية نفسية ، و توظف من الآليات الذهنية بهدف الهيمنة المادية والهيمنة الفكرية بمختلف صورهما ..."(٧) .

وتصاعدت لهجة الصراع بشكل حاد بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ،...حيث تعطل الحوار بين العرب و الغرب وظهر التعصب و العنصرية بشكل سافر في الغرب اتجاه العرب .

و يعد كتاب(٨) " صامويل هنتنجتون" حول صراع الحضارات نموذجا لمزيد من السجالات الفكرية التي تعمق هوة الخلاف بين الإسلام والغرب " و الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو أن الثقافة و الهويات الثقافية و التي هي على مستوى العالم هويات حضارية ، .. تشكل أنماط التماسك و التفسخ و الصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة "(٩).

وقد جاءت هذه النظرية لتهدم النظرية السابقة (فكرة فوكوياما) نظرية نهاية التاريخ، وفحواها أن الليبرالية لم تعد تواجه عدوا بعد الانهيار السريع للاتحاد السوفياتي ، فأصبح الأنموذج الغربي خيار العالم ، و لن يواجه خصما جديدا . لكن صاحب كتاب "صدام الحضارات " ألغى فكرة نهاية التاريخ و أكد أن الصدام مستمر بل مستعر ،و أن نهاية الحرب الباردة أدت إلى ميلاد عدو جديد " عدو يعمل كل ما في استطاعته لمواجهة الحضارة الغربية ... فالإسلام هو العدو القديم و العدو المرتقب لأنه يرفض مقدمات الحضارة الغربية وأصولها..."(١٠) . تعد هذه النظرية تآمرا واضحا مع الرؤية الإستراتيجية الغربية ، التي ترى ضرورة استمرار الصراع لأن هذا يؤكد تفوق الحضارة الغربية التي تحاول إعادة صنع التاريخ الإنساني بما يخدم مصالحها وبما يتوجها بانتصار ثقافي حضاري (١١)، ويغرق الأطراف الأخرى في هزيمة تاريخية ... وتنصب مشروعها بديلا فذا يصنع التاريخ بالعقل و المنطق والرؤية البراغماتية للأمور و العلاقات...

٣- ثقافة المركز وثقافة الهامش:

إن مفهوم التمركز تصور يقوم على التمايز والتعالي وتقديس الذات باعتبارها مركز الإشعاع ، وهو ما ينطبق على المركزية الغربية التي تعالت نبرتها بتزايد هيمنة القيم الحضارية الغربية (الديمقراطية ، الليبرالية الاقتصادية..)، وانتشار نمط الحياة

الأمريكية بصفة خاصة ، فاعتبر المركز صانع الحضارة ومبدعها ومسيرها ، ومثل الهامش الاستهلاك والركود والتبعية ، وكل ما زادت هيمنة المركز بمختلف تجلياتها اختزل دور الهامش وقزمت فاعليته ، وأمليت عليه الشروط وفرضت عليه القيود التي توافق الإيديولوجية الغربية التي حددت تصوراتها الواضحة عن العالم والإنسان ،" ...وأفضى ذلك إلى نوع من التمركز حول الذات بوصفها المرجعية الأساسية لتحديد أهمية كل شيء وقيمته ، وإحالة الآخر على مكون هامشي لا ينطوي على قيمة بذاته ، إلا إذا اندرج في سياق المنظور الذي يتصل بتصورات الذات المتمركزة حول نفسها ..."(١٢) .وبالمقابل فإن الهامش أو الأطراف " هي المناطق التي اندمجت في النظام العالمي ، دون أن تتبلور إلى مراكز ، فهي إذن تلك المناطق التي تتحكم القوى الخارجية في تحديد مدى واتجاه التراكم المحلي فيها"(١٣) .

لقد قسّم الغرب العالم إلى مناطق نفوذ ومستعمرات وألحقها به على أساس المركز والأطراف ، وحرّك هذه المناطق في فلك رسم سلفاً ليوافق مصالحه، وشيئاً فشيئاً اتسعت الهوة بين الطرفين ، وتكونت مركبات العقد (مركب النقص ومركب العظمة) ، فانتفت بذلك إمكانية التواصل والحوار المتكافئ ، لأن المركز(القوة) لا يحاور بل يسيطر ويفرض ويهدد أيضا.

ومما لا شك فيه أن آليات العولمة كرست مفهوم التبعية الدائمة للغرب ، فزادت المركز سيادة وسيطرة وزادت الأطراف تبعية وتهميشا ، ففي مجال الآداب مثلا نلاحظ أن ثورة المعلوماتية وتطور التقنية والاتصال، قد أسهمت في سيطرة مفاهيم اللغات والآداب الحية ، مع استمرار اعتبار الآداب واللغات الأخرى هامشية(١٤).

فالعالم لا يمكن إلا أن يكون مركزا ومحيطا في الفلسفة(١٥) التي تغذي المركزية الغربية فلقد " استمد مفهوم التمركز مكوناته من الدلالة المباشرة

لـ:Egocentricity ، التي تفترض غلبة وجهة نظر الذات وصوابها ، وهي متصلة بعالم الطفولة ، إذ تتجلى الأنانية المفرطة التي ترافق مرحلة من نمو الطفل تجعله يركز العالم في أناه ، ...فيصعب عليه أن يفهم الأشياء من غير منظاره الخاص ، ولا يعطي أي اعتبار للآخرين واهتمامهم " (١٦) .

ارتبطت المركزية الغربية كذلك بنظرية التأصيل العرقي وتختلف هذه النظرية عن العنصرية وفحواها وجود أعراق مختلفة ، بعض الأعراق أدنى من بعضها الآخر لا لأسباب اجتماعية أو ثقافية ،لكن لسبب غريزي محدد بيولوجيا(١٧) ، أي أن الإنسان الغربي – حسبها – متميز بطباعه العرقية وأصوله النقية ، و بالتالي يمارس نظرة دونية على باقي الجماعات العرقية ، فالعرق قي حد ذاته تفوق " ...إن القوة والهيمنة والسيطرة والتوسع تخلق عند الجماعات العرقية القائمة بها ، إحساس بالتفوق والتفرد والتمايز والاستعلاء والترفع ، بحيث تعمد أن تضع بينها وبين الجماعات العرقية الأخرى حدودا فاصلة تحول دون عملية الاندماج الحقيقي ..."(١٨).

بالإضافة إلى هذه المركزية العرقية ، هناك مركزية تاريخية–إن صح التعبير – وهي الادعاء بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب ، الذي صنعته معطيات خاصة فأنتج هذه الحضارة القوية والثرية (١٩) ، فالعالم يشهد مشروعا ضخما وهو تعميم الأنموذج الغربي، وهو مشروع يهدد الخصوصيات الثقافية للشعوب ، لكن المركزية الغربية ترى في هذه الهويات والخصوصيات العرقية والثقافية والعقدية سبب التخلف ، ولهذا تطرح أنموذجها لمن يريد أن يصل إلى ما وصل إليه الغرب ، ولا بديل عن الانخراط في مشروع تطابق الإنسانية ، ولكن هذا المركز لا يقدم شروط اندماج فاعلة ، بل يطلب تنازلات خطيرة وانقيادا أعمى .إن غياب أطر حوار جدي بين المركز والأطراف في ظل وتيرة العولمة المتسارعة ، من شأنه أن يزيد من احتمال التسلط ويعمق التبعية .

إن كل المعطيات السابقة تنذر بعبثية كل حديث عن ثقافة التواصل ،إن لم نسارع في التكيف مع الراهن ومواكبة التطورات وما تمنحه من فرص ، ونتجنب ما أمكننا من المزالق و الانعكاسات السلبية ...

٤- ضرورة التواصل، والتنوع الثقافي جوهر الحوار:

رغم تصاعد خطاب التنميط الثقافي ، و الدعوة إلى اختزال التنوع الثقافي ومشاريع اكتساح هويات الشعوب،باعتبار أن للحضارة الغربية الفضل الأكبر في تطور الإنسانية بفضل نمو الاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا ...،لكن لا يمكن أن يجحد التاريخ دور ثقافات عديدة في إمداد العالم بالفلسفة و العلم و الفن والابتكارات ،فالثقافات بناء متكامل و لكل ثقافة وهجها ، والتعددية الثقافية حقيقة ساطعة ، وضرورة إنسانية فهي من عوامل حيوية التاريخ من خلال حركة التبادل و التواصل، و رغم أن هناك قيما كونية إلا أن لكل ثقافة الحق في تبني ما يناسبها ، فتضمن تماشيها مع الكونية من جهة ، وتؤكد خصوصيتها من جهة أخرى.

كما أن التعددية الثقافية ضرورة من ضرورات الحوار بين الحضارات، لأن الانعزال الثقافي لم يعد خيارا حكيما وسط كل هذه التغييرات العالمية ، فليس الحوار تنازل عن الذات ، بل هو تعريف بها للآخر من أجل التفاعل الإيجابي ، فهناك حاجة ملحة للحوار الذي يتجاوز لغة العداء المتبادل و يكرس لغة التعاون "في ميثاق الأمم المتحدة ، تتمتع الدول صغيرها وكبيرها بحق المساواة والسيادة ،... فيمكن أن نتحدث عن تساوي الحضارات في كرامتها ، و بحقها في التفاعل و الإغناء المتبادل مع الحضارات الأخرى ، كذلك تشكل التعددية الحضارية مبدأ من مبادئ حوار الحضارات ، فعلى كل حضارة أن تعترف بالحضارات الأخرى و بتمايزها ودورها في إغناء الإنسانية..."(٢٠)

فلا يمكن أن نقيم حوارا في ظل ثقافات تزدري الآخر، ولا يمكن أن نقارن بين الثقافات و نصنفها ، فالثقافات متساوية في مواقعها و لكل منها رسالتها إلى العالم ،ولكل منها جوهرا ما تغني به الإنسانية .فكما يرى البنويون : إن كل ما في النص وظائفي وحتى العناصر الهامشية وظيفتها في هامشيتها .

فما جدوى حوار يقام بين ثقافات تبعية متطابقة في عناصرها؟ وكيف يمكن لنمط ثقافة واحدة مهما كان بريقها أن تملأ ثراء هذا التنوع الهائل ؟

٥-تعزيز التواصل العربي – العربي :

إذا كان تواصل الثقافة العربية مع الثقافات العالمية ضرورة هامة ، فإن التأكيد على التواصل العربي – العربي لا يقل أهمية، لأنه السبيل إلى تفعيل المشترك الثقافي وتأمين التكامل الثقافي العربي.

لم تستغل الأمة العربية منجزات التقنية بطريقة كافية ، لتعزيز التواصل العربي -العربي ، حيث استمر هذا التواصل ضعيفا يهدد الانسجام الثقافي بين المجتمعات العربية باتساع التباعد بينها(٢١)، لهذا عدّ من الضروري الالتفات إلى تفعيل هذا التواصل لأنه يدعم الحوار الجاد للثقافة العربية مع الآخر ويزيد من فرص نجاح المواجهة ، ومن جهة أخرى وجب طرح ضرورة تواصل الأجيال العربية الجديدة مع ثقافتها ، فالمجتمع العربي الذي يتعرض للغزو الثقافي الغربي بوتيرة سريعة أكثر من تعرضه لثقافته كرّس بدوره ضعفا في تواصل الأجيال مع موروثها الثقافي ، فمن الضروري العمل العربي المشترك لتجديد علاقة الأجيال بثقافتها ، وحماية الثقافات الوطنية كالتشديد على استعمال اللغات الوطنية وإحياء التراث الثقافي وإلا تعمق الاغتراب أكثر ، ولن نعول آنذاك على نجاعة الحوار المتكافئ الذي يحفظ خصوصيتنا.

٦ – الطرق النوعية للمساهمة في الثقافة العالمية وإقامة ثقافة حوارية:

إن حوارا مستقبليا يستوعب مكاسب الحضارة دون مركب عظمة أو نقص، ودون تقديم تنازلات لطرف على حساب طرف آخر مسألة من التعقيد بمكان، وتتطلب جهدا دؤوبا واهتماما من الطرفين وتوفر إرادة التجاوز . ومن أهم المبادئ التي يجب أن تراعى لنجاعة التواصل :

أ– **نقد الذات / احترام الذات :**

يحتل موضوع نقد الذات حيزا هاما في جل أعمال " محمد أركون " ، حيث يؤكد على أهمية نقد الذات وتغيير الكثير من مواقفها ، وإجراء تقييم موضوعي لواقعها والاعتراف بالجوانب السلبية من تاريخها، لتكون في تواصل فاعل مع الحاضر بدل أن تقبع في مكانها تكتفي بالانفعال وردود الفعل(٢٢).

بالمقابل عودة الذات إلى إيجابيتها لا يكون إلا بعد القيام بتحديث أدوات الفكر وأسسه،...أو بالأحرى ثورة فكرية تؤسس لعقل يؤمن بنسبية معارفه ويوافق على تعدد الرؤى ،وهذه أهم مزايا الحوار(٢٣).ومن وجوه احترام الذات لنفسها أن تكون فخورة بما قدمته للإنسانية والشعور بالثقة في قوتها وقيمها.

ب – **نقد الآخر/ احترام الآخر:**

ينتقد النص الأركوني أيضا نظرة الغرب للإسلام ، من خلال نقد الأبحاث ونقد ضيق أفق منهجية الاستشراق ،وعدم توظيفهم للمناهج التي تطبق في دراسة التراث الغربي ولا توظف في دراسة التراث الإسلامي ، لأن إعادة النظر في الخيارات المنهجية يصنع الفارق – حسبه – في النتائج ومواقف الغرب من الإسلام ، لأنها مواقف مرتبطة كثيرا بما يوفره المستشرقون(٢٤) . ويفترض حوار الحضارات احترام

الآخر وهذا يتطلب معرفته معرفة حقيقية ،خاصة في ظل التطور المدهش لأدوات الاتصال التي توفر كما هائلا من المعلومات.

ج – **توجيه الصراع:** بما يخدم الأنا والآخر، وتعزيز مفهوم التسامح واحترام الاختلاف والتنوع.

د- **التكريس لمفهوم (الاختلاف) بدل (المطابقة) الثقافية :**" وليس المقصود بالاختلاف الدعوة إلى القطيعة مع الآخر ومع الماضي ...فالأمر يوجب تنمية عوامل اختلاف جوهرية واعية وجديدة تعمل على تغذية الذات الثقافية ...والدخول في حوار متكافئ مع الآخر ومساءلته معرفيا ومنهجيا بغرض الإفادة منه، وليس الامتثال له ..."(٢٥).

هـ-**استحداث " علم الاستغراب**": يقترح بعض المفكرين مصطلح " علم الاستغراب" Occidentalism، الذي فرضته الحاجة بسب هيمنة التغريب ، ويقف مقابل الاستشراق ، ويهدف علم الاستغراب(٢٦) إلى فك العقدة التاريخية بين الأنا والآخر ، والقضاء على ثنائية المركز والأطراف ، والمركزية الغربية وإعادة توزيع مراكز الثقل وإعادة التوازن للثقافة الإنسانية.

و – **ويبقى الحوار الرصين:** خير أسلوب يواجه به الآخر ، لقوله تعالى:"وَلاَ تُجَادِلُوْا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ"(٢٧)

أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي

تمتلك الهوية الثقافة العربية الإسلامية مجموعة من العناصر التي تجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الأخري ، بل لا تتوفر هذه العناصر لهويات أخري ،ومن أبرز تلك العناصر اللغة ، والدين، والتاريخ ، ولكن تعرضت الهوية الثقافية العربية لأزمة ، ومما ساعد علي اتساع هذه الأزمة جمود الثقافات لدي الشعوب العربية

، وفقدان حيويتها وفعاليتها، وتجاهل المجتمعات العربية ضرورة تجديد ثقافتها ، وتأهلها للحوار والتفاعل مع الثقافات الأخري ، بالإضافة إلي أن الثورة المعلوماتية اختصت بمجتمعات بعينها ، وعند انتقال تأثيرات هذه الثورة إلي المجتمعات العربية انتقلت معها ثقافة مجتمعاتها وأنماط معيشتها وسلوكياتهم ، الأمر الذي نتج عنه تبعية ثقافية وسياسية واقتصادية ، نظرا لعدم التكافؤ بين المجتمعات القوية وبين المجتمعات الضعيفة .(٢٨)

وهذا هو حال الأمم الضعيفة التي لا تملك حاضرا موصولا بماضيها ، وهنا تسلك أحد طريقين : إما أن تفزع نحو ماضيها متمسكة به ، وداعية إلي ممارسة الحياة علي أساس منه ، وإما استعارة حاضر غيرها وممارسة الحياة علي أساس منه ، وعندئذ يبدأ الصراع بين القديم وبين الجديد ، بل سيحاول البعض البحث عن سند للجديد من القديم ، وهذا التوفيق قد يخفف من حدة الصراع ، ولكن لن يكسب الأمة حاضرا تصنعه هي ، بل ستظل تستعير حاضر غيرها وتبني له أساسا واهيا من تراثها ، وهذا هو مركز الأزمة التي تعانيها الهوية الثقافية العربية (٢٩) ٠

وقد أشار " محمد حسنين هيكل " إلي واقع أزمة الهوية حين قال : إن " العالم العربي فقد الإحساس بهويته ، وتملكته نزعات القبائل المتحاربة ، ونتيجة ذلك فقد ضاع منه جامعه المشترك ، ومواقفه المشتركة ، وهدفه المشترك " (٣٠). الأمر الذي أدي إلي ما نراه اليوم من تفكك وضعف وتخلف في المجتمعات العربية ، لدرجة أنها لم تعد تتخذ قرارا واحدا فيه اتفاق إلا علي ألا يتفقوا ؛ مما جعلهم مطعما للآخرين ، ولم يعد لهم تأثير يذكر علي الساحة الدولية ، هذا ما نراه واضحا في كثير من القضايا التي تهم العرب والمسلمين ، ومن أبرز هذه القضايا قضية فلسطين، والحصار المستمر ، والعدوان المستمر علي الفلسطينيين دون أن يتحرك العرب أو الأمم المتحدة

، لا لشئ إلا لأن العرب لا وزن لهم علي الساحة الدولية ، ولذلك لابد من ملاحظة أن سؤال الهوية يطرح نفسه بشدة مع النقلة النوعية للمجتمع الإنساني صوب المعلومات والمعرفة ، وبالنسبة لنا كعرب يجب تناول الهوية لا بدافع سلمي من منطلق رد الفعل ، بل كمطلب أساس لكل المجتمعات العربية للحاق بالركب المعلوماتي (٣١) ، وهذه الأزمة التي تعرضت لها الهوية الثقافية العربية لم تأت من فراغ بل نتيجة مجموعة من العوامل ، **من أبرزها** :

١- التبعية الثقافية :

إن التبعية ليست وليدة اليوم بل هي نتاج محاولات متكررة عبر سنوات طويلة ، حيث كان المستعمر الأوربي يهدف إلي القضاء علي الرموز الأساسية للثقافات ، وخاصة الثقافة العربية بما تملكه من ميراث ضخم ، وذلك بإحداث تغييرات التنظيم الاجتماعي بما يملكه من مجالات متعددة ، وتمثلت أبرز هذه التغييرات في محاولة إقناع البلاد العربية بأن الحل الوحيد لانتشالهم من التخلف هو اتباع النمط الأوربي بكل ما فيه ، للوصول إلي التقدم، فكانت النتيجة هي الوقوع والسقوط في بئر التبعية للغرب ولثقافته ، ووقوع مفكرينا في حيرة من أمرهم ، هل يتبعون الغرب ؟ أم يعتمدون علي التراث ؟ وكانت النتيجة هي أزمة في الفكر تبعتها أزمة في الهوية الثقافية ، وقد أشار " سعيد إسماعيل علي " إلي أن **من أبرز عناصر التبعية الثقافية :**

١- عملية الإنتاج الثقافي التي تشوه الثقافة الوطنية ، وتدفع إلي التأقلم والتعايش مع واقع التبعية .

٢- مشاركة الشركات الاحتكارية في نشر الفكر التجاري الاستهلاكي وإنتاج ثقافة التبعية .

٣- نشر أجهزة الأنشطة الثقافية لمجموعة من القناعات والمبادئ والقيم التي تدفع إلي تقبل التنمية الرأسمالية الغربية ، وتبرزها وكأنها ملائمة لواقعنا ، بل وإلي الاقتناع بأن الاستعانة بالخبرات والمساعدات الغربية(المالية والتكنولوجية) هي شروط ارتكازية لتجاوز التخلف .(٣٢)

وتجسدت التبعية التربوية في إحلال قيم وعادات جديدة محل القيم والعادات الإسلامية والعربية ، والعمل علي تشويه التاريخ العربي والإسلامي ، بل والعمل علي إضعاف اللغة العربية والنيل منها ، فهل نحن قادرون علي مقاومة والتخلص من هذه التبعية ؟ ، الحقيقة أن هذا أمر يحتاج إلي مجهود كبير لمواجهتها ؛ ولذلك وجدنا أحد الباحثين المصريين يشير إلي أننا غير قادرين إلا علي التبعية ، لأننا لسنا أصحاب هوية متميزة ، لأن الهوية الثقافية التي كانت تميز القومية المصرية قد حيل بينهما ، وقدمت إلينا تربية لا يمكن أن تخرج إلا تلك النوعية من الأجيال التي تمارس التبعية الثقافية . (٣٣)

٢- العولمة الثقافية :

يعد البعد الثقافي والاجتماعي للعولمة من أخطر أبعادها ، فهي تعني إشاعة قيم ومبادئ ومعايير ثقافة واحدة ، وإحلالها محل الثقافات الأخري ؛ مما يعني تلاشي القيم والثقافات القومية ، وإحلال القيم الثقافية للبلاد الأكثر تقدما محلها ، وخاصة أمريكا وأوربا ، الأمر الذي ينعكس علي الهوية الثقافية العربية .

وهكذا بات واضحا أن مخاطر العولمة تمس بشكل مباشر ميدان الثقافة والحضارة ، بل يمكن أن تتجه نحو صراع الحضارات ، فالسعي إلي فرض هيمنة ثقافة واحدة تكون نتيجته إما انتهاء الثقافة الأضعف و ذوبانها ، أو تقوقعها حول

نفسها ، أو تفجيرها وتفتيتها لصالح جماعات داخلية أو خارجية ، الأمر الذي أدي إلي انقسامات عرقية وطائفية ، ثم صراع الثقافات في النهاية ، وبالتالي التأثير سلبيا علي الهوية الثقافية للمجتمع . (٣٤)

ومن المعلوم أن للقيم جانبين : قيم المحور المتمثلة في القيم الدينية التي تعد ثوابت مميزة لهوية المجتمع العربي والإسلامي، وقيم وسيلية تتمثل في قيم التفاعل الحضاري ، وتتمثل خطورة العولمة في محاولة التأثير في قيم المحور ، وذلك من خلال نشر الفكر الغربي الذي يعمل علي تغيير لكل القيم الثابتة ، ومحاولة إقناع أن الذي يتمسك بقيمه إنما يتعارض مع التقدم العلمي والفكري ونهضة العقل ، الأمر الذي أدي إلي تفاقم الشعور بالاغتراب لدي الشباب، ووقوعهم في أزمة حضارية ، وفي صراع بين ثقافتين متعارضتين في وقت واحد ، إحداهما خارج النفس والأخرى مدسوسة في ثناياها ، فتري حضارة العصر في البيوت والشوارع ، بينما تجد حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع (٣٥) ، لدرجة أن هؤلاء الشباب من شدة تعلقهم بالحضارة الغربية والحلم بالعيش في محيطها صاروا يعانون حالة من الاغتراب الثقافي ، فهم وإن كانوا يعيشون علي أرضنا إلا أن وجداناتهم وعقولهم مهاجرة مغتربة قيميا وفكريا (٣٦) .

فالعولمة تستهدف قيم الأصالة والانتماء ، والعمل علي تذويب الهوية العربية الإسلامية وصهرها بالهوية الغربية ، كما صارت العولمة تتضمن محاولة تعميم نموذج مغاير لمفهوم المواطنة ولمعاني الإحساس به ، والحد من حرية الدول في اتباع سياسات وطنية مستقلة ، وقد عبر " رفيق حبيب " عن هذه الظاهرة بقوله" إن النخب الحاكمة الآن من رجال أعمال ومثقفين وخبراء ورجال بنوك وغيرهم لا تلتحم

مع الدولة بل تنافسها وتشاركها" (٣٧)، ومن شأن العولمة الثقافية التأثير في الهوية الثقافية للمجتمع ، ودعم الإحساس بالدونية والتبعية وضعف الولاء والانتماء ٠

كما صارت اللغة العربية تتعرض للتهميش ؛ نظرا لطغيان اللغة الإنجليزية وخاصة الإنجليزية الأمريكية ، حيث " تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية تكنولوجيا المعومات والاتصال ، فحوالي ٦٥% من مجموع الاتصالات المعالجة إليكترونيا تخرج منها ، وتحكمه اللغة التي تتحدث بها ، فقد أصبحت اللغة الإنجليزية هي لغة الاتصالات العالمية الآن ، وأصبح تعلمها ضرورة لمواكبة العصر " (٣٨) ، الأمر الذي أدي إلي إهمال اللغة العربية من الشباب وعدم إتقانها ، والتركيز علي الإنجليزية ، مما أدي إلي ضعف قيم الولاء والانتماء لدي الشباب ، وعدم تمسكهم بهويتهم الثقافية العربية والإسلامية .

وقد تنبهت منظمة اليونسكو لخطر العولمة الثقافية ، فعقدت عدة مؤتمرات منذ بداية القرن ٢١ لمواجهة هذا الخطر ، ونتج عن هذه المؤتمرات الدولية إعداد اتفاقيتين دوليتين هما :

أولاً : **اتفاقية حماية وتدعيم تعددية التعبيرات الثقافية** : وتضمنت هذه الاتفاقية مجموعة من المبادئ ، منها " أن الثقافة تتخذ أشكالا متنوعة عبر الزمان والمكان ، ويتجلى هذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الإنسانية ، ولابد في مجتمعاتنا التي تتزايد تنوعاً يوماً بعد يوم من ضمان التفاعل المنسجم ، والرغبة في العيش معاً فيما بين أفراد ومجموعات ذوي هويات ثقافية متعددة ومتنوعة وديناميةٍ ٠٠ إن الدفاع عن التنوع الثقافي واجب أخلاقي لا ينفصل عن احترام كرامة الإنسان ، فهو يفترض الالتزام باحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية ، وخاصة حقوق الشعوب الأصلية " (٣٩)

ثانياً : **اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي** : وسعت هذه الاتفاقية إلى تحقيق مجموعة من الأهداف ، منها : (٤٠)

- صون التراث الثقافي غير المادي ٠
- احترام التراث الثقافي غير المادي للجماعات والمجموعات المعنية ، وللأفراد المعنيين ٠
- التوعية على الصعيد المحلي والوطني والدولي بأهمية التراث الثقافي غير المادي ، وأهمية التقدير المتبادل لهذا التراث ٠
- التعاون الدولي والمساعدة الدولية ٠

كما عقد اليونسكو مؤتمرا دوليا هاما في شهر مايو ٢٠٠٧ في باريس ، دعت إليه جميع دول العالم ، وخاصة وزراء الثقافة فيها ، والمسئولون عن الهيئات والمنظمات الثقافية والمجتمع المدني ، وكذلك الهيئات الدينية لإقرار بنود هاتين الاتفاقيتين الهامتين ، ولتوقيع الدول علي هاتين الاتفاقيتين لمواجهة خطر العولمة الثقافية .(٤١)

وقد اعتمدت فرنسا قانونا يحظر استخدام اللغة الإنجليزية في وسائل الإعلام الفرنسية وفي شتي المجالات ، كما اعتمدت منهجا عاما في محافل الأمم المتحدة والمنظمات الدولية لمواجهة العولمة الثقافية والحفاظ علي التعددية الثقافية، حيث أصرت فرنسا علي قيام الأمم المتحدة والمنظمات الدولية بترجمة الوثائق والمستندات الصادرة باللغة الإنجليزية إلي اللغة الفرنسية ، واللغات الرسمية الأخري للأمم المتحدة.(٤٢) ، والعكس هو الذي فعلته وتفعله الدول العربية ، فهي تركز جل اهتمامها علي تعلم وإتقان اللغة الإنجليزية فقط بشتى الطرق ، وعدم الاهتمام بتعليم الأبناء اللغة العربية التي هي أحد مقومات الهوية الثقافية ، فكيف يمكن لنا أن نحافظ علي خصوصيتنا الثقافية ؟ ، إن إهمال اللغة الأم يجعلنا نفكر بعقول غيرنا ، ونتكلم

بغير لساننا ، الأمر الذي يفقدنا هويتنا الثقافية العربية ، ويؤكد تبعتينا وانهزامنا وضعف انتمائنا.

مظاهر أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي

إن الأزمة التي تعانيها الهوية الثقافية العربية تظهر من خلال مجموعة من المظاهر ، والتي منها :

١- عجز الثقافة العربية الراهنة عن التكيف الإيجابي الخلاق مع المتغيرات العالمية والإقليمية والمحلية ، وهي أزمة كشفت عن جمود المجتمعات العربية المعاصرة ، وعجز قياداتها عن الإبداع ، بل وفشلها في إتاحة الفرصة للتنوع الفكري والإبداعات الثقافية .(٤٣)

٢- ما تمر به الهوية الثقافية من قسر وقهر وإجبار تروج له قوي العولمة ، وتقوده الولايات المتحدة الأمريكية ، من حيث محاولة جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة المشتركة للعالم ؛ومحاولة فرض معايير مشتركة واحدة ، وغالبا ستكون ما يرتضيه الأمريكيون .(٤٤)

٣- ما نراه من ابتعاد شبابنا- شيئا فشيئا - عن هويتهم الثقافية العربية والإسلامية عن جهل ودون إدراك بخطورة ما يفعلون في حق أنفسهم بتكالبهم علي تعلم اللغة الإنجليزية وجعلها هي لغتهم الأساسية ، بل والتفاخر والاهتمام بإتقانها أكثر من اهتمامهم بلغتهم العربية ، وارتداء الجينز والكاسكيت الأمريكي ، والتهافت علي ماكدونالدز، وموسيقي الجاز ، وعلي المسلسلات والأفلام التي تنشر أفكارا وأخلاقيات ومفاهيم بعيدة كل البعد عن معتقداتنا وتقاليدنا ، ولا يدرك أولادنا أن ما يفعلونه هو الخطوات الأولي نحو العولمة الثقافية . (٤٥)

٤- ومن أكبر مظاهر أزمة الهوية الثقافية ، انبهار كثير من التربويين بالنتاج التربوي للغرب ، وتطبيقه علي الواقع العربي رغم اختلاف البيئتين العربية والغربية ، ومن ثم اختلاف متطلباتها ، مما جعل السمة الرئيسة للفكر التربوي العربي بشكل عام هي الاستغراب ، حيث لا يكاد يوجد فكر تربوي عربي إسلامي أصيل ، بل هناك نظريات تربوية غربية غرست في أغلب البيئات العربية ، مما ساهم في جعل الهوية الثقافية العربية غير واضحة المعالم .(٤٦)

٥- تظهر أزمة الهوية الثقافية بوضوح من خلال سيطرة النظام السمعي البصري للعولمة الثقافية ، والمتمثل في عشرات الإمبراطوريات الإعلامية التي تبث ملايين الصور يوميا ، فيستقبلها مئات الملايين من المثقفين في سائر أنحاء المعمورة ، ويستهلكونها بوصفها المادة الثقافية الأساسية التي يجري تسويقها علي نطاق واسع ، وهذا المعروض ليس مجرد صورة فقط أو تقنية فقط ، بل هو كيفية جديدة لوعي العالم ، فهذا النظام الثقافي الجديد ليس مجرد وسيلة ، بل هو أكثر من ذلك ، فهو طريقة معينة لإدراك العالم والتعبير عنه ، ومصدرا جديدا لإنتاج القيم والرموز وصناعة الوجدان والذوق ، وتشكيل الوعي (٤٧) ، الأمر الذي جعل الشباب في حيرة من أمرهم ويعيشون أزمة فكرية يعبرون عنها من خلال العديد من سلوكياتهم ، إما في شكل انسحاب واغتراب عن العالم ، وإما في حالة عنف وتهديد لمجتمعهم ، والأمران يمثلان أكبر مصدر للخطورة علي شبابنا.

كيفية الحفاظ علي الهوية الثقافية في المجتمع العربي:

في ضوء ما تم عرضه ، وما وصلت إليه الدراسة من وجود أزمة تواجهها الهوية الثقافية العربية فإن الأمر يتطلب ضرورة العمل علي التوصل إلي حل لهذه المشكلة ،

وهذا الحل سيعتمد بصورة رئيسة علي ما ستقوم به التربية من دور فاعل إزاء ذلك ، وهذا ما يؤكده التاريخ من أهمية دور التربية ، فهي السبيل الأساسي الذي يمكن أن تأخذ به المجتمعات من أجل حماية هويتهم الثقافية والتأكيد عليها ، لأن " قيمة الإنسان هي حصاد معارفه ، وحضارة المجتمع هي المحصلة الجامعة لمعارف أبنائه التي وهبتها إياهم التربية"(٤٨)، وحتى تصبح التربية قادرة علي تحمل مسئولية تأكيد هويتنا الثقافية لابد أن يسهم مفكرونا وعلماؤنا التربويون في رسم استراتيجية علمية تؤهلها ؛ للصمود أمام هذه الهجمات الوافدة ، و تقديم هذه الثقافة بهويتها العربية والإسلامية إلي شعوب العالم كحضارة رائدة ٠

وإذا كان تعزيز الهوية الثقافية هو مهمة مؤسسات وقطاعات متعددة ، فإن هناك قطاعات بعينها لها دور أكبر ، وفي مقدمة هذه القطاعات قطاع التعليم ، الذي يمكنه القيام بدور كبير في مجال تعزيز الهوية الثقافية ، حيث إن التعليم منوط به تربية النشء ، وغرس القيم في عقولهم وقلوبهم منذ سنوات أعمارهم الأولي ، فالتعليم يقوم بدور كبير في مجال دعم قيم الولاء والانتماء ، والتأكيد علي الثوابت القومية ، وبالتالي له دوره الكبير في مجال تعزيز الهوية الثقافية وترسيخ ثوابتها ودعائمها الأساسية ٠

إذن سيعتمد هذا الحل علي استراتيجية تربوية ، وهذه الاستراتيجية تعتمد علي مبدأين أساسيين هما :

-أن تسعي التربية إلي تأكيد الهوية العربية الإسلامية بثوابتها ومكوناتها وأبعادها المختلفة وتحصينها ضد محاولات السيطرة والهيمنة .

- أن تؤكد التربية علي تعزيز التفاعل الإيجابي مع معطيات الثقافات الأخري ، بحيث يقوم هذا التفاعل علي الندية والتأثير المتبادل ، والإفادة من عناصر التميز في ثقافة الآخر دون انبهار أو ذوبان . (٤٩)

وستشمل هذه الاستراتيجية مجموعة من الخطوات ، وكل خطوة سيكون لها مجموعة من الإجراءات والآليات ، وهي :

أ- تعزيز البناء القيمي والأخلاقي للفرد

يعد بناء الفرد قيميا وأخلاقيا من أهم الغايات التي لابد أن تسعي التربية إلي تحقيقها ، فالتاريخ يؤكد أن استنهاض الشعور الديني هو الطريق الرئيس للأمة ؛ حتى يمكنها المشاركة في المشهد الحضاري العالمي المعاصر .

ويري " سعيد إسماعيل علي " أن " صياغة الشخصية السوية لابد أن يستند إلي أساس ديني وعقائدي ، من أجل بناء ذاتية تصغي إلي أوامر بارئها وتطبع أحكامه " (٥٠) ، إذن فتربية الشخصية الإنسانية علي أساس ديني وأخلاقي تظهر ملامح الهوية الثقافية .

وبذلك يصبح دور التربية بمؤسساتها المختلفة هاما في تنشئة الإنسان العابد بالمفهوم الواسع والشامل للعبودية ، لأن العبادة هي تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء ، فالتربية حين تنجح في بناء الإنسان العابد ، حينئذ يكون هذا الإنسان هو القوة الفاعلة في دعم هويتنا الثقافية ، وبناء مجتمع الحرية والعدل والكرامة الإنسانية(٥١) .

وتقوم هذه المؤسسات بدورها من خلال تهيئة المناخ التربوي المناسب ، والتأكيد علي هذه القيم ، بحيث تترجم عمليا في سلوكيات الناشئة ، وتصير ضمن نسيج شخصياتهم ، وقدرة هذه المؤسسات علي التعامل مع متغيرات العصر بإيجابية

ووعي وعقلانية ، وهذا هو ما أشار إليه " عبد العليم مرسي " حين ذكر أن وظيفة القيم تتمثل في كونها " تساعد المجتمع بأفراده وجماعاته علي التمسك بمبادئه الثابتة والمستقرة ،وتساعده علي مواجهة المتغيرات ، وتعمل علي إعطاء النظم الاجتماعية أساسا عقليا يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إليه ،وتقي المجتمع من الأنانية المفرطة ، ومن النزعات والشهوات الطائشة ، وتزوده بالصيغة التي يتعامل بها مع العالم ، وتحدد له أهداف ومبررات وجوده ، ومن ثم يسلك في ضوئها ، كما أنها تعمل علي إصلاح الفرد نفسيا وخلقيا ، وضبط شهواته ومطامعه، كي لا تتغلب علي عقله ووجدانه " (٥٢)٠

ويمكن تعزيز البناء القيمي والأخلاقي من خلال مجموعة من الإجراءات والآليات والتي منها :

- التنشئة الدينية الصحيحة ، وترسيخ التصور الإيماني للكون والحياة والإنسان. – الاهتمام بالجوانب الروحية في تكوين الإنسان ، خاصة في ظل العصر الذي تحكمه المادية بشكل كبير ٠
- اهتمام المناهج الدراسية وأنشطتها اليومية داخل الصف بتأصيل القيم الإسلامية ٠(٥٣)
- إسهام الأسرة بدور هام في التأكيد علي القيم الداعمة للهوية الثقافية ومواجهة التداعيات السلبية للعولمة علي أبنائهم .
- تحقيق الانسجام النفسي ؛ للارتقاء بالنفس إلي الطمأنينة ؛ لتجنب الباطل والابتعاد عن الوقوع في الأخطاء ؛ التي قد يقع فيها المسلم من خلال الثقافات الوافدة ٠

- الاهتمام بالتربية الخلقية للمعلمين والإداريين ، لأنهم يعدون قدوة أمام الطلاب.
- بناء الشخصية المؤمنة التي تخلص الناس من الضلال في العقيدة والفساد في السلوك والأخلاق ، ودعوتهم لأن يكونوا عابدين لله وحده٠

إيجاد بعض المقررات التي يدرسها الطلاب ؛ لتدعيم القيم والأخلاقيات وتعزيزها ، ويكون لها دور في التأكيد علي الانتماء لدي الطلاب ، بحيث تكون نابعة من القيم الأصيلة المرتبطة بعقيدتهم الراسخة وثقافتهم الوطنية ٠

- اشتمال المقررات الدراسية علي قيم بعينها مثل الديمقراطية ، والالتزام بالقوانين ، والتضحية في سبيل الوطن ٠
- الاهتمام بالتربية الخلقية لابد أن يستند إلي المعايير الدينية والاجتماعية والثقافية ، والمأخوذة من عقيدة المجتمع وثقافته٠
- التركيز علي تدريس مقرر التربية الخلقية بشكل مكثف في كليات التربية ، نظرا للدور الكبير الذي يقوم به خريجوها في تنشئة الطلاب وبناء شخصياتهم.
- تنمية الوازع الديني لدي الطلاب من خلال بعض الممارسات مثل زيارة زملائهم المرضى الذي تغيبوا عن المدرسة ، والحرص علي النظافة اليومية للفصل والمدرسة والبيئة المحيطية ، أداء الصلوات في أوقاتها ، الحث علي قول الصدق والإحسان للوالدين ... الخ.
- توحيد برامج التعليم الديني علي مستوي الوطن العربي ، بحيث تصبح قسمات الهوية الثقافية مرتكزات أساسية في تلك البرامج ، بحيث يسهم في صياغة تلك البرامج نخبة متميزة من علماء الدين الإسلامي علي مستوي جميع الدول العربية.

- التركيز في برامج التعليم علي مبادئ حقوق الإنسان وحقوق المرأة كإنسان ، ومساواتها بالرجل في كثير من المجالات ، فهذا هو ما نستخلصه من الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ٠
- لفت انتباه الطلاب إلي التمييز بين المواقع التي تدعو إلي تعاليم الدين الإسلامي وبين تلك التي ثبت أفكارا هدامة ومسمومة تخالف تعاليم ديننا الحنيف ، والتي تدعو إلي معاداة الآخر ، وكذلك تلك التي تستميل الغرائز لدي الشباب للانزلاق بهم إلي الانحطاط والرذيلة ، وكيفية مواجهتها ودحضها ٠
- إنشاء محطات فضائية دينية تعليمية متخصصة لنشر الوعي الديني والأخلاق ، لمساعدة الطلاب علي تمثل تعاليم الدين الإسلامي الصحيح ٠

ب- الإيمان بأهمية التواصل الحضاري :

وهذا يعني أهمية الحفاظ علي الهوية الثقافية من خلال القدرة علي التعامل بشكل إيجابي مع التعددية الفكرية والثقافية والعرقية والسياسية والاقتصادية ، وذلك لأن التعددية مبدأ تربوي إسلامي ، بل هو سنة من سنن الله في خلقه ، ولذلك فإن تربية الفرد في ضوء هذه التعددية يمكن أن تنمي فيه روح التسامح ورفض التعصب ، واحترام الآخر وقبول الاختلاف مع الغير. (٥٤) ، فالتنشئة السليمة تلزم الفرد التواصل وإقامة حوار مشترك مع الآخرين دون تردد.

ويمكن تحقيق التواصل الحضاري من خلال مجموعة من الإجراءات والآليات ومنها:

- التأكيد علي مفهوم وقيم المواطنة العالمية ، والإفادة من برامج التربية العالمية ، وذلك لتعزيز التفاهم والتعاون الدولي بين الشعوب على اختلافها ، فهي أحد سبل مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين ، ويمكن تحقيق ذلك من خلال :

- العمل في مشروعات مشتركة ، في ظل التعددية والحوار المتكافئ بين الثقافات .
- فهم الإنسان لدوره في النظام العالمي وأنه أحد مكوناته ، ويحتاج إلى جهوده ومشاركته الإيجابية .
- إدراك الصورة الكلية للنظام العالمي بما يؤهله للحياة في مجتمع دولي
- تكوين التقدير واحترام التباين والاختلاف الثقافي بين الشعوب ، بغض النظر عن الجنس واللون .

وهذا هو ما أشارت إليه منظمة اليونسكو في تقريرها عن التربية في القرن الحادي والعشرين ، والذي تم تعريبه بعنوان " التعلم ذلك الكنز الكامن " ، حيث أشارت في هذا التقرير إلى مبدأ هام وهو " تعلم لتعايش الآخرين"(٥٥)

- التأكيد علي التنوع الثقافي والتعددية في محتوي المناهج وأنشطة التعليم والتعلم .
- تزويد الطلاب بمعلومات وتجارب وخبرات أصيلة عن الدول الأخري بثقافاتها المتنوعة .
- استخدام شبكة الانترنت في ربط المدارس والطلاب بنظرائهم حول العالم ، مما يعطي فرصا كبيرة للحوار وتبادل المعلومات العلمية والثقافية مع مفكري وعلماء البلاد الأخري .
- الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية إلي جوار اللغة العربية .
- إسهام وسائل الإعلام بالشراكة مع المؤسسات الأخري للتربية في التحذير من القيم السلبية وثقافة الاستهلاك والهيمنة الفكرية .
- تشجيع الطلاب علي التواصل الثقافي والحوار مع الآخر .

- تنمية روح التسامح ، ورفض التعصب ، واحترام الاختلاف مع الغير ، وكيفية التعامل مع الاختلاف ، فهذه القيم يمكن أن تساعد الطلاب علي التعامل بندية مع الحضارة الغربية من خلال قيم التنوع والتعدد .
- تنمية مهارات الاتصال والتفاهم مع الثقافات الأخري ، من خلال إتقان بعض اللغات الأجنبية وإتقان مهارات التعامل مع التكنولوجيا المتقدمة ٠
- عصرنه الإعلام ، وذلك بأن تصير الرسالة الإعلامية ذات طابع علمي يتخطي الحدود إلي العالم ، بحيث تبرز فيه أصالتنا وماضينا العريق .
- الانفتاح العربي علي المجتمعات الأخري ؛ للإفادة من منظومتها القيمية التي لا تتعارض مع منظومتنا القيمية العربية والإسلامية ٠
- مواءمة المعلم بين تعميق الهوية الثقافية وترسيخها وبين الاندماج في الثقافة العالمية ، والإلمام بالقضايا المعاصرة ذات العلاقة بالهوية الثقافية مثل : إبراز دور العرب والمسلمين في بناء الحضارة الإنسانية ، أو الاطلاع علي مفاهيم الثقافة العربية والإسلامية والعلمية والاهتمام بها (٥٦) .
- مساعدة الطلاب علي تقدير إسهامات كافة الشعوب نحو المجتمع الدولي ، وإكسابهم قدرا أكبر من الرؤية الواقعية لبعض المشكلات الدولية الرئيسية ، الأمر الذي يؤدي إلي اهتمامهم بالشئون الجارية علي المستوي المحلي والدولي.
- تنمية الفخر لدي الطلاب بأوطانهم والتعرف علي نواحي القصور فيها ، والعمل علي تكوين فلسفة للحياة يمكن أن تكون عالمية . (٥٧)
- إعداد الفرد القادر علي إدراك مخاطر العولمة وتأثيراتها علي الهوية الثقافية.
- تأهيل الإنسان القادر علي التعامل مع المتغيرات العولمية دون انغلاق علي الذات أو رفض الآخر ، ودون انفتاح أو تبعية تنطلق من انهزام حضاري ، بل تأهيله

في إطار أصيل ينطلق من الثوابت والقيم الأصيلة التي تحفظ هويته ، وفي نفس الوقت يتوافق مع المتغيرات المعاصرة بالإفادة من ثمارها . (٥٨)

ج- أهمية الجمع بين الأصالة والمعاصرة :

تعد قضية تأصيل الهوية الثقافية العربية من أهم القضايا التي لابد أن تشغل بال المفكرين وكل من يهمهم أمر الشخصية العربية ، خاصة في ظل التغيرات التي يعيشها المجتمع العالمي المعاصر ، الأمر الذي جعل الشباب يعيش في حيرة من أمره ، هل يسير مع الغرب ؟ أم يتمسك بتراثه وثقافته ؟ .

وحتى يمكن تجاوز هذه الإشكالية كان لابد من السعي لتأصيل الهوية الثقافية العربية، بحيث يكون لهذه الهوية سماتها الخاصة التي تميزها عن الهويات الأخري ،بالإضافة إلي الاهتمام بالحاضر والمستقبل .

ولتحقيق ذلك لابد أن يكون هناك تواصل بين التراث الماضي وبين ثقافة المجتمع المعاصرة ، بحيث يكون هذا التراث معينا في بناء الحاضر ورسم صورة المستقبل ، وفق عملية انتقاء دقيقة ، كما يقتضي ذلك أيضا أن تعبر ثقافة المجتمع عن واقعه ، وأن يتشبع التعليم بمقومات ثقافة المجتمع وشخصيته (٥٩)، " فهذا التراث أغني وأقدر علي تقديم الحلول لكل مشاكلها من أي تراث آخر ، مهما كان بريق هذا التراث الآخر " ، كما أن هذا التراث هو الذي يساعدها علي تحديد اتجاه التطور الذي تنشده ، وهو في نفس الوقت دعامة قوية لهذه الثقافة.(٦٠)

ويمكن تحقيق الأصالة والمعاصرة من خلال مجموعة من الآليات والإجراءات والتي منها :

- تشجيع الطلاب علي الدخول في عصر المعلومات والثورة المعرفية ، وتنمية مهارات البحث عن المعرفة ، بل واستيعابها ٠

- تنمية مهارات التفكير، ودعم العقلانية ، والتفكير الناقد ٠
- التركيز علي إكساب الطلاب مهارات التعامل مع العصر ٠
- تقديم قراءة جديدة للتراث تتماشي مع متغيرات العصر ؛ بحيث يكون عاملا من عوامل الإبداع ٠
- ترسيخ مشاعر الاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي لدي الطلاب ٠
- تحويل دراسة التاريخ إلي دراسته كسجل حضاري تتناول حركة الإنسان في المجتمع بكل مجالاته ، بحيث يشمل دراسة التجارب الثرية في تاريخ الأمم والشعوب المختلفة ، فيصبح بذلك تاريخ أمة وثقافة وتاريخ إنسانية ٠(٦١)
- إعادة النظر في وضعية مقررات التربية الوطنية التي تعاني من تهميش وإهمال شديد ين من الطلاب والمعلمين ، بحيث تدخل في نطاق تقويم الطالب .
- لفت النظر إلي الجمال والفنيات التي يزخر بها التراث العربي والإسلامي ، وإكساب الطلاب مهارات تذوقها وتجديدها .
- ترسيخ الشعور الوطني في وجدان الطلاب بالتأكيد علي أهمية دراسة التاريخ القومي .
- أن يتيح المناخ المدرسي الفرصة لتدعيم الثقافة الوطنية دون الانغلاق عليها ودون الرفض لما هو جديد من حولنا من نتاج التطور المعرفي ؛ الذي قد يسهم في تطوير ثقافتنا ، ويتفق مع عقيدتنا ، ويعود بالنفع علي الوطن ، فنحتفظ بهويتنا الثقافية ونساير العصر في نفس الوقت .
- فتح حوارات مع الطلاب حول أهم الرواد والأبطال الذين لهم إسهامات في مجالات مختلفة في قيم بعينها ، ثم تشجيع وتأكيد هذه القيم من خلال مناخ ديمقراطي يسمح بممارسات فعلية لهذه القيم ٠

- تفعيل هياكل وسياسات التكامل الإقليمي بين الدول العربية والإسلامية ؛ بهدف تقليص التبعية للغرب ، وإخفاء طابع القوة والغلبة علي هذه الدول ؛ حتى تصبح ذات ثقل مؤثر في المجتمع العالمي ، وليس علي هامشه . (٦٢)
- أن يتميز المنهج بالأصالة والمعاصرة معا دون أن يفقد هويته ، وهذا يتطلب مراعاة بعض المرتكزات الأساسية عند بناء المنهج ، منها الأخذ في الاعتبار أن المنهج يعكس للمجتمع ما يعتقده الناس ، وما يشعرون ويفكرون ويمارسون ، بالإضافة إلي مراعاة التغيرات التي تطرأ علي المجتمع ، فتجعل هناك ضرورة لإعادة بناء المناهج لتساير الواقع الاجتماعي ، وتتماشي مع التغيرات العالمية .
- إعادة النظر في العادات والأفكار والمهارات الاجتماعية التي توارثتها الأجيال ، بحيث تسير جنبا إلي جنب مع الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الحديثة ، التي حدثت بسبب التغير المستمر في مختلف النواحي ٠ (٦٣)

د- بث روح العلم والإبداع :

إن العصر الذي نعيشه هو عصر العلم والمعرفة ، ومن يمتلك المعرفة هو الذي سيتحكم في العالم ومصيره ، الأمر الذي يؤكد علي أنه لا مكان في هذا العالم للضعفاء والعاديين ، وبالتالي فلا سبيل لسد الفجوة الحضارية بيننا وبين الغرب إلا بالتفوق في المجال العلمي والتقني ، ونشر روح الإبداع ، فتكون روح الإبداع هي المنطلق الأساس الذي تتكون من خلاله وفي إطاره سائرا لغايات التربوية ، التي يجب أن تنتظم عمل التربية ، إذا ما أردنا الحفاظ علي هويتنا الثقافية حية وفاعلة .

وقد أشار " عبد الله عبد الدايم" إلي " أن من أبرز القيم اللازمة لبناء الإنسان العربي روح الخلق والإبداع ، القدرة علي التغيير والتغير ، الفكر الناقد ، روح التسامح والتآلف و نبذ العصبية والتعصب ، روح الانتظام والتنظيم ، الروح العلمية ،

روح الحماسة والعمل، وروح تحدي الصعاب وإرادة التحدي "(٦٤)، والإبداع المراد " ليس مجرد انطلاقات فردية متميزة هنا وهناك مع أهميتها ، بل هو حركة تشمل السياق المجتمعي كله ، من مشكلات نمو اقتصادنا القومي والبطالة والفقر ، امتدادا إلي حق التعليم والثقافة الجماهيرية ، وإنتاج المعرفة التكنولوجية ، وهو محاولة لتركيب جديد للعلاقات والبني الاجتماعية ، وليس مجرد مقولات في مؤتمرات نردد فيها الصيحات والينبغيات .... إنه إبداع معرفي ، علمي ، تكنولوجي ، جمالي ، ديمقراطي " (٦٥) .

وهكذا يمضي الإبداع إلي رؤى جديدة ، وأفعال مغايرة سديدة نصنع من خلالها هويتنا وننميها كما نريدها نحن بإبداعاتنا ، وليس كما يريده لنا غيرنا ، وهو في الوقت نفسه خط الدفاع الثقافي الحصين في مواجهة ما قد يتهددنا من تيارات ثقافية قد تكون متعارضة مع ثقافتنا .

ويمكن تحقيق ذلك من خلال مجموعة من الآليات والإجراءات والتي منها :

- تنشئة الطلاب منذ نعومة أظفارهم علي الإيجابية ؛ بحيث يبحثون عن المعرفة واكتشاف الحقيقة ، وإخضاع كل معارفهم للفحص والنقد ٠
- عدم الحجر علي عقول الطلاب حتى يكون هناك مجال لممارسة النقد والتخيل والإبداع .
- تنمية المهارات العقلية المتقدمة ، وإدخال أنواع جديدة من البرامج في المناهج ؛ وخاصة في الرياضيات والعلوم وتكنولوجيا الحاسبات .(٦٦)
- التعليم للإبداع بدلا من الحفظ والاستظهار ؛ حتى يمكن تكوين مبدعين بدلا من مجرد تخريج أنماط متماثلة من الأفراد .
- الاهتمام بالتعلم الذاتي والمستمر إلي جانب التعليم النظامي الموجود ٠

- تطوير المناهج والمقررات الدراسية ، بحيث لم يعد التركيز علي الكم الهائل من المعلومات فقط أمرا مناسبا في ظل الثورة المعلوماتية ، حيث لم يعد المنهج الثابت والمحدد مناسبا لذلك العصر ، بل صار الأمر يتطلب إكساب الطلاب مهارات الحصول علي المعرفة بأنفسهم .
- التأكيد علي عدم التعارض بين القيم الدينية والأخلاقية وبين العلم الذي يستند إلي العقل والتجريب ، فالإسلام يري أن العلم وتطبيقاته من الضرورات الحياتية اللازمة للإنسان
- وضع" **حامد عمار** " تصورا لتطوير تعليم المستقبل تمثل في أربعة أبعاد وهم:

* البعد الأفقي : حيث يتاح التعليم للجميع ، صغارا وكبارا ، بحيث تنتشر المعرفة ويتم القضاء علي الأمية ٠

* البعد الرأسي : حيث تتاح فرص التعليم لأطول فترة ممكنة من السنوات بعد مدة التعليم الأساسي ، بما في ذلك توفير فرص التعليم والتدريب لقوة العمل ، بحيث يتعلم الفرد كيف يعلم نفسه في عالم متغير ٠

* بعد العمق في العملية التعليمية : ويرتبط بالتطوير الكيفي لمناهج التعليم لتحقيق تعلم فاعل ينمي التفكير، ويرعي الموهبة ويدعم الإبداع .

* البعد الاجتماعي الثقافي : بحيث يكون التعليم عاملا أساسيا في تأكيد الذاتية الثقافية للمجتمع٠ (٦٧)

- التأكيد علي قيم العلم ومنجزاته ، مما يكفل للطلاب الرغبة والإفادة من المنجزات التقنية ، وأهمية ذلك للفرد والمجتمع علي حد سواء .

- إعادة النظر في سياسة إعداد المعلم بما يحقق الارتقاء بمستواه الأكاديمي والمهني والثقافي والأخلاقي ، بحيث يستطيع أن يكون عاملا هاما في مساعدة طلابه علي الإبداع.
- أن يأخذ التعليم العربي بالتربية المستقبلية لمواجهة التحديات المعاصرة ، بحيث تكون تربية حوارية لا تلقينية ، وتربية تقنية لا يدوية ، وتربية تعاونية لا فردية ، وتربية تكاملية منظومية لا جزئية ضيقة ، وتربية توقعية لا عشوائية .

هـ - النهوض باللغة العربية

اللغة العربية هي أبرز مظاهر الثقافة العربية ، وأزمة اللغة المعاصرة هي أزمة الهوية الثقافية في الوقت ذاته ، فاللغة هي أداة التعلم والتفكير ، كما أنها تمثل ذاكرة الأمة ، وهي أداة الاتصال الاجتماعي ، ولهذا كله فاللغة العربية تعد من أكثر الميادين أهمية ، ففيها الخصوصية القومية والوحدة الثقافية ،والتراث والاستمرارية الثقافية ، وحيوية الفكر العلمي والإبداع الأدبي والمعتقد الديني(٦٨)، ولذلك فاللغة العربية هي الهوية بحق " فهي أداؤنا لكي نصنع المجتمع واقعا ، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها ومعجمها ، واللغة العربية هي أكثر لغات العالم ارتباطا بالهوية ، وهي اللغة الوحيدة التي صمدت ١٧ قرنا سجلا أمينا لحضارة أمتنا في ازدهار، وشاهدا علي إبداع أبنائها " (٦٩)

لذلك لابد من الاهتمام باللغة العربية ، فالمسلمون الأوائل حققوا أعظم المآثر في القرون الوسطي ، وأضافوا كثيرا للعلم ، وكانت العربية هي لغة هذا العلم وتلك الحضارة " فلقد كتبت بها المؤلفات القيمة ، غزيرة المادة ، شديدة الأصالة ، وكان علي أي باحث يريد أن يلم بثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية ، وقد فعل ذلك كثيرون من غير العرب " (٧٠) ٠

ومن متطلبات النهوض باللغة العربية توجيه معلمي اللغة لأهمية الحديث والتدريس باللغة العربية الفصحى ، وتعويد تلاميذهم علي التحدث بها ، مع تبصيرهم بأخطائهم في أعمالهم التحريرية ومتابعة التصويب لهم ، فالمعركة الحقيقية لا تكمن في مواجهة تعليم اللغات الأجنبية ، بل ينبغي أن تكون تلك المعركة ضد العوامل التي تضعف من شأن اللغة القومية ، وليس هذا معناه تجاهل اللغات الأجنبية أو مقاومة تعليمها ، ولكن يكون تعلم الفرد للغة أجنبية بعد تمكنه من لغته القومية . (٧١)

وقد أدركت دول العالم خطورة تسلل اللغات الأجنبية إلي ثقافتهم ، ولم يقتصر ذلك علي الدول النامية ، بل عبرت بعض الدول المتقدمة عن قلقها إزاء ذلك ، ففي فرنسا هناك إجماع علي اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسيتين من التأثير الأمريكي، ومنها إصدار قانون يلزم محطات البث التليفزيونية بألا تزيد نسبة البرامج الأجنبية من إجمالي البث عن ٣٠% ، وفي اتفاقية التبادل التجاري الحر بين أمريكا وكندا ، فرضت الحكومة الكندية علي الإدارة الأمريكية استثناء كل الصناعات الثقافية والإعلامية من الاتفاق المذكور . (٧٢) ٠

وقد أدركت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة " اليونسكو " خطورة ذلك فأهابت بالدول الأعضاء وبالأمانة العامة التشجيع على المحافظة على جميع اللغات التي تستخدمها شعوب العالم وحمايتها ، فأعلنت منظمة اليونسكو أن عام ٢٠٠٨م سنة دولية للغات ، عملا بالقرار الذي اتخذه المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في دورته الثالثة والثلاثين في ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٥م . (٧٣)

وإذا كانت هذه الدول تعبر عن قلقها من غزو الإنجليزية بثقافتها لبلادهم ، فإن الأمر بالنسبة لنا يتطلب منا بذل مزيد من الجهد للحفاظ علي لغتنا العربية ضد

الهجمة التي تتعرض لها سواء من الداخل أو الخارج ، وأن تتحول هذه الجهود إلي أفعال ، والتخلص من الأقوال ، بحيث تتحول هذه الجهود إلي طاقة عمل أوسع .

ويمكن النهوض باللغة العربية من خلال مجموعة من الآليات والإجراءات والتي منها :

- الاهتمام باللغة العربية والعمل علي تيسير تعليمها وتعلمها من خلال غرس حب اللغة العربية في نفوس الطلاب ، وابتكار صيغ جديدة لتعليمها وتعلمها ٠
- حدد "**رشدي طعيمة** " بعض المقترحات للنهوض باللغة العربية لتدعيم الهوية الثقافية ، ومنها :

* وضع أسس موضوعية لسياسة لغوية عربية موحدة ؛ بحيث يمكن لأجهزة الإعلام أن تحقق التقارب بين مستويات التعبير اللغوي ٠
* توفير البني الأساسية اللغوية التي تؤهل اللغة العربية للتفاعل مع لغات العالم الآخر ، سواء من حيث تنظيرها لا تعليمها ، أو إعداد معاجمها أو برامج استخدامها عبر وسائط التقنية الحديثة .
* البدء بتأسيس خطاب علمي بالعربية عبر مشروعات قومية في التعريب ، وفي تأسيس مجلات علمية باللغة العربية ، ودوريات متخصصة ، وتكثيف المؤتمرات والندوات العلمية ، ويتلو ذلك تعريب التعليم ؛ وخاصة التخصصات العلمية في التعليم الجامعي ، ومعالجة إشكالياته التي يطرحها معارضوه .
* تنمية اعتزاز الدارسين في مختلف المراحل التعليمية باللغة العربية ، ودعم ثقتهم في قدرتها علي استيعاب العلوم المختلفة ٠

* بناء أنظمة المعالجة الآلية وتحسينها وتقويمها من معطيات نصية ، ومعطيات معجمية ، ومعطيات مصطلحية ، ومعطيات ثقافية .

* تشجيع حركة الترجمة ، والارتفاع بمستوي تدريس اللغة الأجنبية في مختلف مراحل التعليم الجامعي . (٧٤)

- إنشاء شبكة عربية للتعليم عن بعد ، يمتد نشاطها خارج الوطن العربي ، للعمل علي تعليم العربية للناطقين بغيرها ، وتعليم الجاليات العربية في المهجر ، لإبراز الوجه المشرق للثقافة العربية . (٧٥)

- إثبات الوجود والهوية الثقافية العربية علي الخريطة العالمية من خلال التواجد علي شبكة الانترنت ، وتزويدها بقواعد بيانات ونظم معلومات باللغة العربية ، وإنتاج برامج تمكن مستخدمي الإنترنت من البحث والتقصي باللغة العربية ٠(٧٦)

- لفت نظر معلمي اللغة العربية إلي الحديث والتدريس باللغة العربية الفصحى ، علي أن تكون هناك درجة ضمن بنود تقويم المعلم تخصص لإجادة اللغة العربية .

- تعويد المعلمين لطلابهم علي التحدث بالعربية الفصحى ، مع تبصيرهم بأخطائهم في أعمالهم التحريرية ، والاهتمام بموضوعات التعبير وخاصة الشفوي ، ورصد جوائز قيمة للطلاب جيدي الحديث والإلقاء والكتابة بالعربية الفصحي٠(٧٧)

- العمل علي إنشاء مركز موحد للغة العربية علي مستوي الوطن العربي ؛ تكون مهمته الأساسية الإصلاح اللغوي ، بحيث يقوم برصد مفرداتها الجديدة ، أو ضبط استخدامها ، أو تنمية طرق تعليمها ، لأن ترك اللغة العربية دون مركز موحد لضبط مصطلحاتها ومتابعة تجديداتها وتقليص الفوارق في اللهجات قد يؤدي إلي زيادة التخبط اللغوي ٠

وهكذا يمكن أن تسهم هذه الخطوات في لفت النظر إلى أهمية الحفاظ وتعزيز هويتنا الثقافية العربية الإسلامية ، وإلى أهمية اتخاذ مزيد من الخطوات لبذل مزيد من الجهود للحفاظ على هويتنا الثقافية ؛ خاصة في ظل المتغيرات المتسارعة والمتلاحقة التي تجتاح العالم .

المراجع

(١) ينظر : مفيد الزيدي :صراع الحضارات وحوار الثقافات ، نحن والآخر ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١،٢٠٠٥.

(٢) ينظر : السيد ياسين وآخرون : العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٨،ص :٣١٩.

(٣) المرجع نفسه ، ص: ٠٧.

(٤) لمزيد من المعلومات حول دلالات مفاهيم العولمة وأبعادها المختلفة ، ينظر: عبد الرحمن عبد الله سيلمان الأغبري : العولمة وخطرها على الأمة الإسلامية من الناحية السياسية والثقافية والاجتماعية – دراسة استقرائية وصفية تحليلية – مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ط١ ، ٢٠٠٧ ،من ص:٢٠إلى ص:٣٠.

(٥) ينظر : المرجع نفسه ، ص:١٦.

(٦) كمال عبد اللطيف : الحداثة والتاريخ ، حوار نقدي مع بعض أسئلة الفكر العربي ، إفريقيا الشرق ، بيروت – الدار البيضاء ، ١٩٩٩، ص: ٥٨.

(٧) المرجع نفسه ،ص:١٤.

(٨) صامويل هنتنجتون:صدام الحضارات ،إعادة صنع النظام العالمي،ترجمة:طلعت الشايب ،سطور ،ط٢،القاهرة،١٩٩٨ .

(٩) المرجع نفسه ،ص:٣٧ .

(١٠) كمال عبد اللطيف: مرجع سابق ،ص:١٦.

(١١)حسين علي : نهاية التاريخ أم صدام الحضارات ؟ دار النفائس للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٢،ص :١٥٠.

(١٢)عبد الله إبراهيم : المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزيات الثقافية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٤، ص:٢٢.

(١٣)عز الدين المناصرة : النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ،عمان ، ط١، ٢٠٠٥، ص:٤١.

(١٤) ينظر المرجع نفسه، ص:٤٤.

(١٥) لإثراء المعلومات حول الركائز الفلسفية لنزعة التمركز حول الذات ينظر كتاب : عبد الله إبراهيم : المركزية الغربية ، إشكالية التكون والتمركز حول الذات ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ ، من ص:٥٧ إلى ص:١١٣.

(١٦) عبد الله إبراهيم :المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزيات الثقافية، ص:٢٢.

(١٧) ينظر : حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب ، الدار الفنية ، القاهرة ، ١٩٩١،من ص:٢٢إلى ص:٥٦.

(١٨) ينظر : عبد الله إبراهيم : المركزية الغربية ، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، ص:٢٣١.

(١٩) ينظر المرجع نفسه ، ص:٤٣.

(٢٠) حسين علي : مرجع سابق ،ص:٤٣ .

(٢١) ينظر : عبد المالك منصور حسن المصعبي : التواصل الثقافي العربي – العربي، الموقع الإلكتروني :www. Mansourdialogue.org

(٢٢) ينظر: فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر – بيروت ،ط١ ، ٢٠٠٦، ص:١٧٥.

(٢٣) ينظر: المرجع نفسه ص:١٧٦.

(٢٤) ينظر :م.ن :ص: ١٧٨،١٧٧،١٧٦.

(٢٥) عبد الله إبراهيم : المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزيات الثقافية، ص:٨

(٢٦) المرجع نفسه ، ص:٦٠٣- ٦٠٤.

(٢٧) سورة العنكبوت : الآية : ٤٦.

(٢٨) سمير عبد الوهاب الخويت : طفل واحد وثقافات متعددة : أثر وسائل الإعلام والعمالة الأجنبية علي ثقافة الطفل الخليجي – دراسة تحليلية – ميدانية ، مجلة التربية ، مجلد ٣ ، ع ١ ، الجمعية المصرية للتربية المقارنة والإدارة التعليمية ، يونيو ٢٠٠٠ ، ص ص ١٤٨ – ١٤٩.

(٢٩) عبد الودود مكروم ، مرجع سابق ، ص ١٣٨٨

(٣٠) محمد حسنين هيكل : العرب علي أعتاب القرن ، ٢١ ، مجلة المستقبل العربي ، ع ١٢ ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٤ ص ص ٥، ٢٥

(٣١) جورج قرم : مشكلة الهوية والانتماء القومي عند العرب ، مجلة العربي ، ع ٥٣٧ ، الكويت : وزارة الإعلام ، أغسطس ٢٠٠٣ ، ص ص ٣٠ ، ٣٤

(٣٢) سعيد إسماعيل علي : رؤية سياسية للتعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٩٩ ، ص ص ٢١٣ – ٢١٤

(٣٣) السيد عبد العزيز البهواشي : دور التربية الإسلامية في تنمية الشخصية القومية المصرية لمواجهة مخاطر اللانظام العالمي اللاجديد مرجع سابق ، ص ٤٤٥

(٣٤) حمدي حسن المحروقي ، مرجع سابق ، ص ١٧٧

(٣٥) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر ، ط ٣ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٠

(٣٦) شريف دولار : تنافسية مصر في إطار النظام التكنولوجي الجديد ، في : محمد السيد سعيد (تحرير) :الثورة التكنولوجية –خيارات مصر للقرن ٢١ ، القاهرة : مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ،١٩٩٦، ص ٧٣

(٣٧) رفيق حبيب : مصر القادمة بين التغريب والتفكير ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٩٨ ،ص ٨٨

(٣٨) محمد إبراهيم عطوة :مرجع سابق ، ص ص ١٨٣ – ١٨٤

وللمزيد من التفصيل يمكن مراجعة :

- أبو بكر رفيق : مخاطر العولمة علي الهوية الثقافة للعالم الإسلامي ، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٧٢٣
- نادية بنت سالم بن سعد الدوسري ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٠٩ – ١٢١١
- وضيئة محمد أبوسعدة : ظاهرة الاغتراب لدي طلاب المدارس الثانوية العامة بجمهورية مصر العربية – دراسة ميدانية ، مجلة كلية التربية ، جامعة الأزهر ، ع ٨٧ ، ديسمبر ١٩٩٩ ، ص ١٩

(٣٩) لمزيد من التفصيل يمكن مراجعة: "اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي " ، في : المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة "اليونسكو" ، المنعقد في باريس في الفترة ٢٩سبتمبر/أيلول – ١٧أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٣ متاح على موقع اليونسكو التالي : http://www.un.org/arabic/events/iyl/resources/132540a.pdf

(٤٠) لمزيد من التفصيل يمكن مراجعة: "الإعلان العالمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة "اليونسكو" بشأن التنوع الثقافي" ، الدورة٣١، باريس، ٢نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م

متاح على موقع اليونسكو التالي : http://www.un.org./arabic/events/iyl/docs.shtml

(٤١) فوزية العشماوي ، مرجع سابق ، ص ٤٤٠

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٤٤١

(٤٣) محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفي الجندي ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦

(٤٤) ديفيد روتكويف : في مديح الإمبريالية الثقافية ، ترجمة : أحمد خضير ، مجلة الثقافة العالمية ، ع ٨٥ ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، نوفمبر – ديسمبر ١٩٩٧ ، ص ٣٢

(٤٥) لمزيد من التفصيل يمكن مراجعة :

- سعيد إسماعيل علي : ثقافة البعد الواحد ، القاهرة : عالم الكتب ، ٢٠٠٣ ، ص ص ٣٠ ، ٣٧
- فوزية العشماوي ، مرجع سابق ، ص ٤٤٣
- علي قرني : دور الإعلام في بلورة اتجاهات التغير في قواعد السياسة الدولية في عصر المعلومات ، في : إسحاق فرحان (محرر) : انعكاسات العولمة السياسية والثقافية علي الوطن العربي ، عمان الأردن : مركز دراسات الشرق الأوسط ، ص ص ١١ –١٢

(٤٦) نادية بنت سالم بن سعد الدوسري ، مرجع سابق ، ص ١٢١٢

(٤٧) يمكن مراجعة :

- محمد إبراهيم المنوفي ، وياسر مصطفي الجندي : مرجع سابق ، ص ٢٢٧
- عبد الإله بلقزيز : العولمة والهوية الثقافية ، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة ؟ ، ندوة العرب والعولمة ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ ، ص ص ٣١٥ – ٣١٦.

(٤٨) نبيل علي : الثقافة العربية في عصر المعلومات ، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٦٥ ، الكويت : المجلس الوطني الثقافة والفنون الآداب ، يناير ٢٠٠١ ، ص ٢٨٩

(٤٩) حمدي حسن المحروقي ، مرجع سابق ، ص ١٨٢

(٥٠) سعيد إسماعيل علي : الخطاب التربوي الإسلامي ، سلسلة كتاب الأمة ، ع ١٠٠ ، السنة ٢٤ ، قطر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٥

(٥١) محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفي الجندي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧

(٥٢) محمد عبد العليم مرسي : في الأصول الإسلامية للتربية ، ج١ ، الإسكندرية ، المكتبة الجامعية ، ٢٠٠٠، ص ص ١١٣ – ١١٤

(٥٣) حمدي حسن المحروقي ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٤ ، ١٩٢

(٥٤) محمد إبراهيم عطوة مجاهد ، مرجع سابق ، ص ١٩٩

(٥٥) جاك ديلور وآخرون : التعلم ذلك الكنز الكامن ، تعريب : جابر عبد الحميد جابر ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٩٨ م ، ص٧

(٥٦) عطية إسماعيل أبو الشيخ ، مرجع سابق ، ص ص ٦٨٦ – ٦٨٧

(٥٧) كوثر جميل سالم بلجون ، مرجع سابق ، ص ٨١٣

(٥٨) نادية بنت سالم بن سعد الدوسري ، مرجع سابق ، ص ١٢١٨

(٥٩) السيد عبد العزيز البهواشي : التعليم وإشكالية الهوية الثقافية في ظل العولمة ، مرجع سابق ، ص ٢٥٦

(٦٠) السيد عبد العزيز البهواشي : دور التربية الإسلامية في تنمية الشخصية القومية المصرية لمواجهة مخاطر اللانظام العالمي اللاجديد ، مرجع سابق ، ص ٤٤٣

(٦١) حمدي حسن المحروقي ، مرجع سابق ، ص ١٩٣

(٦٢) محمد إبراهيم عطوة ، مرجع سابق ، ص ٢٠١

(٦٣) كوثر جميل سالم بلجون ، مرجع سابق ، ص ٨١٢

(٦٤) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : مراجعة إستراتيجية تطوير التربية العربية ، إعداد : عبد الله عبد الدايم ، تونس ، ١٩٩٥ ، ص ١٦٦

(٦٥) حامد عمار: دراسات في التربية والثقافة ، القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ٣٣

(٦٦) حمدي حسن المحروقي : مرجع سابق ، ص ١٨٧

(٦٧) حامد عمار : نحو تعليم المستقبل ، مجلة العربي ، ع ٤٩٤ ، وزارة الإعلام الكويتية ، يناير ٢٠٠٠ ، ص ص ٥٣- ٥٥

(٦٨) عبد السلام المسدي : الخطاب العربي وكونية الثقافة ، مجلة سطور ، القاهرة : دار سطور ، فبراير ١٩٩٩ ، ص ٤٠

(٦٩) نبيل علي : استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعريف بالهوية العربية وإثرائها والتحدي الإسرائيلي المعلوماتي ، المجلة العربية للتربية ، ع ٤٦ ، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مارس ٢٠٠٥ ، ص ص ٧- ١٤

(٧٠) السيد عبد العزيز البهواشي : دور التربية الإسلامية في تنمية الشخصية القومية المصرية لمواجهة مخاطر اللانظام العالمي اللاجديد ، مرجع سابق ، ص ٤٤٥

(٧١) السيد عبد العزيز البهواشي : التعليم وإشكالية الهوية الثقافية في ظل العولمة ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥

(٧٢) سمير حسن و رسلان خضور : مستقبل العولمة ، قضايا راهنة ، ع ٦ ، ١٩٩٨ ، ص ١٨

(٧٣) الأمم المتحدة – الجمعية العامة : الدورة ٦١ ، البند١١٤ من جدول الأعمال ، قرار اتخذته الجمعية العامة دون الإحالة إلى لجنة رئيسية ، ٨ يناير ٢٠٠٧م

متاح على موقع اليونسكو التالي :

http://daccessdds.un.org/doc/UNDOC/GEN/NO6/510/31/PDF/NO65/031.pdf?openELMEMENT

(٧٤) رشدي طعيمة : مناهج اللغة العربية في مجتمع المعرفة ، المجلة العربية للتربية ، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، يونيو ٢٠٠٥ ، ص ص ٤٥ ، ٧٢.

(٧٥) محمد إبراهيم عطوة ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠.

(٧٦) الرجع السابق ، ص ٢٠٠.

(٧٧) السيد عبد العزيز البهواشي : التعليم وإشكالية الهوية الثقافية في ظل العولمة ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥.

الفصل الثالث

الثقافــة الصحيــة

<u>الانسان والصحة</u>

<u>أنواع الصحة:</u>

للصحة ثلاثة أنواع رئيسة كالآتي:

أولا : الصحة الجسمية Physical Health: وهي التي تتعلق بالجانب الجسماني، ولتحقيقها يجب عدم تناول كل ماُ يلحق ضرراً بالجسم.

ثانيا : الصحة العقلية Mental Health هي ما تتعلق بالجانب العقلي و الفكري للإنسان و يجب الحفاظ عليه، و ذلك باجتناب كل ما يؤدي الى اتلافه أو تعطيله كالخمر و المخدرات .فلكي تكون صحيحا عقلياً فعليك :

- أن تشعر بأهمية نفسك وأن تقوم على رعايتها، وأن تحب نفسك ولا تكرهها، وأن تهتم بصحتك الجسدية.
- أن تأكل جيدا وتنام جيدا وأن تحافظ على لياقتك.
- أن ترى نفسك شخصاً ذا قيمة. فلا ينبغي أن تكون نسخة من أحد.

ثالثاً :الصحة النفسية : Psychologic Health فالصحة النفسية بوضوح هي:

- حالة من العافية التي يحقق فيها الفرد قدراته الخاصة .
- وتتأثر الصحة النفسية لكل فرد بالعوامل النفسية والتجارب والتداخلات الاجتماعية والموارد والقيم الثقافية.

قواعد حفظ الصحة

لا يتأتى حفظ الصحة ما لم تتوافر الحاجات الأساسية مثل المآكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والمنكح، والمركب، والأمن، والتعليم، والدخل. **ومن أهم قواعد الحفاظ على الصحة التغذية الحسنة..**

فتحري الغذاء الطيب، واجتناب الغذاء الخبيث، ضمانة للصحة. والتغذية الصحية هي التغذية المتوازنة.

أولاً: التغذية المتوازنة من حيث الكم

فالإسراف في الغذاء مضر بالصحة، لما يؤدي إليه بصورة مباشرة من اضطراب الهضم والتخمة، ولما يؤدي إليه بصورة غير مباشرة من أمراض فرط التغذية " أمراض التخمة "، ومن أهمها:

مرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، وأمراض شرايين القلب المحدثة للذبحة والجلطة، وأمراض شرايين الدماغ المؤدية إلى السكتة الدماغية.

ثانياً: التغذية المتوازنة من حيث المحتوى

وتشتمل على مزيج من مختلف عناصر الغذاء لسد حاجة الجسم من البروتينيات والدهنيات والنشويات والأملاح والفيتامينات، وغيرها.(١)

أسس الثقافة الصحية السليمة

شهدت العقود الماضية تغيراً جذرياً في أنماط الأمراض وانتشارها بين أفراد المجتمع من الأمراض المعدية، إلى الأمراض المزمنة لاسيما الأمراض التي يعبر عنها بأمراض النمط المعيشي كأمراض الضغط والقلب والسكري وكثير من هذه الأمراض إنما هي نتيجة لسلوك خاطئ ومن هنا فإن التثقيف الصحي هو حجر الزاوية للوقاية من هذه الإمراض بل هو أول مناشط تعزيز الصحة فمن خلاله يتم الارتقاء بالمعارف والمعلومات وبناء التوجهات وتغيير السلوكيات الصحية.

وخلال السنوات الأخيرة تم الارتقاء بمفاهيم التثقيف الصحي فأصبح علماً من علوم المعرفة يستخدم النظريات السلوكية والتربوية وأساليب الاتصال ووسائل التعليم ومبادئ الإعلام للارتقاء بالمستوى الصحي للفرد والمجتمع.

التثقيف الصحي نظرة شرعية:

لقد اهتم الإسلام اهتماماً خاصاً بالتثقيف الصحي فكثير مما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهَّرة حول الصحة يندرج في إطار التثقيف الصحي ، وهذه النصوص الشرعية تشكل للمثقف الصحي أساساً شرعياً متيناً ينطلق من خلالها في أنشطة التثقيف الصحي ، فالتثقيف الصحي يكون أجدى وأكثر وقعاً في نفوس الناس عندما ننطلق فيه من منطلقات شرعية وتوجيهات دينية فالناس أكثر تقبُّلاً للإرشادات الصحية عندما يعلمون أنها جزء من تعاليم دينهم.

تعريف الثقافة الصحية

تتعدد تعاريف التثقيف الصحي ونذكر منها ما يلي:

*عملية إعلامية هدفها حثُّ الناس على تبنّي نمط حياة وممارسات صحية سليمة.

*مساعدة الناس على تحسين سلوكهم بما يحفظ صحتهم.

* هو السعي المتواصل لتعزيز صحة الفرد والمجتمع، ومحاولة منع أو التقليل من حدوث الأمراض وذلك من خلال التأثير على المعتقدات، الاتجاهات، والسلوك فردياً ومجتمعياً.

* هو عملية يتحقق عن طريقها رفع الوعي الصحي عن طريق تزويد الفرد بالمعلومات والخبرات بقصد التأثير في معرفته و ميوله و سلوكه من حيث صحته و صحة المجتمع الذي يعيش فيه.

ومن خلال التعاريف الماضية فيمكننا القول بأن التثقيف الصحي: هو مجموع الأنشطة الهادفة إلى الارتقاء بالمعارف الصحية وبناء الاتجاهات وغرس السلوكيات الصحية للفرد والمجتمع.

مفاهيم الثقافة الصحية:

– الثقافة الصحية عملية متصلة ومستمرة وتراكمية فهي ليست عملية سهلة وبسيطة إذا أخذنا في الاعتبار أنه لا يهدف إلى إيصال المعرفة فقط ولكن إلى تغيير السلوك.

– يمكن تشبيهه التثقيف الصحي بمثلث متساوي الأضلاع ضلع لاكتساب المعلومات (المعرفة) وضلع لغرس وتأصيل القيم المرتبطة بتلك المعلومة) الاتجاه) والضلع الأخير لتطبيق تلك المعلومات (السلوك).

–التثقيف الصحي هو أحد العناصر الأساسية للرعاية الصحية الأولية وهو يتخلل كل واحد من العناصر السبعة الأخرى ويهدف إلى دعم السلوكيات الصحية وتعزيزها.

– التثقيف الصحي يسهل عملية التعلم وتغيير سلوك معين إلى سلوك صحي سليم.

– التثقيف الصحي ينمي عند الناس الإحساس بالمسؤولية تجاه صحة مجتمعهم ويزيد من مشاركتهم بشكل فعال.

مصطلحات هامة في الثقافة الصحية:

–**الصحة:** هي حالة من التكامل البدني والنفسي والعقلي والاجتماعي والروحي وليست مجرد الخلو من المرض أو العجز.

–**الثقافة الصحية:** هي تقديم المعلومات والحقائق الصحية التي ترتبط بالصحة والمرض لكافة الناس. الوعي الصحي : هو إلمام الناس بالمعلومات والحقائق الصحية وإحساسهم بالمسئولية نحو صحتهم وصحة غيرهم، وهو الهدف الذي نسعى إليه لا أن تبقى المعلومات الصحية كثقافة صحية فقط.

–**العادة الصحية:** هي ما يؤديه الفرد بلا تفكير أو شعور نتيجة كثرة تكراره. الممارسة الصحية (السلوك الصحي: هي ما يؤديه الفرد عن قصد نابع من تمسكه بقيم معينه.

ويمكن أن تتحول الممارسات الصحية السليمة إلى عادات تؤدى بلا شعور نتيجة كثرة التكرار وهذه مسئولية الأسرة حيث يبدأ تكوين العادات بتعود الطفل عليها قبل أن يتفهم أو يتعلم الأسس التي ترتكز عليها هذه العادات من الناحية الصحية.

أهداف الثقافة الصحية:

-نشر المفاهيم والمعارف الصحية السليمة في المجتمع.

-تمكين الناس من تحديد مشاكلهم الصحية واحتياجاتهم.

-مساعدة الناس في حل مشاكلهم الصحية باستخدام إمكاناتهم.

-بناء الاتجاهات الصحية السوية.

-ترسيخ السلوك الصحي السليم وتغير الخاطئ إلى سلوك صحي صحيح.

الهدف النهائي للتثقيف الصحي هو:

-تحسين الصحة على مستوى الفرد والمجتمع.

-خفض حدوث الأمراض.

-خفض الإعاقات والوفيات.

-تحسين نوعية الحياة للفرد والمجتمع.

لماذا الثقافة الصحية ؟

الجميع يحتاج إلى التثقيف الصحي كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساء ، الأمي والمتعلم لأنه يعمل على تحسين الوعي ورفع مستوى الاهتمام والإدراك لدى كافة شرائح بالمجتمع.

مواضيع المثقف الصحي:

ليس هناك حدود للمواضيع التي يمكن إن يتناولها المثقف الصحي، إذ يستطيع أن يتناول إي موضوع له علاقة بالصحة بشرط أن يتناسب هذا الموضوع مع حاجة الفرد أو المجموعة المستهدفة بالتثقيف الصحي.

-متى تتم الثقافة الصحية؟

في أي وقت، ولكنه يكون أكثر فعالية إذا تم في وقت ملائم لظروف المستهدف للتثقيف الصحي واحتياجاته.

أين يتم التثقيف الصحي؟

في أي مكان.

المستهدف بالثقافة الصحية: كل إنسان في حاجة للتثقيف الصحي.

-من هو المثقف الصحي؟

إي إنسان لديه معلومات صحية صحيحة ونال حظاً من التدريب وقادر على إيصال المعلومة بما لديه من مهارات.

عناصر الثقافة الصحية

التثقيف الصحي في حقيقته هو عملية اتصال حيث يتم فيه نقل الرسالة (المعلومات والمعارف الصحية)من المرسل المثقف الصحي إلى المستقبل (المستهدف بالتثقيف الصحي) عن طريق قناة اتصال (وسيلة للتثقيف الصحي). ومن هنا فإن عناصره هي : الرسالة الصحية، المثقف الصحي، المستهدف بالتثقيف، وسيلة التثقيف الصحي ولكي تكون عملية التثقيف الصحي فاعلة ومؤثرة يستلزم أن تحقق هذه العناصر بعض المتطلبات:

– الرسالة الصحية يجب أن تكون المعلومة صحيحة وواضحة ومفهومة وفي مستوى المتلقي ومشوقة وتحقق الهدف المنشود. –المثقف الصحي :تكون لديه المعرفة (المعلومة)مع القدرة على توصيلها ويكون مقتنعاً ، ومؤمناً بالرسالة التي ينوي إيصالها و لديه مهارات اتصال.

– المستهدف بالتثقيف الصحي يجب تحديد درجة فهمه وثقافته وأن تتوفر فيه الرغبة في التغيير مع التركيز على حاجته الصحية.

– وسائل التثقيف الصحي: تتنوع وسائل التثقيف الصحي المستخدمة في نشر المعلومات الصحية من وسائل تقليدية نمطية إلى تقنيات عصرية حديثة وكلما كانت وسيلة الاتصال تفاعلية وتخاطب أكثر من حاسة كلما كان تأثيرها أكبر ومن هذه الوسائل:

*وسائل مسموعة يتم نقل المعلومات عن طريق الكلمة المنطوقة مثل : (المقابلات ، الندوات ، المحاضرات ، المؤتمرات) .

*وسائل مقروءة يتم نقل المعلومات عن طريق العبارة المكتوبة مثل : (النشرات ، الكتيبات ، الملصقات ، رسائل الجوال، السبورة، النماذج، الصور التوضيحية ,العينات، المعارض، الشرائح).

*وسائل مسموعة مرئية: مثل (تلفاز ، فيديو لأفلام ، أقراص مدمجة).

مستويات الثقافة الصحية:

يمكن تقديم التثقيف الصحي على أربعة مستويات هي:

– التثقيف الصحي للأفراد، وهنا يتم تثقيف الفرد عن الأمور التي تهمه مثل التغذية , طبيعة ومسببات المرض والوقاية منه، النظافة الشخصية والإصحاح البيئي...الخ.

– التثقيف الصحي الأسري، الكثير من السلوك الصحي يغرس في النفوس من خلال الأسرة لذا فإن التثقيف في هذا المستوى مطلب لما له من تأثير إيجابي مستقبلي على أفراد الأسرة ومن ثم المجتمع بأسره.

– التثقيف الصحي للمجموعات تشمل المجموعة أفراداً ذوي خصائص متشابهة والمعرضين أو المصابين ببعض المشاكل الصحية الشائعة المبنية على الجنس أو العمر أو الوظيفة. ويمكن أن يشمل المجتمع مجموعات مختلفة مثل: أطفال المدارس– الأمهات– مجموعة المدخنين وغيرهم، ويجب اختيار الموضوع الذي يهم المجموعة كلها مثلاً: تعليم الحوامل عن الولادة وكيفية رعاية الطفل و تعليم أطفال المدارس عن النظافة الشخصية ومن الأهمية في تثقيف المجموعات هو المشاركة الإيجابية الحية بين المتلقين ويجب اختيار الوسائل حسب مميزات المجموعة لتكون أكثر فعالية.

–التثقيف الصحي المجتمعي ويتم ذلك عن طريق وسائل الإعلام بحيث يصل إلى عدد كبير من المواطنين على اختلاف شرائحهم ومستوياتهم.

تغيير السلوك الصحي

التثقيف الصحي عملية متصلة ومستمرة وتراكمية محصلتها النهائية هو تغيير سلوك الأفراد والمجتمع.

وتغير السلوك يمر بسلسلة من المراحل قبل إتباع السلوك الجديد ويجب على كل من يقوم بالتثقيف الصحي فهم هذه المراحل جيداً لكي يكون مصراً على محاولاته من أجل التغيير وهذه المراحل كالآتي:

أ. مرحلة الوعي: وهي مرحلة الإلمام بالمعلومات والحقائق الصحية

ب– الاهتمام: وهي المرحلة التي يبحث فيها الفرد عن تفاصيل المعلومات ويكون مرحباً بالاستماع أو القراءة أو التعلم عن الموضوع

ج –التقييم: وأثناء هذه المرحلة يزن الفرد الإيجابيات والسلبيات لهذا السلوك ويقوم بتقييم فائدتها له ومثل هذا التقييم هو نشاط ذهني ينتج عنه اتخاذ القرار بمحاولة اتباع السلوك المقترح أو رفضه.

د- المحاولة وهي المرحلة التي يتم فيها تنفيذ القرار عملياً ويحتاج الفرد لمعلومات إضافية ومساعدة أثناء هذه المرحلة للتغلب على المشاكل التي تعترض طريق التطبيق.

هـ- الإتباع: وفي هذه المرحلة يكون الفرد مقتنعاً ويقرر صحة السلوك الجديد واتباعه. وهذه المراحل ليست أجزاء مستقلة حرفياً عن بعضها حيث تتداخل مع بعضها أثناء تنفيذها ويمكن للأشخاص المختلفين الذين تعرضوا لنفس المعلومات أن يمروا بمراحل مختلفة من عملية الاتباع وهو ما يمكن تشجيعه بالسلوك الجماعي الإيجابي حيث يكون بطيئاً في البداية ويزداد كلما اتبعه عدد أكبر من الأفراد

تقييم برامج الثقافة الصحية:

للتقييم فوائد منها:

1. دراسة ما تم تحقيقه من أهداف.
2. التعرف على الطرق والوسائل التي اتبعت في تنفيذ مشروع التثقيف الصحي ومعرفة السلبيات والإيجابيات التي صاحبت التنفيذ و أسباب النجاح والتنفيذ.
3. تعديل الخطة إذا احتاج الأمر حتى نصل إلى الأهداف التي نسعى إليها، أو الأهداف إذا وجدناها غير عملية.
4. التعرف على العقبات و كيفية التغلب عليها.

الثقافة الصحية عبر الإنترنت

تتنوع وسائل التوعية والتثقيف المستخدمة في نشر المعارف والمعلومات ما بين أشكال الاتصال التقليدية والوسائل النمطية إلى التقنيات العصرية والوسائل الحديثة.

ولقد أثبتت نتائج الدراسات في مجال التربية الصحية أن الاعتماد فقط على وسائل التثقيف التقليدية مثل النشرات والكتيبات على أمل أن تقوم بمهمة تغيير السلوك بمفردها محدود الجدوى وذلك لمحدودية انتشارها.

ونظراً لأن لكل عصر وسائله ولغته والتي تنبع مما يتسم به من ثورات علمية ومخترعات تقنية فلقد أطلق على عصرنا هذا عصر التكنولوجيا حيث ربطت التكنولوجيا الحديثة العالم بأدوات اعتبرت الأهم في اتصال الناس بعضهم ببعض ومن أهمها حتى يومنا هذا الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

وحيث أن التوعية الصحية تعتمد على طرق الوسائل الممكنة و سلك الآليات المتاحة واستثمار التقنيات المتوفرة فمن هنا برزت الحاجة إلى اتخاذ وسائل أكثر تطوراً تخرج بالتثقيف الصحي من أسر الأساليب التقليدية إلى أساليب أكثر ملائمة لتوصيل الرسالة التثقيفية ونظرا للتنامي المطرد للشريحة المستفيدة من شبكة المعلومات ومن كافة فئات المجتمع مع ما تتسم به هذه التقنية من قدرة على إعادة صياغة المفاهيم التثقيفية الصحية وبثها بوسائل وطرق أكثر جاذبية وبصورة مثيرة ومشوقة تجعلها أكثر قبولاً لدى المتلقي مع ما فيها من مواكبة للتطورات والتغيرات المتسارعة في هذا المجال فأمام هذه المبررات كان من الأهمية بمكان الاستفادة من شبكات المعلومات في تعزيز المعرفة الصحية وبالفعل فقد أصبحت شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت" ملاذا للكثير من المرضى الذين يعانون من مختلف أنواع الأمراض.

فقد أصبح بإمكان المرء أن يتعرف على طبيعية مرضه وكيفية الإصابة به وطرق العلاج والوقاية منه بواسطة زيارة مواقع متخصصة بتلك الأمراض. وبهذا يمكن للإنترنت أن يقدم جميع المعلومات للمريض ويكون مصدراً للتثقيف الصحي ويثري نحو ٨٢ مليون موقع عن الصحة شبكة الإنترنت بكم هائل من المعلومات

والبيانات التي تغطي تقريبا جميع الأمراض التي قد يتعرض لها البشر وأصبح الزمن الذي يجلس فيه المريض مكتوف اليدين بانتظار أن يبلغه الطبيب بما يعاني منه قد ولّى . وأصبح المريض الآن يلعب دوراً فاعلا في مجال الرعاية الصحية ويسلح نفسه بالمعلومات التي يعرضها على طبيبه.

وفي دراسة أعدت لهذا الغرض أن ٣٢% من الأوروبيين و٥٣% من الأميركيين يستخدمون الإنترنت للبحث عن المعلومات الطبية. وبالتالي فإن الإنترنت غيرت شكل العلاقة بين المريض والطبيب. ففي السابق لم يكن هناك توازن في حجم المعلومات المتاحة للمرضى والأطباء. ومع بزوغ فجر الإنترنت أصبح أمام مستخدمي الشبكة فرصة للحصول على هذه المعلومات ليتمكنوا من القيام بدور أكثر فاعلية في رعايته الصحية.

طرق ووسائل الثقافة الصحية

لقد تمت ممارسة التثقيف الصحي عبر التاريخ بوسائل مختلفة وطرق متنوعة فليس هناك وسيلة واحدة أو طرق متماثلة يسلكها المثقف الصحي بل تتنوع وتختلف باختلاف الزمان وتغير المكان وتنوع الفئة المستفيدة واختيار وسيلة التثقيف الملائمة يخضع لعوامل كثيرة ولمتغيرات عديدة ومما يجب أخذه في عين الاعتبار قبل اختيار طرق التثقيف ما يلي:

خصائص الفئة المستهدفة:

المثقف الصحي يتصل بجماعات مختلفة – كبار –صغار –نساء–رجال– أميين – متعلمين فلابد من اختيار الطرق الملائمة لكل من هؤلاء قبل البدء في أي برنامج تثقيفي ولابد من التدرب عليه مسبقاً وكلما كانت وسيلة الاتصال تفاعلية وتخاطب أكثر من حاسة كلما كان تأثيرها أكبر

الثقافة المحلية للفئة المستهدفة:

إن أسلوب حياة الناس في المجتمعات يحدد الطرق التثقيفية التي يتقبلها الناس ويفهمونها ويستجيبون لها . فإذا كان اغلب الناس أميين فلابد من الاعتماد على المخاطبة وليس على الكلمة المكتوبة. وحتى عند المتعلمين فأن اكتساب المعارف المفضل هو الكلمة المسموعة وإذا كان المجتمع يتسم بالتقدم التقني فقد يلجأ إلى البث الفضائي وشبكة المعلومات العنكبوتية.

الموارد المتاحة:

بعض الطرق لا تحتاج لأكثر من المورد البشري مثل القصص والمناقشات واللقاءات , والبعض الآخر يحتاج إلى موارد مالية مثل الملصقات والصحف والمسرح.

الوســائـل المــلائمة:

الأفضل اختيار تشكيلة من الطرق الملائمة للتثقيف، فالتنوع والتكرار أمران مهمان والتنوع يجعل التثقيف شيقاً ومسلياً . وأما التكرار فيزيد من قدرة الناس على التذكر.

ومن الضروري أن لا يعتمد المثقف أسلوبا واحداً كالكلام والمحاضرات وإنما يستحسن إضافة عرض الصور وإفساح المجال للحوار والنقاش والسؤال والجواب، واستعمال بعض الأشياء والمعروضات التي تجسم الرسالة المراد تبليغها.

مدى استعداد الناس للتغيير:

إذا كان الناس لديهم القدرة والاستعداد للتغيير فإن الملصقات والمنشورات والبوسترات تكفى ..أما إذا لم يكن لديهم الاستعداد ..فإنه لابد من الاتصال الشخصي والزيارات المنزلية.

عدد الفئة المستهدفة: كلما كان عدد كبيراً كسكان المدن عندئذ يتم استخدام وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفاز والمحطات الفضائية حيث تبث من خلالها الرسائل الإعلامية.

تقسيم وسائل التثقيف الصحي

تتنوع وسائل الثقافة الصحية المستخدمة في نشر المعلومات الصحية ويمكن تقسيمها إلى تقسيمات مختلفة فيمكن تقسيمها تبعاً لتأثيرها على الحواس فتكون سمعية أو بصرية ويمكن تقسيمها وفقاً للاتصال المباشر مع المستهدفين إلى طرق مباشرة و غير مباشرة وقد تكون وسائل تقليدية نمطية أو تقنيات عصرية حديثة. تقسم وسائل التثقيف الصحي تبعاً لتأثيرها على الحواس إلى:

– وسائل مسموعة يتم نقل المعلومات عن طريق الكلمة المنطوقة ويتأثر بها الشخص عن طريق حاسة السمع مثل : الراديو أو الاستماع إلى أشرطة مسجلة

– وسائل مقروءة يتم نقل المعلومات عن طريق العبارة المكتوبة ويتأثر بها الشخص عن طريق النظر مثل : (النشرات ، الكتيبات ، الملصقات ، رسائل الجوال السبورة ,النماذج، الصور التوضيحية العينات، المعارض، الشرائح).

– وسائل مرئية مسموعة (سمعية بصرية) تؤثر في حاستي السمع والبصر معاً مثل : (تلفاز ، فيديو الأفلام ، أقراص مدمجة . المقابلات ، الندوات ، المحاضرات ، المؤتمرات

كما تقسم وفقاً للاتصال المباشر مع المستهدفين إلى:

– **طريقة مباشرة** : حيث يتم فيها اللقاء المباشر بين شخص وآخر، حيث يكون المثقف الصحي الطرف الرئيس في توصيل الرسالة و المعلومة كما يحدث في

المحاضرة والندوة وحلقة النقاش والحوار المباشر والمحادثة وغيرها.. قد تكون المحاضرات والندوات الطرفين يتبادلان النقاش

- **طريقة غير المباشرة**، والتي تنقل فيها الرسالة المطلوبة إلى المستهدفين من مصادر غير مباشرة كالتلفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والإنترنت. وكالاعتماد على الملصقات والمطويات والكتيبات أو من خلال الإذاعة المرئية والمسموعة.

- **طريقة تجمع بين الطريقتين الأولى والثانية**، كأن تستخدم الملصقات التي تعتبر طريقة غير مباشرة عندما توضع في لوحة إعلانات كوسيلة إيضاحية في محاضرة معينة لتصبح طريقة مباشرة.

وسائل الثقافة الصحية الملصقات

وهي لوحات ورقية كبيرة أبعادها ٦٠ – ٩٠ سم مدون عليها عبارات وصور تحمل رسالة تثقيفية بلغة مبسطة وموجزة في كلماتها مع استخدام ألوان جذابة وجاذبة للفئة المستهدفة و يراعي في التصميم الخط وإبراز الرسالة وحجم الكلمات والتأثير النفسي علي الملتقي وتتطرق لفكرة واحدة وتكون الصورة الرئيسية التي تهدف لها واضحة ومفهومة ويتم استخدامها في تقديم المعلومات و تقريب مفهوم الرسالة التثقيفية واستخدامها كمحفز ومحور للنقاش الجماعي توضع في المكان المناسب حتى تتمكن الفئة المستهدفة من الاطلاع عليها واستيعابها بسهولة.

<u>المطوية أو النشرة</u>

هي وسيلة تحتوي على معلومات صحيحة أما بشكل مصور مع تعليق أو إرشادات لفئة مستهدفة في المجتمع وتلعب الألوان الدور الأساسي فيها كعنصر للجذب

ويراعى أن يطبع العدد الكافي لإيصاله إلى الفئة المطلوب توعيتها.

الكتيبات التثقيفية

وهي كتيبات صغيرة تحتوي علي إرشادات موجهة لفئة محدودة في المجتمع لهدف توعيتهم.

اللوحات القلابة

عبارة عن صفحات ورقية مقواه تشتمل كل صفحة منها على رسالة أو معلومات صحية ويتم استخدامها غالباً في مجموعات صغيرة لا تتعدى ٣٠ ويكثر استخدامها في الفصول الدراسية.

أشرطة الفيديو

تستخدم أشرطة الفيديو التي تتضمن مواد تثقيفية لتعلم المجموعات الصغيرة ، ولكن لابد أن يتبعها مناقشة جماعية للمضمون التثقيفي وإلقاء الضوء على أهمية محتواه والجوانب التي تطرق إليها حتى لا يكون هناك تلقي سلبي .

النماذج والمجسمات وأدوات المحاكاة-:

النماذج تعد أدوات للمحاكاة وهي ذات أبعاد ثلاثية لذا فإنها تعرض مفهوما واقعيا يساهم في تحقيق الأهداف التعليمية و حجمها يسمح بفحصها عن كثب كما يمكن استخدامها لإيضاح الوظيفة إلى جانب إيضاح التركيب وتتميز بتعلم وممارسة أساليب ومهارات مختلفة ويصنع بعضها من المواد المحلية

أجهزة عرض الشرائح والشفافيات

وهي وسيلة من الوسائل البصرية لعرض الرسائل الصحية كجهاز عرض الشرائح . وجهاز عرض الصور الورقية (الشفافيات)وأجهزة وبرامج الكمبيوتر كبرنامج البوربوينت (العروض التقديمية) .

الثقافة الصحية المدرسية بأساليب التعليم النشط

يتبع أكثر المعلمين في أسلوب تثقيفهم الصحي للطلبة أسلوب النصائح أو التوجيهات عبر إلقاء المحاضرات حيث يقدم فيها المعلم المعارف الصحية وينصت الطلبة خلالها إلى ما يقوله المعلم وتعد هذه الطريقة التقليدية هي السائدة التي يمارسها المعلمون داخل الصفوف الدراسية.

وقد بينت كثير من الأبحاث أن هذه الطريقة لا تسهم في خلق تعلم حقيقي ولا تبني توجهات أو تمكن الطلبة من تذكر المعلومات الصحية . و قد ظهرت دعوات متكررة إلى تطوير طرق تعليمية تشرك المتعلم في تعلمه . و أساليب تعليم حديثة تُفعل عمليتي التعليم والتعلم، ومن تلك الأساليب التعليم النشط ومن هنا فإن التثقيف الصحي الفعال يتطلب استخدام أساليب التعليم النشط داخل الصف

الموضوع منقول بتصرف منى وبعض الزيادات.(٢)

الفرق بين الثقافة الصحية والوعي الصحي:

الثقافة هي المعلومات والبيانات التي ترتبط بالصحة والمرض لكافة المواطنين.

أما الوعي الصحي : هو إلمام المواطنين بالمعلومات والحقائق الصحية، وإحساسهم بالمسؤولية تجاه صحتهم وصحة غيرهم.

فالثقافة معلومات نظرية .... أما الوعي ممارسة سلوكية نتيجة الفهم والقناعات.

المناعة: هي قدرة الجسم على مقاومة جراثيم المرض والتغلب عليها عند الإصابة بها.

أنـواع المنـاعـة:

١- المناعـة الطبيعية .   ٢- المناعـة المكتسبة .

أولاً :المنـاعة الطبيعية :

هي قدرة الجسد على مقاومة الجراثيم المسببة للأمراض وترتبط طردياً مع قوة الإنسان البدنية وغذائه ووعيه الصحي .

مصادر المناعة الطبيعية:

١- مصل الدم.

٢- خلايا الدم البيضاء.

٣- الخلايا الشبكية الطلالية.

٤- مصادر أخرى كالجلد والدموع والأغشية والأنزيمات.

ثانياً : المناعة المكتسبة .

هي المناعة التي يكتسبها الإنسان بالتطعيم والأمصال المكونة من مواد مضادة للميكروبات وسمومها .

أقسام المناعة المكتسبة:

١- مناعـة مكتسبة بالمرض.

٢- مناعـة مكتسبة صناعياً.

والمناعة الصناعية قسمان :

أولاً : المناعة الصناعية الإيجابية: كاللقاحات من جراثيم ميتة أو ضعيفة، أو اللقاحات المأخوذة من سموم الميكروبات والتوكسيدات .

ثانياً : المناعة الصناعية السلبية: المأخوذة من مصل، من خارج الجسم وليس من داخلة كما في الإيجابية .

الفرق بين الطعم المصل :

١- الطعم ميكروبات أو سمومها بتركيز قليل جداً ،أما المصل أجسام مضادة مأخوذة من حيوان تمّ تلقيحه بالطعم مثل الفرس.

٢- الطعم يساعد الجسم على تكوين مضادات بداخله، أما المصل سبق تحضير المضادات في دم الحيوان .

٣- المناعة بالطعم ناتجة عنه، تستمر لشهور. أما المصل المناعة ناتجة عن المصل وتستمر لأسابيع قليلة فقط .

٤- المناعة بالطعم تظهر بعد أسبوع ، أما المصل بعد ساعات قليلة .

أنـــــواع اللقاحــات

١- بكتيرية : وهي التي تعتمد على جرثومة بكتيرية مثل لقاح التيفوئيد .

٢- فيروسية : بحقن الفايروس المسبب للمرض بجسم الإنسان مثل لقاح شلل الأطفال .

موانع أخذ اللقاحات(عدم التحصين):

١- إذا كان الشخص مريض أو حرارته مرتفعة نتيجة الرشح أو البرد .

٢- إذا كان مصاب بطفح جلدي أو إسهال .

الخلاصة: لا يلقح من به عارض مرضي.

الفرق بين الطب الوقائي والطب العلاجي

من المعلوم بموروثنا الحضاري ،وهو ذات أساس علمي: (درهم وقاية خير من قنطار علاج). فالصحة عموماً هي علم فن ، ولذا يُعرّف علم الصحة العامة بأنه:(علم تشخيص وعلاج المجتمع) .

مكونات الصحة العامة

أولاً : الصحة الشخصية :

١-تغذية ٢-نظافة ٣-رياضة ٤-نوم وراحة ٥-كشف طبي

ثانياً : الصحة البيئية :

١-مياه الشرب

٢-التهوية والإضاءة

٣-صحة الأغذية

٤-تصريف القمامة

ثالثاً : الطب الوقائي للفرد:

١-الصحة الشخصية ٢-استخدام الأدوية للوقاية العلاج

رابعاً : الطب الوقائي للمجتمع :

١-صحة البيئة ٢-التفتيش والخدمات الصحية

٣-عمل الإحصاءات ٤-الطب الوقائي للفرد

العوامل التي تحدد مستويات الصحة

١-عوامل تتعلق بالمسببات النوعية للمرض

٢-عوامل تتعلق بالإنسان ٣-عوامل تتعلق بالبيئة

أولاً : المتعلقة بالمسببات النوعية للمرض

عندنا نظريتان :**الأولى** :نظرية السبب الواحد أي يكون المرض ناتج عن سبب واحد. مثلاً مرض السل سببه جرثومة السل. **الثانية:** نظرية الأسباب المتعددة: مثل مرض الضغط : ممكن يكون سببه التدخين والضغوط الاجتماعية ومرض الكلى . كلها مجتمعة تفاعلت معاً ونتج عنها المرض.

*وهنا نقف على فئات المسببات النوعية للأمراض. وهي:

١- مسببات حيوانية : مثل وحيد الخلية المسبب للأميبا والديدان

٢-مسببات نباتية : مثل الفطريات البكتيريا

٣-مسببات غذائية : مثل نقص البروتينات أو الفيتامينات.

٤-مسببات كيمائية :مثل التعرض لمركبات الرصاص التي قد تؤدي الى تسمم بولي.

٥-مسببات طبيعية: مثل الحرارة والبرد.

٦-مسببات ميكانيكية : مثل الفيضانات والزلازل والحرائق.

٧-مسببات وظيفية : مثل الخلل بوظائف الغدد والهرمونات.

٨-مسببات نفسية واجتماعية :بسبب مشكلات الحياة والأعباء الأسرية ..التي تؤدي للإدمان مثلاً .

ثانياً : عوامل متعلقة بالإنسان: مثل الوراثة والمناعة الطبيعية

ثالثاً : عوامل متعلقة بالبيئة :

١-البيئة الطبيعية: الحالة الجغرافية، الجيولوجية كالتربة والمياه، المناخ كالحرارة الرطوبة

٢-البيئة الاجتماعية الثقافية: المستوى التعليمي، الاقتصادي، الصحي، وكثافة السكان.

٣-البيئة البيولوجية: العناصر النباتية الحيوانية التي تؤثر في الطعام نقل الأمراض.

العدوى والأمراض المعدية

العدوى: هي انتقال الجراثيم المسببة لمرض معين إلى الجسم حيث تتكاثر وتحدث المرض ... ... وتظهر أعراض المرض بعد ساعات أو أيام أو شهور وهي ما تسمى (فترة حضانة المرض).

<u>مستلزمات العدوى :</u>

١- مصدر العدوى : المريض الحامل للميكروب

٢- وسيلة نقل العدوى : طريقان

أ- مباشر: الملامسة، استنشاق الرذاذ

ب-غير مباشر :عن طريق الحشرات، تلوث الماء، أدوات المريض.

٣- شخص قابل للعدوى.

<u>طرق الوقاية :</u>

١-مصدر العدوى : العزل ، الحجر الصحي ، الصحة الشخصية

٢-وسيلة نقل العدوى: مكافحة الحشرات، التهوية، النظافة

٣- الشخص القابل للعدوى: التطعيم ، الصحة الشخصية .

الأمراض الكرونتينية

١-الحمى الصفراء ٢- الكوليرا

*<u>الحمى الصفراء</u> :مرض وبائي ناتج عن فيروس ينقله بعوضة الأكواخ المصرية، وينتشر في المناطق الاستوائية،

تحدث الأعراض بعد ٣-٦أيام من لدغة البعوضة، وتكون على شكل ارتفاع كبير بدرجة الحرارة وصُفرة واحتقان العينين بالدم.. وتقيؤ مخاط أصفر.. وزلال بالبول..

الحمى الصفاء مميتة لأنه لا علاج محدد لهذا المرض.. لكن بالعناية في المشفى وإذا مرت أيام الخطر ٩أيام يتعافى المريض يعطى المريض السوائل الغنية بالبروتين وشراب الليمون.. مع وضع كمادات دافئة على قدميه وباردة على جبهته.

*<u>الكوليرا</u> : مرض معدي تسببه جراثيم (فيبرو كوليرا) وتظهر أعراضه بعد ساعات على شكل تشنجات وإسهال ومغص، والتلوث وقلة النظافة سبب رئيس له، يعطى السوائل

المحتوية على الأملاح لتعويض الفاقد، وعمل كمادات دافئة على بطن المريض وقدميه وظهره.

أمراض تنتقل بالرذاذ

١-الأنفلونزا ٢- ذات الرئة ٣-شلل الأطفال ٤- التهاب السحايا

*__الأنفلونزا__ :سببه مجموعة من الفيروسات، ولذا قد يُصاب المرء به عدة مرات بالعام، وينتقل بالعدوى المباشرة. أما حضانة المرض فهي من يوم إلى ٣أيام.وهناك مطعوم للوقاية منه أو تخفيف أعراضه. ويجب على المريض أخذ المسكنات المضادات الحيوية

٢-ذات الرئة(الالتهاب الرئوي)

تسببه ميكروبات، وإذا أصاب الرئتين يسمى الالتهاب الرئوي وإذا انحصر بإحدى الرئتين سُمي ذات الرئة. وخطورته تأتي من كونه يسبب تسمم الدم.. وقبل اكتشاف المضادات الحيوية كان مرضاً مميتاَ ومن أعرضه :ارتفاع درجة الحرارة ،انحطاط جسدي عام.

العلاج: يُعطى المريض المضادات الحيوية، واستنشاق بخار الماء، وفي حالة صعوبة التنفس يُعطى الأكسجين..

٣-شلل الأطفال:

هو مرض معدي حاد يسببه فيروس ، ينتقل بواسطة إفرازات الحلق والبراز.. ويؤدي إلى شلل عضلي ارتخائي ، بسبب تلف الخلايا العصبية الأمامية للنخاع الشوكي. ومدة حضانة المرض من٧-١٢يوم لشلل الأطفال مطعوم يؤخذ بالحقن يُسمى(سولك) وأخر بالفم يُسمى (سابين) وهو المستعمل بالسعودية. أما من حيث العلاج بعد حصول المرض فلا علاج له سوى التمارين أو العلاج الطبيعي.

٤-الحمى المخية (التهاب السحايا):

هو مرض معدي يصيب الأغشية التي تغلف وتحمي المخ والحبل الشوكي. من أعراضه الارتفاع الحاد بالحرارة وتصلب الرقبة وكراهية الضوء، ويُسببه نعان من الجراثيم: فيروسي وبكتيري. ومدة حضانته٢-٤يوم الفيروسي لا علاج له سوى العناية وخفض الحرارة أما البكتيري فيعالج بالمضادات الحيوية.

أمراض تنتقل بالطعام والشراب

١-التهاب الأمعاء ٢-التهاب الكبد ٣-التفوئيد ٤-الحمى المالطية

التهاب الأمعاء :

بدية لا بُد من الإشارة إلى أن التهور بتناول الطعام يسبب الكثير من المتاعب وخاصة في الطقس الحار.... من أعراض المرض: الإسهال ، المغص، الحمى، ضعف الحيوية.. ومن أبرز أسبابه خاصة عند الأطفال : تلوث الحليب ، والأطعمة المكشوفة ، والفواكه والخضار غير الناضجة والملوثة

* طرق الوقاية تتمثل بالنظافة، والتهوية الجيدة، والتعرض للشمس، ويعالج : أخذ السوائل بشكل كبير، والنشويات كالرز والبطاطا سلقاً .

*التهاب الكبد : يُسببه فيروسان ،يسمى الالتهاب الأول فئة أ أو التهاب الكبد المعدي. والثاني فئة ب: أو الالتهاب الكبدي المصلي. وينتقل الفيروس عند طريق الطعام أو الحقن المستعملة من قبل المدمنين .

أعراضه : اليرقان (الصفرة) ضعف الحيوية، نقصان بالوزن..

الوقاية : بأخذ لقاح مصل (الغلوبين)،النظافة، الابتعاد عن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج ..

العلاج : الراحة وزيادة الغلوكوز بالطعام، والاستحمام المتكرر، إعطاء المريض (الإنترفيرون) وخاصة مرضى الالتهاب المزمن.

التفوئيد :

ناتج عن جرثومة عصوية الشكل تصيب الغدد اللمفاوية.. أعراضه: الحمى الشديدة، طفح جلدي، هبط النبض، تعب وضعف عام.

الوقاية: النظافة ، اللقاح ،وخاصة عند السفر إلى مناطق المرض..

العلاج: الاشراف الطبي .زيادة السوائل. تخفيف الحرارة بكمادات باردة أو بالكحول.

الحمى المالطية :

تسببها جرثومة تصيب الدم والطحال . مصدرها الماعز والماشية والخنازير.

أعراضها: صداع .فقدان الشهية. ارتفاع الحرارة الحاد. إمساك تؤدي للفقر الدم وتورم المفاصل. ويشعر المريض بالتحسن صباحاً والانتكاس مساءً.

الوقاية : غلي وطهي مشتقات الحليب اللحوم بشكل جيد..

العلاج : الراحة. معالجة الأعراض خاصة الحرارة. الإكثار من السوائل خاصة عصير الفواكه الطازجة. استعمال المضادات المناسبة.

أمراض تنتقل بالملامسة

١- الرمد ٢-حمى النفاس

*الرمد : (ألتراخوما)

يسببه فيروس يصيب الأغشية التي تغلف الجفنين.. وهو شائع في البلاد التي فيها زحام بشري.

أعراضه: تورم الجفنين واحمرارهما، التحسس من الضوء. حكة خفيفة بمقدمة العين.

أنواع الرمد: ١- الرمد النزلي الحاد ٢-النزلي المزمن ٣-السيلاني

الأول والثاني هما مرضا الرمد المعروف ونفس الأعراض، أما الأخير فهو ناتج عن مرض السيلان (الزهري أو التعقيبة) وهو أشدها حيث تفرز العينين الماء بغزارة ثم الدم والقيح. العلاج: كمادات باردة على العينين. الأنتي بويتك والسلفات.

***حمى النفاس :**

تسببه مكورات عقدية تصيب عنق الرحم عند الولادة أو الإسقاط، ويصبح خطيراً إذا وصل المبايض والأنسجة الأخرى كوريد الفخذين الذي يسبب التهاب الوريد الجلطي (ساق الحليب) أو الوذمة البيضاء.

أعراضه : ارتفاع مفاجئ بالحرارة بعد الولادة، قشعريرة..

علاجه : زيادة السوائل.. وضع الثلج أسفل البطن.. استخدام السلفا وعند التحسن التعرض للهواء الطلق لأطول مدة يومياً

أمراض تنقلها الحشرات

١- حمى التيفوس ٢- الجذام(مرض همسن) ٣- الملاريا

حمى التيفوس :

تنتقل بسبب عضة القمل والبراغيث والقراد.. وتكثر على سطح السفن وفي السجون. وتصل حالات الوفاة عند المسنين ٧٠%.

الأعراض: في البداية كالرشح العادي، ثم قشعريرة وحرارة عالية وهذيان، بقع قرنفلية على الجلد، وسرعة النبض مع انخفاض الضغط.

الوقاية : التلقيح .. مكافحة المسببات كالقمل والعث .

العلاج :أول عمل القضاء على القمل أو القراد،.. ويعطى المريض المضادات الحيوية (تتراساكلين) (كلورومايستين)

*الجذام(البرص)أو مرض هنسن.

تسببه جرثومة تشبه جرثومة السل تنقلها الحشرات اللادغة، وهو معدي مزمن، وتستقر الجرثومة في الدمع والريق وافرازات الاحليل والمهبل. يبدأ بالتدرج حيث يستمر أحياناً من سنتين إلى ثلاث سنوات بين التعرض للجرثومة وظهور الأعراض.

أعراضه : ألاً هو نوعان ١-الورم الجذامي ٢- الورم الدرني

١- ظهور العجيرات المتقيحة على الوجه خاصة الخدين فتتساقط اللحية والحاجبين.. وتظهر فتحات في الخدين والأذنيين الأنف واحيانا يصعب المضغ والبلع وتسقط الأسنان، وإذا وصل المرض إلى جذوع الأعصاب يصاب المريض بالشلل.

٢-أما الورم الدرني أقل حدة ويقتصر غالبا على البُقع، مع أنه قد يصل للأعصاب أيضاً .

العلاج : طويل الأمد ، بمادة السيلفون تحت إشراف الطبيب، والطعام المغذي، واللجوء للنشاط بدل الاستسلام للنوم.

ملاحظة مهمة :مع خطورته لكنه ليس بعظم شأنه. فالنظافة ومكافحة الحشرات عدم ملامسة المريض أمور بغاية الأهمية وصدق الرسول(صلى الله عليه وسلم):فُر من المجذوم فرارك من الأســـد .

***المـلاريـا :**

من أخطر أمراض المناطق الحارة، تسببه جرثومة تنقلها أنثى بعوضة (الأنوفليس)،وتعمل الجرثومة على تحطيم كريات الدم الحمراء مما يسبب الأنيميا(فقر الدم) . وتعيش البعوضة على المستنقعات.

الأعراض : ارتفاع حرارة الجسم ، قلة الحيوية ..

الوقاية : مكافحة البعوض. والنظافة وإنشاء شبكات الصرف الصحي تناول أدوية الكلوروكين، لا تمنع المرض ولكن تحد منه.

العلاج : الكمادات الباردة.. الطعام بالسوائل.. عقاقير سلفات الكينا.

أمراض فيروسية معدية

الأيــدز نقص المناعة المكتسبة

تاريخ المرض :

أكتشف المرض في ولايتي نيويورك ولوس أنجلوس عام ١٩٨١م ، من خلال مرضي الالتهاب الرئوي الحويصلي وسرطان كابوسي ، وينحصران بالشباب ، وتبين فيما بعد أن مرض الإيدز يسببه فايروس جديد لم يكن معرفا، ويهاجم الجهاز اللمفاوي (جهاز المناعة بالجسم) وتم الاتفاق على تسمية الفايروس (HIV) وهو من فصيلة الفايروسات الارتدادية التي تسبب سرطان الدم(لوكيميا)، وتصيب حامض ال RNA في الدم ، وكانت قديماً تصيب الحيوانات ثمّ أخذت تصيب الإنسان .

وسائل العدوى بالفايروس:

في البداية مثل أعراض الأنفلونزا حمى ، رشح ، صداع ، تعب عضلي ، وهن عام ،ثمّ تتوالى بظهور أجسام مضادة في دم المصاب، ويستمر بذلك حتى يُدمر جهاز المناعة بالجسم بفترة حضانة تستمر عشر سنوات .

ويصبح مريض الأيدز فريسة سهلة للإصابة بعدة أمراض منها الهزال ، وحمى غير معروفة ،والتهاب رئوي ، وتورم لمفاوي وساركوما كابوسي وهو سرطان جلدي ، وفقدان الذاكرة ، وعدم المقدرة على التحكم بالإخراج .

الإيدز عند الأطفال : هناك ظاهرتان مرضيتان: **الأولى** التهاب النسيج

اللمفاوي . **والثانية** : تورم الغدة النكافية. يحدث تسمم دموي ببكتيريا سالبة الجرام ويؤدي للوفاة. أهم طرق اكتشاف المرض: ٩٥% من المصابين تظهر بدمائهم أجسام مضادة للبروتين المكوّن للفايروس .

ويجب الانتباه إلى أن فيروس الإيدز عندما يغزو الجسم يختبئ بخلايا لمفاوية تسمى الخلايا التائهة المساعدة . وهي نوع من الكريات الدموية البيضاء المسئولة عن المناعة ، ويصبح الفايروس ينشر من خلية إلى أخرى ، ثمّ يهجم على كافة أنحاء الجسم ليسبب الأمراض الفطرية والبكتيرية والفايروسية التي تنهي المريض الموت. ولذا ركز العلماء على الخلايا التائهة ، ونجحت التجربة على أحد المرضى باسترداد عافيته زيادة وزنه وخفة أعراض الأمراض الأخرى .

وتم حقن خمسة مرضى أخرين بنفس الخلايا فلوحظ أنها تدمر خلايا الإيدز وزاد نشاطهم . السبب الرئيس للإيدز : توصل البريفسور جون فير بشيكاغو بأمريكا إلى نتيجة مفادها أن السلوك الجنسي الشاذ بين الرجال يًسرع بانتشار المرض وظهوره . ولذا سمّى العلماء مرض الإيدز بالطاعون الأسود .

كان العلماء في البداية يظنون أن المرض لا يصيب النساء ،وأنه لا يصيب إلا الرجال الشاذين . ثمّ تبين أنه يصيب المرأة، وخاصة من خلال العلاقات الجنسية ،ونقل الدم ، استخدام أدوات المصاب كفرش الأسنان والأبر، ثمّ تقله الأم إلى جنينها . لكن المرض لا ينتقل بالمصافحة والتقبيل والحمامات ودورات المياه

طرق الوقاية :

من أهم طرق الوقاية العفة ،والاحتياط عند نقل الدم... أما العلاج بعد الإصابة :فهناك عدة علاجات خاصة مضادات الفايروسات الارتدادية وخاصة (أسيكلوفير)

على شكل حبوب وحقن ومرهم وشراب للأطفال ، منه أيضاً (ديدانوسين) و(فيرازول) و (زيدوفودين) وتًؤخذ كلها أو ثلاثة منها على الأقل ،حتى تستطيع إضعاف الفيروس، وتزداد الخلايا التائهة المثبطة لنشاط المرض....(٣)

المراجـع

(1) http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=11&ved=0CBoQFjAAOAo&url=http%3A%2F%2Fportal.bu.edu.sa%2Fc%2Fdocument_library%2Fget_file%3Fuuid%3D24fce740-2a80-4152-9589-fde54be989d5%26groupId%3D16&ei=IxdVVNjOFITPPfKpgbAP&usg=AFQjCNGeWMouX6wJmarPuOKUt9g_Ewfdbg&bvm=bv.78677474,d.ZWU

(٢) الثقافة الصحية اسس ومفاهيم *سلوك ووسائل*

http://www.mouwazaf-dz.com/t5000-topic

(3) http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=1&cad=rja&uact=8&ved=0CCAQFjAA&url=http%3A%2F%2Fratedoctork.com%2FUploads%2FProfessorDocs%2Fe89b4133bc9c4ab8abc7ec6799aa405e.doc&ei=zrRUVKO2L8LXPdX5gdgI&usg=AFQjCNHGrSNJYNBWD-OeU7E2YCBPVGgK3w&bvm=bv.78677474,d.ZWU

دراسات ميدانية

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية
بمدينة دمشق – سوريا
ندوة : التراث الشعبي العربي : وحدة الأصل والهدف
١٤-١٦/٣/٢٠٠٥

الدراسة الأولي

الهوية الثقافية والعولمة

دراسة سوسيولوجية

دكتور / مهدي محمد القصاص
مدرس علم الاجتماع – كلية الآداب
جامعة المنصورة

مقدمة :

مما لا شك فيه أن هناك علاقة بين الهوية و العولمة فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به و الملاحظ أن مفهوم الهوية جري له بعض التحولات الهامة في شكل النظر إليه وسار كما يراه العديد من الكُتاب أزمة الهوية . وحقيقة الأمر فإننا – بوجه عام في هذه الأيام – بصدد أن فكرة التقوقع حول الذات صارت تفقد مغزاها وتفسح الطريق إلي تعريفات جديدة الهوية وتتضمن مفاهيم جديدة مثل الميوعة وعدم التماسك وعدم الاستقرار والتغير المستمر .

ويتضمن ذلك أن الهوية (التي هي في أساسها بحثا لمعني الفرد في علاقته بذاته وبالمجتمع) لم تعد تتسم بالثبات وهو الأمر الذي يتناقض مع الأسلوب الذي كان يتم عرض الهوية من خلاله قبل انتشار موضوعات العولمه بالشاكله التي هي عليها الآن ففي ظل الظروف الاجتماعية – الثقافية المعاصرة ، صار الفرد مجبرا علي البحث المستمر عن هويات جديدة ، فلم يعد بمقدوره التمسك بهوية واحدة لفترة طويلة من الزمن وإذا أردنا الاضطلاع علي هذه الهويات و المفاهيم لا بد أن ننظر إلي التغيرات الخارجية في العالم التي تعزز مثل تلك التحولات في الإطار التنظري للهوية ، إذ أنها ليست ظواهر معزولة بأي شكل من الأشكال بل علي العكس فهي مرتبطة ومتأثرة بالخارج الذى يتجاهل تلك الهوية ويوفر الظروف لتواجدها في الوقت ذاته .

وفي سباق التقدم التكنولوجي الهائل وتقدم وسائل المواصلات وما تميزت به من سهولة وسرعة في الاتصال (وهو من آثار العولمة) فقد صار حجم العالم كما لو كان أقل ، وهو الأمر الذي يقلل ويحدد من وجود الهوية . كما أن زيادة التبادل بين مختلف الأفراد من مختلف الثقافات يعمل علي توفير مصادر معرفية متعددة وأراء

ووجهات نظر متباينة ، ويكون لذلك أثرة المباشر علي هويتة ومن هنا جاءت فكرة هذه الورقة التي تعرض للهوية الثقافية و العولمة من منظور اجتماعي .

فكرة الدراسة :

تكمن فكرة الدراسة في أن هناك العديد من التيارات التي تربط الإنسان المصري بوطنه وعروبته وأفريقيته حيث يلتقي المفكرون علي أن من أبرز سمات الفكر المصري المعاصر التنوع إلي الدرجة التي تصل به ، في أحيان كثيرة إلي صراع . إذا تتنازعة تيارات فكرية شتي سواء منها ما كان معلنا أو ما كان خفيا ، وسواء منها ما أعطي حق الممارسة أو لم يعطه . فهناك التيار الوطني البحت الذي يشد الإنسان المصري دوما إلي تراثه المصري القديم ، مبرزا فرعونيته علي غيرها . وهناك التيار القومي الذي يربط الإنسان المصري بالمنطقة العربية التي يتوفر بين دولها من مقومات التشابه أكثر ما يكمن فيها من عوامل الاختلاف . ثم هناك التيار الأفريقي الذي يصل بين الإنسان المصري وأخيه في أقصي أطراف القرن الأفقي . وأخيرا هناك التيار الديني الذي يربط بين المصري وأشقاء له علي أساس من العقيدة الإسلامية .

والحديث عن نوع التيار الفكرية هو حديث عن أشكال الانتماء التي تشدنا إليها والحديث عن أنواع الانتماء هو حديث عن الهوية أو الذاتية الثقافية وخاصة في ظل العولمة .

والسؤال الرئيسي يتمثل في :

ما المقصود بالهوية الثقافية وما عوامل الإحساس بها و التحديات التي تواجهها في ظل العولمة ؟

ونحاول معالجة هذه الاشكالية من خلال عرض المحاور التالية :-

أولا : مفهوم الهُوية الثقافية :

قُدمت للهُوية الثقافية تعريفات كثيرة من زوايا مختلفة وسوف نعرض نماذج من هذه التعريفات :-

" الذات " النفس و الشخص ، يقال في الأدب نقد ذاتي يرجع إلي آراء الشخص وانفعالاته وهو خلاف الموضوعي . أما الهوية " بضم الهاء وكسر الواو " في الفلسفة ، حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره . تعني الذاتية " أو الهوية " تماثل المقومات أو الصفات الأساسية في حالات مختلفة وظروف متباينة . إنها تعني التماثل في كل ما يكون الحقيقة الموضوعية لشيء ما ، إنها التوحد .

إن الذاتية هي الشكل التجمعي ، أو الكل المركب ، لمجموعة من الصفات التي بواسطتها يمكن ، علي وجه التحديد ، تعرفه أو تميزه [١] ٠ وإذا ما كان التوحد identification هو العملية التي يتكون الكائن الإنساني من خلالها باعتبار التوحد أول رباط عاطفي ، فإن الهوية هي وحدة الأنا (الذات) وأساسها . فهوية الأنا Ego تعني ذلك الإحساس الأنوي بأني أنا هو أنا في كافة الأحوال والأزمنة . وهي في الآن نفسه ما تميز الأنا عن غيرها من أنواع ٠فالهوية كمبدأ فلسفي تعبير عن ضرورة منطقية بعينها تؤكد أن الموجود هو ذاته دوما لا يلتبس به ما ليس منه . فهو عين ذاته كما تقول الفلسفة (مبدأ الهوية IDENTITY PRINCIPLE) . فالشخص هو مهما اعتراه من تغيرات . الأمر الذي يشير إلي أهمية إدراك العمليات اللاشعورية و التسليم بها . ذلك أن الإنسان إذا ما كان هو فإن إصابته بالمرض تظهر تغيرا يشير إلي ما كان خفيا وكامنا فيه . وكان هذا التناقض البادي للعيان لمريض لا ينطبق علي نفسه مغالطة مستحيلة ، مما يدفعنا للقول بأن جماع تلك العبارة التي تري أن الإنسان مما ليس هو . وهو ليس ما هو يتضح في أن الإنسان إنما هو بمجمل شعوره ولا شعوره .

ذلك اللاشعوري الذي يلعب دورها أساسيا في نشأة الهوية بقدر ما يطور معني الهوية ذلك الأنا (٢) .

تعريف الهُوية : الهوية هي عبارة عن تأكيد للتماثل داخل الجماعة والاختلاف خارجها ويحظى الأفراد بهويات مختلفة ومتعددة ، بعضها اختياري (مثل العقيدة) وبعضها الأخر مفروض عليهم (مثل السلالة أو الجنس) وليست الهوية الذاتية وحدها هي العامل المهم بل من المهم أيضا رأي المجتمع بها (قبولها أو رفضها) ويتسم محتوي هوية الجماعة بأنه بناء اجتماعي (فلا سؤال في هذا الخضم عن أصلة أو منشأه) فهي الشعور بالانتماء لجماعة والإحساس الإيجابي نحوها (مثل الهوية القومية) ويشير هذا إلي مشاعر الاقتراب والفخر بالجماعة لكونه فرداً منها وقد يتضمن ذلك الشعور بالفوقية والأفضلية أو الانتماء الأعمى (أي أنه وطني صائباً كان أم خاطئا) .

وتتضمن الهوية القومية في شكلها الطبيعي (العضوية في الأمة) ومعناها الإخلاص الكامل من جانب الفرد لوطنه ، ويتضمن هذا البناء الوطني المكسب والخسارة وعليه فإن البعد المعياري يتألف من القيم والأفكار الرئيسية التي تميز الوطن بوضوح عن غيره مثل التحرر والذاتية وتعدد الثقافات . فعلى سبيل المثال فالهوية الوطنية الأمريكية هوية مدنية وليست عرقية أي أنها تقوم علي العادات والتقاليد المألوفة(٣) .

- ولقد قُدم تعريف الذاتية الثقافية في دليل عمل العقد العالمي للتنمية الثقافية ١٩٨٨/١٩٩٧ والذي أصدرته اليونسكو ، وهو أن : " الذاتية الثقافية تعني أولا وقبل كل شيء تعريفنا التلقائي بأننا أفراد ننتمي إلي جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية بما لها من قيم تميزها (أخلاقية ، جمالية ...إلخ) ويتضمن ذلك أيضا

الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ هذه الجماعة وتقاليدها ، وعادتها وأساليب حياتها وإحساسا بالخضوع و المشاركة في أو تشكيل قدر مشترك ، وتعني : الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية حيث نري انطباعاتنا الخاصة بصفة مستمرة ، مما يمكننا من بناء شخصياتنا من خلال التعليم و التعبير عنها في العمل الذي يؤثر بدورة في العالم الذي نحيا فيه . وعلي الرغم من أن الذاتية الثقافية لا تتأكد بالضرورة علي هذا المنوال ، وعلي الرغم من أن أشكالها وتكويناتها قد تكون غير واضحة ، إلا أنها تعد بالنسبة لكل منا كأفراد نوعا من المعادلة السياسية التي تقرر ، بطريقة إيجابية أو سلبية ، الطريقة التى تنتسب بها إلي جماعتنا وإلي العالم بصفة عامة (٤) .

- تعريف الهوية الاجتماعية social Identity من قبل tajfel علي أنها ذلك الجانب من المفهوم الذاتي للفرد (مفهوم الفرد الذاتي) الذي ينبعث من واقع معرفته بعضوته في جماعة أو جماعات اجتماعية وذلك إلي جانب المغزي القيمى والانفعالى المرتبط بهذه العضوية .

أما تحديد الهوية داخل الجماعة و الصراع بها فينبثق من دراسة الذات self في سياق اجتماعي ويكون له معاني تحليلية متعددة للكشف عن الشمولية التي تحدث علي مختلف المستويات التي قد يدخلها الفرد في هويته الفردية علي المستوي الإجتماعي علي أنها نوع من الشمولية العرقية ethnic hestility وقد يعمل توفر الهوية في كل جماعة من الداخل علي تعزيز عنصر الشمولية والمنافسة بين الجماعات ، كما أنه قد ينظر إليه من قبل الأمم العصرية علي أنه عنف مسلح (نزاع مسلح) .

وتُعرف هوية الجماعة المتماسكة in-group على أنها مجموعة من الصفات التي تجمع بين أفراد الجماعة الواحدة وتميزهم عن غيرهم ممن يقع خارج نطاق تلك الجماعة أما الهوية الاجتماعية social Identification فهي عملية وجدانية تيسر من الارتباط بالجماعة ، فهي تشتمل علي درجة من الترابط تجعل الجماعة أم للفرد والفرد جزءا من تلك الجماعة وهذا التكامل و التبعية يشكل أساس الرؤية الإيجابية للجماعة والرغبة من جانب الفرد في التوحد معها واعتبار ذاته جزءا منها وعضوا فيها . ويؤدي ذلك بالتالي إلي الشعور الإيجابي بالذات و التقدير الذاتي .

وتفسر نظرية الانفصال الاختياري السبب الذي يجعل الأفراد يختاروا الانضمام لجماعة ما فهي نصف حالة من العمليات المعرفية والانفعالية يتحكم فيها حافزان قويان هما :الحاجة للانتماء و الحاجة للتميز والاختلاف (٥)

الهوية إذن هي ذات الشيء بحيث إذا انتزعت منه افتقد شخصيته ، ولذلك فإن الهوية تعني الشيء ذاته ، المجتمع ذاته الأمة ذاتها فإذا انتزعت منها صارت شيئا آخر . هذه الهوية لم تشكل بصورة لا تاريخية بحيث إنها أتت دفعة واحدة ، وإنما تشكلت تحت تأثير ثلاثة سياقات :-

سياق اجتماعى : ويعنى أن البشر فى مجتمع ما ، هم الذين يصنعون هويتهم وهم فى الوقت نفسه حصيلة هذا الصنع ، والهوية لمجتمع ما تتأسس فى هذا المجتمع بعلاقاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والأخلاقية والدينية ، كل هذا المركب من العلاقات يفضى شيئا فشيئا مع التطور التاريخى إلى تكوين هوية بشرية .

سياق تاريخى : يتشكل في مجتمع ما يتحرك ويكتسب أبعادا جديدة بحيث يمكن القول بأن للهوية القومية أو الوطنية أو الدينية أو الأخلاقية تاريخا ، ومن ثم لا تنشأ دفعة واحدة وهذا يعني أن الهوية ظاهرة تاريخية لا تنشأ مرة واحدة ، و الهوية

تتعرض لتغيرات واسعة النطاق لكن هذه التغيرات تبقي في حدود محيطة بهذه الهوية ذاتها .

سياق تراثي : فهويتنا نحن العرب المعاصرين الآن ليست هوية منتجة في مرحلتنا الراهنة فحسب ، وليست منتجة فقط في سياق التطور التاريخي ، وإنما أيضا هي منتجة في إطار تراثنا العريق ولذلك فهويتنا تمثل هذا البعد المركب الاجتماعي ، والتاريخي و التراثي . [٦]

وللهوية وجه آخر مكمل لها وهو الانتماء الذي يعرف بأن معني موجود داخل كل فرد وعلي اختلاف المستويات ، وهو الشعور الذي يوجد لديهم منذ الصغر ويقوي من خلال نشأة الفرد فيتكون لديهم هذا الشعور الذي يترجم لأفعال داخل المجتمع ، فإذا كانت الهوية هي عملية الإدراك الداخلية لذاتية الشخص و التي تمدها عوامل خارجية يدعمها المجتمع ، فإن الانتماء هو الشعور بهذه العوامل الخارجية و الذي يترجم من خلال أفعال تتسم بالولاء لهذه المجتمعات التي ينتمون إليها دون سواها [٧]

- الهوية والاختلاف : تعتبر الهوية والاختلاف من الكلمات شائعة الاستخدام . فنحن نسمع كثيرا عن الهوية علي المستوي العالمي و القومي و المحلي و الشخصي . وفي التغطيات الإعلامية غالبا ما ينظر إلي الهوية من منطلق إشكالى problematic فعلي سبيل المثال ، يطلق مصطلح " فقدان الهوية loss of identity علي مجموعة من التغيرات المتلازمة في التوظيف وفقدان الوظائف و البحث عن الهوية الذي يلي تفكك المجتمعات أو العلاقات الشخصية حتى أن الأمر قد يصل إلي (أزمة في الهوية identity crisis) وفي المعترك العالمي نجد الهويات القومية تمثل الصراع بين الجماعات المختلفة و الذي غالبا ما ينجم عنه نتائج مدمرة فعلي سبيل المثال فى السنوات الأخيرة في البوسنه وفي روندا

حيث يُعبر عن الصراع في شكل أوضاع هوية متصارعة وغير متلائمة ومتطرفة في أغلب الأحوال . وعلي المستوي الشخصي ، فقد تغيرت العلاقات الأسرية وصار الأمر – علي سبيل المثال – في النظرة الغربية للأسرة النووية nuclear family – المعرفة علي أنها ذكر عائل وزوجة معولة وأطفال يواجهون التحديات – كما ظهرت أشكال جديدة للأسرة والهويات الأسرية ويتضح الاعتراض علي الهويات الجنسية في المعترك العام حيث يبدوا أن موضوع الهوية الجنسية قد صار الشغل الشاغل للمعارضة السياسية . وفي الغرب الغنى _ خاصة _ يلجأ الأفراد إلي المعالجين والاستشاريين بحثا عن بعض الحلول للمشكلة المثارة في التساؤل " من أكون ؟! (٨)

ثانيا:– مفهوم العولمة :

للعولمة تعريفات كثيرة ودون الدخول في تفاصيلها تظهر العولمة كمفهوم في أدبيات العلوم الاجتماعية الجارية كأداة تحليلية لوصف عمليات التغيير في مجالات مختلفة . ولكن العولمة ليست محض مفهوم مجرد ، فهي عملية مستمرة يمكن ملاحظتها باستخدام مؤشرات كمية وكيفية في مجالات السياسة والاقتصاد و الثقافة والاتصال . (٩)

وللعولمة العديد من الأبعاد:– الاقتصادية ، السياسية ، الاجتماعية ، الثقافية و البيئية إلا أننا نجد هنا أن المصطلح يعود إلي نماذج جديدة من التجارة العالمية والاستثمار والمسائل المالية وبشكل أكثر دقة نجده يعود إلي مرونة التصميم والتصنيع والإنتاج علاوة علي بيع البضائع و الخدمات في كل أنحاء العالم فتقسيم مراحل الإنتاج المختلفة أو دورات الخدمات على أقطار مختلفة يشجع ويدعم التخصص وصولا للاستفادة من نظام كل بلد علي حدة . فالعولمة تعني الكفاية (كفاية أماكن التسويق و

المعايير التي تتأتي من تطبيقها) وفي النزاع الذي نشب أثناء انعقاد اللقاء السادس للجمعية العمومية للأمم المتحدة ، فقد تم إقرار أنه لا يبدو أن كل شيء يشير إلي أن العولمة صارت أمرا حتميا لا مفر منه وهو أمر صار واقعا ملموسا ، ليس محل اختيار ويبدو ذلك من القوي الدافعة للعولمة وليست المعوقة لها إلا أنه في ظل بعض الظروف قد يكون دوره محدود . ولتلافي هذا الاحتمال فإنه لابد من الحيطة الشديدة لمسيرتها علي المستويين القومي والدولي .

وما من شك في أن العولمة تعد أكثر الظواهر الاجتماعية – الاقتصادية أهمية في هذا الجيل . فيوما بعد يوم نجد أن التجارة و التكنولوجيا ، و المعلومات تعمل علي تآكل حدودنا القومية وتحويل كوكبنا إلي مدينة كبيرة ترتبط ببعضها عن طريق الإنترنت (١٠)

إن العولمة تتجسد ملامحها في نشوء شبكات اتصال عالمية تربط جميع الاقتصاديات و البلدان و المجتمعات وتخضعها لحركة واحدة وتجسدها بشكل واضح شبكة معلومات الإنترنت ، فهي شبكة واحدة يشارك فيها الأفراد وينفذون إلي ما تنطوي عليه من معلومات وعروض بصرف النظر عن الحدود السياسية و الخصوصيات الثقافية . فالمقصود هو الدخول في مرحلة الاندماج العالمي الأعمق علي عدة مستويات فمن جهة هناك توحيد أكبر لمصادر المعلومات للعروض و الطلبات التي تقدم إلي الجمهور ، ومن جهة ثانية هناك توحيد أشمل لشبكات الاتصال وأدواته ، ومن جهة ثالثة هناك دمج أقوي لوسائل الاتصال [(١١)] .

ويمكن أن نأخذ في الاعتبار عدة مؤشرات عند وضع تعريف للعولمة منها :-

- انتشار المعلومات بحيث تصبح معروفة لدي جميع الناس .
- تذويب الحدود بين الدول .

- زيادة معدلات التشابه بين الجماعات و المجتمعات و المؤسسات .

وكل هذه العمليات قد تؤدي إلي نتائج سلبية لبعض المجتمعات ، وإلي نتائج إيجابية بالنسبة إلي بعضها الأخر . والعولمة ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع ويكون الانتماء فيها للعالم كله عابرا الحدود السياسية للدول المختلفة ، مما يحدث فيها تحولات وتغيرات تؤثر في حياة الناس علي كوكب الأرض كله (١٢) .

ثالثا – الهوية بين الوحدة و التنوع في ظل العولمة :

" إن إحساسنا بالواقع صار أمرا شديد النسبية في عصرنا الحالي . فالقوي الشديدة للعولمة و الثقافة والاقتصاد وغيرهم والتي تتخذ شكل شركات عابرة للقارات وتدفق الهجرة قد أدت إلي خلط أوراق الدولة والهوية و المواطنة . كما أن ارتفاع تيار الفردية صار محل اهتمام في ظل استمرار المجتمع في فقد وعيه الجماعي الذاتى _ كما يبدوا _ وبالتالي فقد مقدرته علي العمل السياسي وفي مقابل ذلك نجد الشركات عابرة القارات (متعددة الجنسيات) التي ترسوا قواعدها في المجتمع العالمي قد اكتسبت أرضا جديدة في العمل السياسي و القوة و النفوذ علي الحكومات القومية و البرلمانات . وكانت نتيجة ذلك أن الوجه الرئيسي للسياسة في مطلع الألفية الجديدة هو ظهور موضوعات اخترقت الواجهة الديمقراطية الوطنية للأمة وصارت بمثابة المحرك الرئيسى للعمل السياسى (١٣)

فالعولمة لا تعرف فقط على أنها مجرد تكامل اقتصادي بين الأسواق في ظل نظام غير عادل يقع تحت الهيمنة الأمريكية فحسب ، بل أنها كذلك تكامل بين مختلف النظم القيميه التي تشكل مجتمعاتنا . فعلى سبيل المثال ، نجد أن الأفكار والعادات و المعايير التي تقوم بتعريفنا كأفراد أو كأمة تتغير باستخدامنا للإنترنت و

القنوات التليفزيونية الفضائية بهدف خلق هويات جديدة وتشكيل مجتمعات حديثة . وتلك العملية تعمل علي خلق وسائل للتكامل الثقافي والاقتصادي و السياسي (١٤)

وتوصف العولمة بأنها " عملية تدفق التكنولوجيا والاقتصاد و المعرفة والأفراد و القيم والأفكار عبر الحدود . فللعولمة تأثيرها علي كل بلد بشكل مختلف وفقا للتاريخ الذاتي لكل أمه ووفقا لتقاليدها وثقافتها ومصادرها وأولوياتها .

والعولمة عملية متعددة الأوجه فهي تنطوي علي متضمنات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية للتعليم العالي . كما أنها تفرض تحديات جديدة عندما تكون الدول وحدها ليست الموفر الرئيسي للتعليم العالي و المجتمع الأكاديمي ، وعند ما لا تحتكر صناعة القرار في التعليم (١٥)

كما أن هناك من ينظر للعلاقة بين التكنولوجيا و المجتمع و الثقافة من خلال " الإنترنت " علي أنها إما صالحة أو مفسدة للمجتمع وثقافته بوجه عام و بالرغم من التناقص و التنافر بين (الإصلاح أو الإفساد) إلا أنهما ينظرا للتكنولوجيا بعين واحدة وهي أنها وحدها تشكل وتغير المجتمعات وثقافاتها .

والسؤال الذي يطرح نفسه :- ما أثر الإنترنت علي الثقافة و الهوية ؟ أو ما هو أثر الثقافة و الهوية علي الإنترنت واستخدامه ؟ والإجابة قد تلقي مزيدا من الضوء علي العلاقة بين الهوية الثقافية واستخدام التكنولوجيا والهوية - الهوية الحياتية الفعلية - هي أمر هام لاستخدام مدركات الإنترنت وفي ظل الإنترنت و العالم الذي صار قرية صغيرة Global – village فإنه لا بد وأن نري ونشاهد ظهور هويات واختفاء أخري . فنجد بعض النظم والدول ترتفع أسهمها اقتصاديا و عسكريا وبالتالي فستفرض هويتها علي غيرها وتنشر ثقافتها علي من هو أضعف وكنتيجة لذلك سنري اضمحلال واختفاء

هويات تلك الدول المستوردة لهذه الثقافة كبند أساس وشرط أولي لاستيراد تكنولوجيا تلك الدول [١٦] .

ويترتب علي ما سبق التساؤل : هل ستقوم العولمة بفرض أي تهديد لاستمرار التنويع الثقافي ؟ وهل النماذج السلوكية الجديدة المكتسبة واللازمة للتكيف مع العولمة (و الذين يكون لهم فائدة فقط خلال التعليم) ليست قائمة علي النمط الأوروبي– أي النمط الغريب عن القيم الفريدة لمناطق أخري من العالم ؟ وهذان التساؤلان بدورهما يلقيان الضوء علي تساؤلات أخري منها : هل يمكن اعتبار العولمة عملية حتمية لابد لكل الدول أن تتكيف معها في النهاية ؟ أم أنها موضة ستأخذ وقتها القصير ثم تمر ؟ وهل من المستحيل الإجابة علي هذه الاعتراضات هنا ! وبالرغم من التركيز علي ملاحظات السيد ttallak فلا بد من أن نضع في اعتبارنا أن :-

١. الفشل في تفادي التهميش الناتج عن الاتجاه نحو العولمة – أكثر من وقتنا الراهن – حيث يتم اقصاء بعض الدول عن النظام العالمي الجديد .
٢. بعيدا عن أي إصلاح داخلي ، فإن غالبية نظم التدريب المهنية و التعليمية تتأثر بشكل مباشر بالاتجاه نحو العولمة بالدرجة التي تفضل ظهور مصادر تعليمية جديدة (خاصة من القطاع الخاص) ومداخل جديدة (مثل حافزية المستهلك في مجال التعليم)
٣. وان كانت العولمة لا بد وأن تتضمن المخاطرة بحدوث الاستعمار الثقافي و التكنولوجي فلا يجب الافتراض بأن محاولات التكيف مع هذه الظاهرة تقوم بفرض تهديد حقيقي علي الهوية المحلية [١٧]

وهنا تظهر العلاقة بين المكان و الهوية فالمكان هنا لا يشير لمجرد موقع محدد الأبعاد ، بل أنه يشير لتوليفة – إن صح أن نقول ذلك – من التفاعلات

الاجتماعية و السياسية والاقتصلدية في مكان ما . وقد أثرت عمليات العولمة في عالمنا الحالي علي العلاقة بين الهوية و المكان بشكل جزري فعلي سبيل المثال : فقد أدي تزايد الحرك بين البشر وانتشار تكنولوجيا المعلومات وثورة التكنولوجيا الحيوية (البيولوجية) والتحولات الثقافية ، كل ذلك أدي إلي خلخلة الروابط بين الهوية و المكان . وتؤثر العمليات المحلية و العالمية بشكل غير محدود علي كل الظروف البشرية و النظم الاقتصادية التي تحتويها . وهذا التأثير ومن ثم الأشكال الجديدة ينجم عنها أنماط مختلفة وجديدة من الترابطات غير مسبوقة الوجود . وبطبيعة الحال ، سنري صراعا بين القديم و الحديث من العلاقات الاجتماعية و السياسية والاقتصادية الذي سيتأتى عنه مزيدا من التأثير علي بناء المكان الهوية [١٨]

فعند النظر للمجتمع الغربي (أمريكا وأوربا) في مراحل تطورها اللغوي و العقائدي فإننا لا نجد أننا بصدد أي مشكلات في الهوية العقائدية و اللغوية بين معظم الأقطار الغربية . ويرجع ذلك إلي اعتناق معظم أفراد هذا المجتمع لديانة واحدة في معظمها في العصور الوسطي وحتى وقت قريب عند ما بدأ يظهر التعدد الدينى و المذهبي . كما أن المجتمع في مجملة (ونقصد بالمجتمع هنا الدول الأوربية) كان يستخدم لغة واحدة للتفاهم ، مما نجم عنه عدم وجود مشكلات هوية دينية أو لغوية[١٩].

أما في جنوب أسيا نجد أن موضوع الدين صار مصدرا للهوية التي تعتبر وسيلة للحراك السياسي و بالتالي مصدرا للصراع . حيث أن شيوع الهندوسية والإسلام في هذه المنطقة جعل أتباعه ومعتنقيه يحظون بقوة تدعمهم في انطلاقهم نحو قمه الهرم الاجتماعي . وبالتالي فالهوية الدينية صارت مصدر قوة في الدول الديمقراطية

التي تنادي بالحرية ، فالعقيدة و الديمقراطية يمكن أن يؤدي كل منهما دورة فالعقيدة قوة روحانية والديمقراطية قوة سياسية [٢٠]

أما في استراليا فيزداد الأمر صعوبة لتحديد وتعريف الهوية الأسترالية ، في ظل العولمة وعملياتها وأثر التكنولوجيا علي الهوية القومية ، وذهب " جون أستن " إلي أن مسئولية تحديد الهوية تقع علي كل فرد من أفراد المجتمع الأسترالي وبخاصة القائمين علي العملية التعليمية في الألفية الجديدة وسوف تتأثر طبيعة المجتمع و الثقافة – بشكل كبير – بالأوضاع التعليمية الحالية و بالتالي ستساهم في تكوين مجتمع أكثر توافقا وتكافئا [٢١]

رابعاً : التراث الثقافى والحفاظ على الهوية :

الثقافة الشعبية فى مصر تراث له قيمته التاريخية والإجتماعية ... إنا لا زلنا نذكر حتى اليوم عديداً من التعبيرات الأدبية والمشاهد الفنية التى حفل بها تاريخنا الثقافى ، والتي كان لها تأثيرها العميق فى فكره وسلوكه . وتعتبر الأمثال الشعبية – فى حد ذاتها – تعبيراً أدبيا عن قيم سائدة ومفاهيم راسخة . ولو تعقبنا عددا من هذه الأمثال بالتأمل والدراسة ، لوجدنا أن بعضها ينطوى على معان عميقة وذكية . يتضمن كل منها إشارة إلى قيمة اجتماعية ندركها فى حياتنا ، ونشهد تكرار لها يدل على اعتقاد أصيل فيها .بقى أن ندرك أن التراث الثقافى هو حصيلة قيم سادت فى فترات مختلفة من تاريخنا ، وصياغة لمفاهيم اجتماعية ، ومشاعر مشتركة ، عرفها شعبنا ووعتها جماهيره ، ومن هنا فإن التراث الثقافى لا يمثل مصدراً للقيمة الإجتماعية فحسب ، ولكنه يمثل – فى الوقت ذاته – امتدادا لها وحافظاً عليها [٢٢] . وبالتالى تعميق للهوية والانتماء . والهوية قد تتعدد وتتنوع حسب الهدف منها وأساس التصنيف حسب العقيدة أو المكان أو الجنس .. الخ .

- **نمو أو تكوين الهوية : Identity Development**

عندما ينتمى المرء إلى عقيدة ما فإنه يطور في الواقع هوية إنسانية مميزة تمثل توجه بنائى سيكولوجى له أسسه ومنطلقاته الخاصة ، ويرى " James Marcia " أن هناك احتمال لأن تنتمى عملية تكوين الهوية لدى المراهق إلى أربع صيغ مختلفة :-

- الشخص ذو الهوية المائعة أو غير المحددة : Identity Diffused person والتي تميز الشخص الذى لم يمر بأزمة هوية Identity Crisis والذى يرفض بالتالى أى التزام بمجموعة قيم ومعتقدات معينة .

- الشخص ذو الهوية المنغلقة أو المانعة : Identity Foreclosed person وهو الشخص الذى فشل فى أن يخبر أية أزمة هوية ، ولكنه نجح فى انشاء تعهد أو التزام Commitments ، وهو ذلك الشخص الذى لا يتساءل مطلقاً عن هويته Who am I ? والذى يكتسب نسق قيمه الدينية عن طريق القهر من قبل الآباء .

- الشخص ذو الهوية المؤجلة : Aperson in Identity Moratorium وهو ذلك الشخص الذى يعانى من أزمة هوية ولكن لم يستطيع التوصل إلى تعهد أو التزام بقيم ومعتقدات معينة .

- الحالة المرغوبة والتى يمكن تسميتها بالهوية المحققة : Identity achieved وتوجد هذه الحالة حال نجاح المراهق فى حل أزمة الهوية المرتبطة بأزمات النمو النفسى بشكل عام ، ونجاحه كذلك فى صنع والإلتزام بهوية دينية خاصة به .

ومن المتفق عليه بين غالبية المتخصصين فى الميدان أن رجال الدين وقادة الشباب يجبرون المراهقين على تبنى الهوية المنغلقة أو الجامدة Identity Foreclosur عندما يخبرون المراهقين أن الإيمان أو العقيدة مطلقة الصدق والصحة وضرورة تقبلهم لكل القيم والمعتقدات الدينية دون تساؤل ، والمطلوب بطبيعة الحال أن

يساعد رجال الدين والقادة المراهقين على الإختبار والفحص الناقد للعقيدة من أجل الوصول إلى قبول طوعى يُفّعل صحيح المعتقد والقيم فى سلوك إيمانى يتسق مع الجوهر الحقيقى للدين (٢٣) .

تعد فنون الفولكلور التعبيرات الثقافية التقليدية التى تحافظ من خلالها الجماعة على أسلوبها فى الحياة وتنقلها للأجيال التى تليها . فهى – أى فنون الفولكلور – تعبر عن إحساس الجماعة بالجمال والهوية والقيم . وعادة ما يتم تعلم فنون الفولكلور بشكل غير رسمي عن طريق العمل أو المثل أو العادات الشفهية الموجودة بين العائلات والأصدقاء والجيران والعمال أكثر من تعلمها في إطار تربوي رسمي . ويميز الموروث الثقافي الحي وفنون التراث الشعبي أنها تربط الماضى بالحاضر . وبغض النظر عن الإحصاءات ، فإن فنون التراث الشعبي تتغير بتكيفها مع الظروف المستجدة فى حين تبقى على كفائتها التقليدية .

وتمارس الجماعة فولكلورها التقليدى عن طريق المشاركة فى الهوية على أساس مثل تلك العوامل كالسلالة والمنطقة والمهنة والعمر والعقيدة . وهى تشتمل على أنواع عدة من التعبيرات الثقافية التي تؤدى عمل التقاليد فى الموسيقى والرقص والدراما وسرد الحكايات التقليدية والفنون اللفظية الأخرى والمهرجانات والحرف التقليدية والفنون المرئية والعمارة والتحول فى البناءات البيئية والأشكال الأخرى للتراث الشعبى (٢٤) .

ديناميكيات الفولكلور :

إن الفولكلور أو حياة الجماعة (بما فى ذلك الفنون التقليدية ، والمعتقدات ، والأساليب التقليدية فى العمل والراحة والإحتفالات والطقوس) هى بمثابة أساليب ثقافية تحافظ عليها الجماعة وتمررها فيما بينها بأسلوب مشترك فى الحياة . ويمكن تعريف "

هوية الجماعة " تلك عن طريق العمر أو النوع أو السلالة أو المنطقة أو المهنة أو الحالة الإقتصادية والإجتماعية أو أى أسس أخرى من الترابط ويقول الباحث فى الفولكلور الأمريكى Ben Botkin أن كل جماعة ترتبط معاً باهتمامات عامة وأهداف مشتركة – سواء كانوا متعلمين أو غير متعلمين ، من الريف أو الحضر – نجدهم يحظون بإطار من التقاليد يمكننا أن نسميه بالفولكلور ، إلا أن كل ذلك يتم امتصاصه واستيعابه من خلال التكرار والتنوع فى نموذج يتسم بالإستمرارية ويحظى بالقيم للجماعة ككل .

ويتم تعلم كل تلك الأشكال التقليدية من المعرفة بشكل غير رسمى من خلال تبادل فردى وفى ظل إطار ضيق فى الجماعة وذلك عن طريق الأداء (القيام بالفعل) أو الإقتداء بالآخرين لأخذه كمثال . وفى كل الحالات ، نجد أن الفولكلور وحياة الجماعة يتم تعلمها واكتسابها لقيمتها فى ظل سياق الجماعة حيث أنها الخبرة المشتركة التى تشكل وتعطى معنى لهذا التبادل . (٢٥)

أي أنه لا بد من وجود عنصر مشترك يوجد في الفولكلور بشتي أشكاله (وإلا ما كان باستطاعتنا جمعة كمادة واحدة) وما من شك في أن باستطاعة الطالب تحديد العديد من صفاته وخصائصه المميزة ، لكننا هنا نود إبراز سمة أساسيه وهي أن كل أشكال الفولكلور تتشارك في كونها عملية ديناميكية مستقلة . والفولكلور يأتي مبكرا لكنة يستمر في حياتنا كلنا . و بالرغم من تداخل قوي التكنولوجيا و العلوم و التلفيزيون و العقيدة و التمدين والامية فإننا نميل لتفضيل علاقاتنا الشخصية الوثيقة كأساس لتعلم الحياة وتلقي الملاحظات الهامة و التعبيرات المؤثرة وحقيقة الأمر : فإن الفولكلور كلمة تتشابه كثيرا مع الثقافة ، حيث أنه يقدم كما مهولا من التعبير البشري الذي يمكن دراستة بمختلف الوسائل ولكم لا محدود من الأسباب فهو يتسم أساسا بأن مكنونة يبدو

أنه يظهر مباشرة من خلال التفاعلات الديناميكية بين البشر في أطر العمل المعتادة و التقليدية أكثر من ظهوره في خطوط اجتماعية مقننة وبناءات من التقنيات التعليمية أو التربية البيروقراطية أو حتى من خلال القنوات المستقرة نسبياً للتقاليد القديمة (٢٦)

الفولكلور وخلق الهويات :

يرتبط مفهوم الفولكلور بالهوية القومية بشكل جعل الباحثين والمنظرين يجعلونه اهتمامهم الرئيسى منذ أن بدأ المنظرون في القرن التاسع عشر في تحليل الثقافة الريفية وقد افترضت كتابات التراث الشعبي الأولي أن عناصر الفولكلور تعبر عن الهوية القومية وكان السؤال الدائر هو أنه بمجرد توثيق الفولكلور ، فلا بد من السعي وراء تعزيز نظرية القومية . فالفولكلور في ظل العديد من الشواهد ، يصبح مرادفا للهوية القومية والتي تقوم في الأساس علي نظم الهوية .

وعند تناول موضوع الهوية القومية في النقاش فلابد لنا أولا من السؤال عن نظم الهوية . فمن المعروف أن الهوية تتضمن التناقض والاختلاف . فقد يري البعض أنه لا هوية (فردية كانت أو إقليمية أو قومية) دون تناقض واختلاف بين الأشخاص و الجماعات . فالهوية ترتكز أساسا علي الفرد وكيفية تفهمنا للاختلافات المتواجدة بين الأفراد في نفس السياق . والهوية – علي المستوي الفردي و الجماعي – تقوم علي الخبرات اليومية المتتابعة . والاختلاف بين سلوكيات الأفراد عن بعضهم في الجماعة الواحدة . كما أنه لبناء الهوية القومية و الجماعية لا بد من المواجهة الواقعية للآخر .أما علي المستويات الأعلى – فالمستوي القومي أو الإقليمي – يكون السؤال الذي يفرض نفسه هو " ما الذي يشكل نظام الهوية ؟ " وأن نظم الهوية تتشكل في ظل إطار ثقافي مثار تساؤل ، وتتخذ أشكالا لتلك الثقافة وتدمجها بقيم رمزية معينه يتكون من خلالها المضمون الكلي للثقافة ويري Edward spicer أن نظم الهوية تتسم

بالمرونة الشديدة وأن بعض الملامح الحديثة قد تحل محل الأقدم منها دون حدوث خلل في نظام الهوية الجماعية للجماعة . فاستمرار عناصر معينة ليس ذو الأهمية المفرطة ، لكن عملية التكيف للتصورات الرمزية الجديدة هو الأكثر أهمية . وقد تناول spicer الهوية الثقافية لعدد من الجماعات الأوروبية و الأمريكية ووجد أنهم كانوا قادرين علي مقاومة الاستيعاب assimilation . عبر الوقت علي الرغم من تغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية خلال نظم الهوية المتشابهة في ديناميكياتها (٢٧) .

ونأخذ علي سبيل المثال حالة لبعض النساء البيزنطيات في أمريكا حيث تأسست شركة " Farvillage " أو القرية البعيدة عام ١٩٩٣ بواسطة مصمم أمريكي من لوس أنجلوس تهدف لتعزيز وحماية المهارات الفنية والحرفية للثقافات القديمة . كما أنها تهدف لدعم النساء البيزنطيات pesants حيث أنهن المنتجات الحقيقيات للمنتجات المتمخضة عن المشروع بيد أن الغرض الرئيسي من هذا المشروع هو إثبات إمكانية الاستمرارية الثقافية العضوية في العالم الحديث . وقد عمل مشروع القرية البعيدة علي دعم السياسات متعددة الثقافات للاستهلاك الذي صار قاسما رئيسيا للرأسمالية في الغرب الليبرالي الجديد وهي سياسات قد تشكلت بشكل مختلف عما يحدث في الدورة الطبيعية التي تتم وفقا لحاجات التراكم و التحديث المرن للنسبية الثقافية

وقد يفسر هذا التبدل للسياسات الثقافية من التوجه نحو الإنتاج إلي التوجه نحو الاستهلاك والنظر إليه علي أنه جزء من اختراق النظام العالمي لما يتم إنتاجه حيث يتم الاستعمار و الاستغلال عن طريق الرأسمالية متعددة الجنسيات للأنماط الباقية من الإنتاج التي كان لها دور فيما مضي . ويصبح رأس المال وفقا لتلك الرؤية يسير في

طريق البحث عن اختلاف ثقافي يتكيف فيه المستهلك مع أيدلوجيات متعددة الثقافات(٢٨) .

خامسا : الهوية بين الماضي و الحاضر :

يلعب التعليم والتنشئة الاجتماعية والتراث الثقافي دورا في اكساب ، وتعميق الهوية والانتماء حيث يذهب الكثيرون إلي أن اهتمام برامج التعليم بالتراث و بالتاريخ و بالثقافة المحلية اتجاه في الطريق الصحيح . حيث تساعد مكونات هذه المجالات علي أن يتعرف أفراد المجتمع علي خصائص ثقافتهم وحياتهم علي أمل أن يتشرب التلميذ قيما تقوي صلته ببلدة ، وتجعل منه مواطنا ملتزما ، ولاؤه الأول لمجتمعة ولثقافته ويلاحظ أن هذه الدعوة تنامت أكثر في عصر العولمة ، وكأن هذا الأسلوب هو السبيل ضد الغزو الثقافي وضد تلاش الشخصية الوطنية أو القومية وذوبانها في ثقافة عالمية إلا أن الاغراق في الإهتمام بالقديم ، والتمادي في تمجيد الماضى قد يقود إلي مخرجات يتشبث أعضاؤها بالماضي علي حساب الحاضر أو المستقبل ، خاصة في المجتمعات التي تعاني حاضرا ملئ بالا خفاقات ، وتاريخا طويلا يحتوي علي أمجاد كثيرة (٢٩)

ويعد النهج الذي تبنّاه " أريك فروم " في دراسته لما أطلق علية " الشخصية الاجتماعية " لكي يميزة عن " الشخصية الفردية " هو – بوجه عام وبغير الالتزام بكل مسلماته – أقرب الاتجاهات النظرية في دراسة الشخصية القومية ؛ وذلك لأنه ينطلق من تصور شامل للطبيعة الإنسانية في إطار السياق التاريخي الذي يؤثر عليها ، ويترك بصماته علي ملامحها وقسماتها الرئيسة .

وهذا التصور الشامل ينطلق من الإطار الاشتراكي العلمي الذي ينظر للشخصية نظرة جدلية في تفاعلها الدائم مع التكوين الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع محدد ، أو في تأثرها بنمط الإنتاج السائد في عدة مجتمعات متشابه .

وهذا يعني علي وجه التحديد أن نمط الإنتاج السائد في عصر ما أو منطقة حضارية محددة (كنمط الإنتاج الإقطاعي أو الرأسمالي الاشتراكي) من شأنه أن يشكل الشخصية الإنسانية وفق خطوط متميزة .

فالشخصية الإنسانية في ظل نمط الإنتاج الإقطاعي – فيما يراه بعض الباحثين ، قد تأثرت ببساطة نمط الحياة وبطئ إيقاعها في المجتمعات الإقطاعية مما أدي إلي أتسام طرق التفكير بالثبات ، وغلبة الجمود و التحجر علي العادات الاجتماعية و القيم الأخلاقية . يُضاف إلي ذلك تقديس شديد للماضي علي حساب الحاضر و المستقبل ، وشيوع التزمت وضيق الأفق في مجال الفكر ، والإيمان المفرط بالسلطة ، وشعور الفرد بالاستسلام والعجز عن تغيير أي وضع من الأوضاع التي يجدها سائدة في المجتمع .

غير أن هذا " النموذج المثالي " للشخصية الإنسانية في ظل الإقطاع ، أتيح له أن تتبدل قسماته وملامحه بصورة جوهرية ، نتيجة لانهيار النظام الإقطاعي وبزوغ النظام الرأسمالي ، بما يتضمنه من قوي إنتاج وعلاقات إنتاج جديدة فأصبح التغيير هو شعار العصر الرأسمالي وخصوصا في مراحله الأولي ، وساد الفرد نزوع نحو استطلاع آفاق العالم الطبيعي ، وأصبح الإنسان متفائلا معتدا بنفسه وقواه مؤمنا بأهمية العمل . ولعل أبرز السمات الجديدة التي اكتسبتها الشخصية الإنسانية في ظل النظام الرأسمالي هي الاعتراف بالسيادة المطلقة للعقل ، والتخلي عن غالبية النزعات اللاعقلية التي كانت تسود العصر السابق [٣٠] . وهذا أفضى إلي العولمة والدليل علي ذلك عندما

نتعامل مع الإنترنت ، هل سيستطيع شبابنا في المستقبل أن يختاروا الجيد من السيئ ، أم أن هذه المعرفة التي ستأتينا من الإنترنت مثلا ستكون بمنظار معين من منطلقات معينة ، نأخذها كما هي حاضرة ونستعملها فتؤثر في نظرتنا الثقافية و الحضارية عامة ؟ وهنا يكمن الخطر ، لأن في التعليم الجماعي مجالا للمناقشة بينما في التعلم الفردي يجب أن يناقش الفرد آلة في الانترنت . وكذلك فإن الإنترنت ستكون أداة لتسطيح المعرفة عندنا إذا لم ندرب أطفالنا علي الفكر النقدي وعلي التعامل مع المعرفة من جهة المساءلة و التساؤل والاختيار و التمييز . هنالك الإعلام الذي شوّه الحياة الثقافية و الفكر العربي الثقافي لأنه ركز علي الفكر السياسي وتسلمته الدولة ، وهذا ما يجب أن ننتبة له لأنه يجب أن يقابل إعلاما غنيا بالسيئ و بالجيد . وهناك المفاهيم التي تصدر إلينا والتي يجب أن نأخذها من منطلق مجتمعاتنا نحن وليس من منطلقات فلسفية أخري لمجتمعات أخرى ، أذكر منها قضية حقوق الإنسان التي هي نابعة من الفردية التي يتكلم عليها الدكتور الجابري ، وهي تعزز الفردية وتضعف المسؤولية الجماعية ، المسؤولية تجاه الأسرة ، تجاه الوطن وتجاة المجتمع [٣١]

فالأسرة هي أول وأهم المصانع الاجتماعية التي تنتج الوجدان الثقافي الوطني ، بواسطة شبكة القيم التي توزعها – من خلال التربية – علي سائر أفرادها وتلقنهم إياها بوصفها الآداب العامة الواجب احترامها ، و المقدسات التي يتعين التزام الإيمان بها وكما يتلقن الطفل – في هذه المؤسسة التكوينية من مؤسسات الإنتاج الاجتماعى لغته ، ومبادئ عقيدته ، والقوالب الأخلاقية العامة والعليا لسلوكه ، كذلك يتلقن بعضنا من المبادئ المؤسسة للشعور بالأنا الجمعي : أي هوية الجماعة الوطنية التي ينتمي إليها وقد تهتز في مراحل الشباب – أي في لحظة الانفصال عن مرجعية الأسرة – ثقة الفرد الاجتماعي في سلطة الأب وشرعيتها ؛ أو قد يتعرض اعتقادة الديني إلي أزمة

شك ؛ أو قد يختلط علية شعور الحنق علي النظام السياسي والاجتماعي بالحنق علي وطن مجحف (فتستبين له الهجرة إلي الخارج – مثلا – حلا سحريا) ... غير أن هذه السلطة جميعها تظل تتمتع بالاستقرار و الرسوخ في وجدانه ووعية طيلة فترات التربية التي يتلقها داخل الأسرة ، بل حتى حينما يجنح إلي التمرد عليها في طور الشباب ، لا يقطع معها قطيعة كامله ، إذا تظل أثارها في سلوكة فاعلة علي هذا النحو أو ذاك ، وبهذا القدر أو ذلك (٣٢)

وتمثل المدرسة مؤسسة الإنتاج الاجتماعي الثانية التي تستكمل عمل الأولى وتنتقل بأهدافها إلي مدي أبعد من حيث البرمجة والتوجيه . ربما كانت المدرسة أسرة ثانية للناشئة ، تمارس الوظائف التربوية عينها ؛ غير أن موطن القوة فيها أنها تفعل ذلك علي نحو نوعي متميز ففضلا عن قدرتها علي صقل تكوين الفرد الاجتماعي ، وتنمية ملكة التحصيل والادراك لدية بدرجة لا يستطيعها الفعل التربوي الأسري ، تتفرد بكونها تنتقل بوعية من حدود " الجماعة الطبيعية " (أي الأسرة) إلي رحاب الجماعة الوطنية وعند هذه العتبة بالذات تؤدي المدرسة وظيفة إنتاج ثقافة وطنية أو قل أساسيات تلك الثقافة ، أن من خلال توحيد الإدراك ومركزته علي برنامج تكوين عام علي صعيد الوطن برمته ، أو من خلال بث وتكريس جملة من المبادئ التي تؤسس لقيام وعي بالأنا الجمعي (الوطني) يبدو اليوم كما لو أن العياء دب في أداء هاتين المؤسستين ، ونال من وظائفهما التربوية و التكوينية ، ومن قدرتهما علي الاستمرار في ممارسة أدوارهما التقليدية الفعالة في إنتاج وإعادة إنتاج منظومات القيم الاجتماعية ، ورصيد الوعي المدني ، اللذين يؤسسان البُني التحتية للثقافة الوطنية و للسيادة الثقافية ! وفي زعمنا أن هذا الخلل – الطارئ علي العمل الوظيفي " الطبيعي " للأسرة و للمدرسة الوطنية – إنما كان ثمرة مُرة لحقيقتين تقوم علي وجودهما ورسوخهما أوفر

الدلائل ، هما إخفاق النظام التعليمي ، و تفكك بنية الأسرة في امتداد الانهيار الكامل – و الشامل – لنظام القيم [٣٣]

ولأن الهدف من العولمة هو الترويج لمشاريع تجارية وأخري سياسية تختفي وراء التقدم الاعلامي والاتصالي كأسطورة تقنية ثقافية جديدة [٣٤] ومن هنا قد يصعب تفسير الثورات العلمية المتلاحقة من دون تغيير نظرتنا إلي تاريخ العلم فلا نراه وعاء لأحداث متتابعة زمنيا ومن ثم تراكميا [٣٥] ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار أن الهوية الثقافية للأمة العربية إنما هي حالة ذاتية خاصة ترتبط بمقومات وجودها وأن اللغة العربية هي العامل الأساسي المحرك لهذه الذاتية وشرط حصانتها وديمومتيها أيضا فالذاكرة الثقافية للأمة إنما هي حصيلة تجارب الإنسان العربي ومشاركتة الحضارية عبر التاريخ كما ذهب تقرير لجنة السياسات الثقافية العربية [٣٦] .

وفي ظل الخطاب السائد عربيا في استخدام لفظة العولمة و التنافسية و التوليد المستمر لأفكار اقتحامية جديدة ، وفرصة الحفاظ علي الهوية انطلاقا من قدر مناسب من الثقة بالنفس . ومن هنا دعا أ . د . محمد محمود الإمام وآخرون من تيار المفكرين القوميين العرب إلي ضرورة تمييز ما هو انفتاح للعالم وتراجع لأدوار الدولة القطرية الحديثة (و التي تبلورت مع التصنيع و الثورة الصناعية ، ثم انتقلت بالمحاكاة إلي العالم الثالث) وبين أسباب تطور معرفتنا العلمية بالطبيعة و المادة و الكون و الحياة وانعكاسات ذلك علي تثوير أساليب الانتاج ووسائط الاتصال البشري وزيادة حصة المعلومات و الخدمات في الناتج و التبادل الاقتصاديين [٣٧] .

إلا أن العولمة تعد تعبيرا عن آراء ومواقف ومصالح شعب بعينة و ليس جميع الشعوب وخصوصا أن شعوب العالم ليست متكافئة تقنيا ،قاد هذا إلي تغيير قواعد اللعبة بالنسبة لانتقال السمات الثقافية ، ومالت الكفة لصالح عدد صغير من الشعوب

التي تبعث إلي الآخريين بما تريد ، و الذي ليس دائما هو الشيء الذي يرغب مواطنوا الشعوب المتلقية معرفتة من خبرة وتقنية وخدمات وقيم وعادات ومن هنا تكبر قائمة السلبيات (٣٨) .

ويمثل التراث كونه رأسمالا رمزيا وذاكرة جمعية للأمة ، وأنه لا قيمة لفهم التراث واستيعاب ثرائة الفكري وعمقة الحضاري بمعزل عن أسئلة الحاضر ورهاناته ، لأن الخلاف ليس من أجل التراث بل الخلاف علي التراث من أجل الحاضر ، فالمنتصر في معركة تأويل التراث واحتكار تمثيلة هو الأقدر علي امتلاك الحاضر لهذا السبب الوجية يعتقد " عبد إلاله بلقزيز " أن القضية في جوهرها هي " معركة تأويل الحاضر وامتلاكه واحتكار صوغه " وذلك بهدف السيطرة علية بالاستعانة بما يمكن أن يقدمة التراث من معطيات وأفكار تعبوية أو بما تقدم به من وظائف رمزية واجتماعية(٣٩) .

تحافظ في مجملها علي الهوية القومية . ولقد قدم عالم الاجتماعي الفرنسي بيير بورديو p Bourdieu عام ١٩٩٩ أمام المجلس العالمي لمتحف التلفزيون و الراديو عناصر المنطق الجوهري للصناعة الثقافية الجديدة التي تعتمد الربح السريع ، انسجاما مع معايير العولمة التي ليست عولمة لثقافة كونية كما تحقق في فترات سابقة ، بل هي عولمة تجارية تستهدف أوسع جمهور ممكن لاستهلاك منتجات " الكيتش " " و الجينز " و " و الكوكاكولا " وجاءت دعوتة بضرورة إحياء عولمة ثقافية مقاومة للعولمة التجارية الراهنة (٤٠) .

وإذا كانت الثقافة هي محصلة التفاعل بين علاقات ثلاث : مع الله (العقيدة و الدين) ومع الآخر (المجتمع و الطبيعة) ، ومع الذات (الرغبات والغرائز والحاجات) وهذا يعني أنها الجواب الذي تقدمة الجماعات البشرية لمشكلة وجودها ،

والحلول التي يُوجدها الإنسان للمشاكل المطروحة علية من قبل محيطه والثقافة بهذا المعني هي التجربة التي تلخص الجوانب الإبداعية والاجتماعية و السلوكية ، والعقيدية التي تسمح بالتمييز بين مجتمع وآخر وبين ثقافة وأخري . فهل يمكن للعولمة وفقا لهذا التعريف للثقافة أن تعمل علي توحيد أو صهر ثقافات الشعوب المختلفة و المتفاوته في ثقافة كونية واحدة ؟ وما هي أصلا عناصر هذه الثقافة الكونية ؟

إن مذهب اقتصاد السوق أصبح أكثر قبولا ورواجا وحقق اختراقات واسعة في العالم ، وأنشأ له مؤسسات وهيئات دولية بعد هزيمة نقيضه في الاشتراكية والاقتصاد الموجة ، فهل حققت العولمة اختراقات موازية ومؤسسات دولية موازية علي المستوي الثقافي حتى مع سيطرتها علي التقنيات الحديثة في الاتصال . لا يبدو أيضا أن العولمة حققت مثل ذلك . ففي كل مرة كانت " العولمة الثقافية " تقترب من اختراق مكونات الثقافة الأساسية عند أي شعب من شعوب العالم لم تكن الاستجابة اندماجا أو انسحابا ، بل مزيدا من التشبث بالهوية كما جري في الجمهوريات الإسلامية وغير الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفياتي السابق ، بل وفي أوربا نفسها . ولنأخذ مرة أخري أمثلة علي ذلك من محيطنا الأقرب ، العربي والإسلامي .

- فالتيار الإسلامي باتجاهاته كافة الذي يعتبر اليوم أكثر التيارات تشددا في شأن الهوية و الثقافة بعمقها الديني ، لم تجذبه حتى الآن " عولمة الثقافة " لا بل استخدم تقنيات العولمة ووسائلها الحديثة وشبكات الإنترنت للدعاية لنفسه وترويج خطابه السياسى وحتى التنسيق فيما بين أجنحته . فصارت تقنيات الحداثة والعولمة في خدمة ثقافة هذا التيار وهويته .

- كما ارتفعت أصوات التمسك بالهوية القومية في مواجهة المشاريع الشرق أوسطية لعملية التسوية التي كانت تهدف إلي استبدال هوية المنطقة العربية – الإسلامية بأخرى جغرافية تضم بلدان الشرق الأوسط بما فيها إسرائيل .

- وأثارت علي صعيد مواز مؤتمرات الأمم المتحدة في القاهرة وبكين حول المرأة و السكان حفيظة وانتقاد دول عربية وإسلامية في شأن قضايا المرأة والأسرة والجنس والزواج . وكانت تلك الاعتراضات بمحتواها الثقافي الديني محط لقاء وتنسيق بين الفاتيكان وبين دول عربية وإسلامية فرقتها المصالح و السياسات (٤١)

وإن من الكتاب المصريين من يضيق المصدر الثقافي الذي ينتمي إليه ويغفل ، أو يقلل من قدر غيرة من المصادر . فهناك من يتبني فرعونية المصدر ، وهناك من يتبني عروبته ، وهناك من يتبنى إسلاميته ...إلخ وهناك من تتسع المصادر الثقافية حتى تشمل سبعة مصادر كما أشار إلي ذلك " سيدعويس " وهي :- المصدر المصري القديم " الفرعوني " الفارس ، اليونانى والرومانى ، الديانة المسيحية ، الديانة الاسلامية العربية ، الثقافة السلوكية العثمانية ، الثقافة الغربية . ولا تعارض بينها جميعا في رأي صاحبها (٤٢)

ولقد أشار " محمد عابد الجابري " إلي عشر أطروحات ترسم إطار عام بين العولمة و الهوية الثقافية كما يمكن أن تُرصد اليوم في الوطن العربى الذي نذكر ثلاثة منهم علي سبيل المثال وهى :-

الأطروحة الأولى : ليست هناك ثقافة عالمية واحدة ، بل ثقافات ...

ليست هناك ثقافة عالمية واحدة ، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام ، وإنما وجدت ، وتوجد وستوجد ، ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية ، أو بتدخل إداري من أهلها علي الحفاظ علي كيانها ومقوماتها الخاصة . من

هذه الثقافات ما يميل إلي الانغلاق والانكماش ، ومنها ما يسعي إلي الانتشار و التوسع ، ومنها ما ينعزل حينا وينتشر حينا آخر .

الأطروحة الثانية : الهوية الثقافية مستويات ثلاثة : فردية وجمعوية ووطنية قومية ، و العلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع " الآخر " الذي تواجهه تتحرك الهوية الثقافية علي ثلاث دوائر متداخلة ذات مركز واحد :

- فالفرد داخل الجماعة الواحدة ، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعية مدنية (حزبا أو نقابة ... إلخ) ، هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة ، عبارة عن " أنا " لها " أخر " داخل الجماعة نفسها : " أنا " تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع هذا النوع من " الآخر "
- و الجماعات ، داخل الأمة ، هي كالأفراد داخل الجماعة ، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة ، ولكل منها " أنا " خاصة بها و" آخر " من خلالة وعبره تتعرف علي نفسها بوصفها ليست إياه .
- و الشيء نفسه يقال بالنسبة إلي الأمة الواحدة إزاء الأمم الأخري . غير انها أكثر تجريدا ، وأوسع نطاقا ، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف .

هناك إذن ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية ، لشعب من الشعوب : الهوية الفردية ، والهوية الجمعوية ، و الهوية الوطنية (أو القومية) و العلاقة بين هذه المستويات ليست ثابتة ، بل هى فى مد وجزر دائمين ، يتغير مدي كل منهما اتساعاً وضيقاً ، بحسب الظروف وأنواع الصراع واللاصراع ، والتضامن واللاتضامن ، التي تحركها المصالح : المصالح الفردية والمصالح الجمعوية والمصالح الوطنية والقومية[٤٣]

الأطروحة الثالثة : لا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعيتها : جماع الوطن والأمة والدولة .

لا تكتمل الهوية الثقافية ، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية ، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة علي نشدان العالمية ، علي الأخذ والعطاء ، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر : الوطن والأمة والدولة .

الوطن : بوصفه " الأرض والأموات " ، أو الجغرافيا و التاريخ ، وقد أصبحا كيانا روحيا ، واحد ، يعمر قلب كل مواطن : الجغرافيا وقد أصبحت معطي تاريخيا و التاريخ وقد صار موقعا جغرافيا .

الأمة : بوصفها النسب الروحى الذي تنسجه الثقافة المشتركة : وقوامها ذاكرة تاريخية وطموحات تعبر عنها الإدارة الجماعية التي يصنعها حب الوطن ، أعني الوفاء " الأرض و الأموات " للتاريخ الذي ينجب ، والأرض التي تستقبل وتحتضن

الدولة : بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن و الأمة ، و الجهاز الساهر علي سلامتهما ووحدتهما وحماية مصالحهما ، وتمثيلهما إزاء الدول الأخرى ، في زمن السلم كما في زمن الحرب . ولا بد من التمييز بين " الدولة " ككيان مشخص ومجرد فى الوقت نفسه ، كيان يجسد وحدة والوطن والأمة ، من جهة ، والحكومة أو النظام السياسي الذي يمارس السلطة ويتحدث باسمها من جهة أخري . وواضح أننا نقصد هنا المعني الأول .

وإذن فكل مس بالوطن أو بالأمة أو بالدولة هو مس بالهوية الثقافية والعكس صحيح أيضا : كل مس بالهوية الثقافية هو مس في الوقت نفسه بالوطن والأمة وتجسيدهما التاريخي : الدولة [٤٤]

وهذا ما اقترب منه أبرز علماء الاجتماع المعاصرين " مانول كاستي " إذ ركز المجلد الثاني " قوة الهوية " من (ثلاثية كاستى) علي تفحص الحركات الاجتماعية

في عصرنا والتحديات التي تواجه نظمنا السياسية التي تنهض علي الدولة – القومية .

ويميز كاستي بين ثلاثة أشكال للهويات الجمعية هي :–

١. الهوية المشروعة التي تشير إلي الحركات الجمعية التي لعبت دورا في بناء دولة الرفاهية الحديثة
٢. الهوية المقاومة التي يصفها بأنها استبعاد المستبعدين (بكسر العين) من قبل المستبعدين (بفتح العين) ويعد هذا هو الشكل الذي تولد نتيجة لمقاومة التدفقات العالمية للنظام الاقتصادي الجديد ، هو الشكل السائد حاليا للحركات الاجتماعية
٣. الهوية المقترحة التي تتمتع بالقدرة المحتملة علي إعادة بناء عناصر من المجتمع المدني الجديد [٤٥]

خاتمة :

يمكن أن نستنتج مما سبق أن هناك تغيرات يلمسها جميع أفراد المجتمع وأن المعتقدات القديمة لم تعد قادرة علي الصمود إلا بمقدار صلاحيتها حيث قادت التغيرات الاجتماعية و السياسية والاقتصادية المحلية و العالمية إلي انهيار عضوية الجماعة التي كانت ثابتة سلفا ، وتنبثق الهوية في عالمنا المعاصر من تعددية المصادر بل وتزايدها يوما بعد يوم من : المكان ، الجنس ، اللغة ، الدين ، العرقية ، الطبقة الاجتماعية ، الثقافة المشتركة ...إلخ وعدم تقبل ذلك يفضى إلي مشكلات كثيرة – وهذا ما حدث لبعض أعضاء مجلس الشعب المصري – وما أشار إليه " أمين معلوف " في عملة الرائع " الهويات القاتلة " [٤٦] بأن الهوية لا تتجزأ ولا تنقسم أنصافا ولا أثلاثا ولا مساحات منفصلة . وليس لدي عدة هويات ، أملك هوية واحدة مكونة من العناصر التي تؤلفها وفق " تركيب " خاص يختلف من شخص لآخر . وسلط الضوء علي من يدعي صفة " الهويات المتميزة " ومخاطر تحول الهوية الموروثة إلي " هوية قاتلة " أي

أداة للتقاتل . وربما أن زمن " الهويات القاتلة " في منطقة الشرق الأوسط مرشح للاستمرار طويلا مادامت الحركة الصهيونية تصر علي تنفيذ مشروعها الإستيطاني بالقوة المسلحة ، وما دامت الولايات المتحدة تعمل علي اعادة الاستعمار المباشر " احتلال العراق " إلي هذه المنطقة للسيطرة علي شعوبها ، واستنزاف مواردها الطبيعية ، وتسهيل قيام إسرائيل ! (لا قدر الله)

لذا فإنه يتوجب علينا الاهتمام بعدد من القضايا منها :-

- إن اكتساب المهارات الجديدة أمر ضروريا وحيويا في ظل التعامل مع التحولات التي أحدثتها العولمة في الاتجاهات الاجتماعية ونمط الحياة و الهوية
- إن الهوية الثقافية يبنيها أفراد المجتمع بعملهم سويا وتراثهم وخبراتهم والأحداث التي خبروها من خلال تاريخ مشترك .
- إن الهوية تمنحنا مكانا في العالم وتعرض لنا الرابط بيننا وبين المجتمع الذي نحيا فيه وبه فالهوية تعطينا فكرة عمن نكون وكيف نرتبط بالآخرين و بالعالم .
- إن الهوية الثقافية كيان يصير ، يتطور ، وليست معطي جاهزا ونهائيا كما تصير وتتطور ، إما في اتجاه الانكماش ، وإما في اتجاه الانتشار ، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم ، انتصاراتهم و تطلعاتهم ، وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما " حسب تعبير الجابري "

المراجــع

١- رشدي أحمد طعيمة ، الثقافة العربية الاسلامية بين التأليف و التدريس ، دار الفكر العربي ، ط ، القاهرة ، ١٩٩٨، ص٣٥

٢- المرجع السابق ، ص ٣٦

3- critin, wong and Duff “ the Meaning of American National Identity patterns of Ethnic conflict and consensus٢٠٠٤ ، “

٤- رشدي أحمد طعيمة ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

5- Marilynn B. Brewer, Ingroup Identification and Intergroup conflict , 2004

٦- الطيب تبزيني ، الواقع العربي وتحديات ، قرن جديد ، مؤسسة عبد الحميد شومان ،عمان ، الأردن ، ١٩٩٩ ، ص ٣٨.

٧- سناء مبروك ، الهوية والانتماء الاجتماعي في شمال سيناء ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٢١٨.

8- Kathryn Woodward, Identity and Difference, SAGE, London, 1997, Introduction, P .1-5

٩- لسيد يسن ، في مفهوم العولمة ، العرب و العولمة ،ندوة في : أسامة أمين الخولي (تحرير) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ديسمبر ١٩٩٨، ص ٢٥

10- united Nation ،Globalization and labour Markets is the Escwa Region ،Newyork ،٢٠٠١ ،p.2

١١- برهان غليون ، سمير أمين ، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٠، ص ص ١٥-٢٠

١٢- السيد يسن ، في مفهوم العولمة، مرجع سابق ، ص ص ٢٣-٢٩

13- lisa Tsaliki ،the Global civil society :some theoretical considerations, 2002,

14- course- workshop: " Latin@s in the Era of Globalization: Migration, culture and Identity " (April – June, 2002)

15- UNESCO Education, Higher Education in a Globalized society, 2003, P.4.

16- Nils Zurawski, culture, Identity and the Internet ، ١٩٩٨،pp.1-2

17- Education and Globalization ،the Ilep Newsletter ، isavailable :http // :www .Education .Unesco.org educprog / llep / news // st. htm, 1998.pp.2-6

18- faculty of Arts , Education and social sciences , people, Identity and place, 2004

19- Asghar Ali Engineer, Religion, Identity and Democracy, November, 2004, pp. 1-3, www . Countercurrents. Org.

20- Ibid, p.3

21- jon Austin, Identity and culture in Education, 2002, p.3

٢٢- مصطفي الفقي ، حوار الأجيال ، دار الشروق ، ط ، بيروت و القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٠٦٣

23- youth and Discipleship in the commitment level model ، ١٩٩٩http: //www. Youth. Co.za/model / ages.htm ،

24- New York staet, Council on the Arts Application Guidelines, 1994, p.51, last update, 2004.

- راجع حول الفولكلور العربي ، محمد الجوهري (إشراف) ، الفولكلور الغربي : بحوث ودراسات ، المجلد الأول ، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠ ، ص ص ٢٠٨-٢٣٢

25- Ellen Mchale " fundamentals of folkore " in John suter, ed ., working with folk Materials in New york state , (I thaca, Ny : New york Folklore sociely , 1999) , p.2.

26- Barre toelken, the Dynamics of folklore ،Boston :Houghton Mifflin, 1979 .

27- Gerald L. pocius, Foklore and the creation of National identities: Anorth american perspectivel, 2004 pp . 1-3

- راجع محمد احمد غنيم (إشراف) ، المؤتمر الثالث للثقافة الشعبية العربية ، كلية الاداب ، جامعة المنصور ، ابريل ، ٢٠٠٢، ص ص ٢٣٤-٢٥٣

28- Tim oakes, Globalization, transnational capital, and the cultural politics of modernty in china, 1999. Pp 1-3

٢٩- مصطفي عمر التير ، العولمة و امكانية النهوض بالتنمية البشرية ، في اجتماع الخبراء " العولمة و التعليم و التنمية البشرية ، جامعة الدول العربية ، فبراير ، ٢٠٠١ ، ص ص ٤٥-٤٦

٣٠- السيد يسن ، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، ط ، دار التنوير، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٦٠

٣١- ليلي شرف ، مناقشات ، ندوة : العرب و العولمة ، مرجع سابق ، ص ٣٥٨

٣٢- عبد الاله بلقزيز ، العولمة و الهوية الثقافية : عولمة الثقافةأم ثقافة العولمة ندوة : العرب و العولمة ، مرجع سابق ،ص ٣١٢

٣٣- المرجع السابق ، ص ص ٣١٢-٣١٣

٣٤- هربرت . أ . شيلر ، المتلاعبون بالعقول ، ترجمة عبد السلام رضوان ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٤٣ الكويت مارس ١٩٩٩ ، ص ص ٢٠-٣٥

٣٥- توماس كون ، بنية الثورات العلمية ، ترجمة : شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٦٨ ، الكويت ، ١٩٩٢

٣٦- صالح أبو اصبع ، تحديات الاعلام العربي ، دار الشرق ، عمان ، ١٩٩٩ ، ص٤٦

٣٧- علي نصار ، التعليم ومتطلبات التنافس في عالم يزداد انفتاحا ، في اجتماع الخبراء ... ، مرجع سابق ، ص ١٨

٣٨- مصطفي عمر التير ، مرجع سابق ، ص٤٠

٣٩- كريم أبو حلاوة ، الفكر النقدي العربي وضرورة تصويب الأسئلة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ٣٢، يوليو – سبتمبر ، الكويت ، ٢٠٠٣، ص ٢٦١

٤٠- محمد شكري سلام ، ثورة الاتصال والاعلام : من الأيديولوجيا إلي الميديولوجيا ، مجلة عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ٨٤

٤١- طلال عتريس ، تعقيب ، ندوة العرب والعولمة ، مرجع سابق ، ص ص ٤٦-٤٧

٤٢- رشدي أحمد طعيمة ، مرجع سابق ، ص ٢٩

٤٣- محمد عابر الجابري ، العولمة و الهوية الثقافية : عشر أطروحات ، في ندوة العرب و العولمة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٨-٢٩٩

٤٤- المرجع السابق ، ص ٢٩٩

٤٥- مانول كاستي ، عالم جديد يتخلق " حول عصر المعلومات " عرض : محمد محي الدين ، مجلة عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ص ٢٧٥- ٢٨٠

٤٦- مسعود ضاهر ، الذات الشخصية و الذات اللبنانية في كتاب أمين معلوف " الهوية القاتله " في أوراق المؤتمر العلمي الثامن " الحوار مع الذات"، تحرير صالح أبو أصبع ، منشورات جامعة فيلادلفيا ، عمان ، ٢٠٠٤ ص ص ٥٢٧- ٥٤٧

جامعة بغداد

كلية الآداب

قسم علم الاجتماع

الدراسة الثانية

الهوية الثقافية للشباب في عالم متغير

دراسة اجتماعية

د. مهدي محمد القصاص

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية الآداب – جامعة المنصورة – مصر

فكرة البحث وهدفه:

هناك العديد من التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي يلمسها جميع أفراد المجتمع حيث نجد أن المعتقدات القديمة لم تعد قادرة علي الصمود إلا بمقدار صلاحيتها فهذه التغيرات على المستوى المحلي و العالمي أدت إلي انهيار عضوية الفرد في المجتمع التي كانت ثابتة سلفا ، وانعكست هذه التغيرات على كل مظاهر الحياه وبخاصة الهوية والتي تنبثق في عالمنا المعاصر من تعددية المصادر بل وتزايدها يوما بعد يوم من : المكان ، الجنس ، اللغة ، الدين ، العرقية، الطبقة الاجتماعية ، الثقافة المشتركة ...إلخ وإذا رفضنا ذلك يفضى بنا إلي مشكلات كثيرة وهذا ما أشار إليه " أمين معلوف " في عملة الرائع " الهويات القاتلة " [١] بأن الهوية لا تتجزأ ولا تنقسم أنصافا ولا أثلاثا ولا مساحات منفصلة . وليس لدي الانسان عدة هويات ، بل يملك هوية واحدة مكونة من العناصر التي تؤلفها وفق تركيب خاص يختلف من شخص لآخر. وسلط الضوء علي من يدعي صفة " الهويات المتميزة " ومخاطر تحول الهوية الموروثة إلي " هوية قاتلة " أي أداة للتقاتل. وربما أن زمن " الهويات القاتلة " في منطقة الشرق الأوسط مرشح للاستمرار طويلا مادامت الحركة الصهيونية تصر علي تنفيذ مشروعها الإستيطاني بالقوة المسلحة ، وما دامت الولايات المتحدة تعمل علي اعادة الاستعمار بأشكال جديدة للسيطرة علي شعوب المنطقة ، واستنزاف مواردها الطبيعية.

وتنطلق فكرة البحث من أن هناك العديد من التيارات التي تربط الشباب العربي بدينه ووطنه وعروبته حيث يلتقي المفكرون علي أن من أبرز سمات الفكر العربي المعاصر التنوع إلي الدرجة التي تصل به ، في أحيان كثيرة إلي صراع . حيث تتنازعة تيارات فكرية شتي سواء منها ما كان معلنا أو ما كان خفيا ، وسواء منها ما أعطي

حق الممارسة أو لم يعط . فهناك التيار الوطني الذي يشد الإنسان العربي دوما إلي تراثه القديم ، وكذلك التيار القومي الذي يربطه بالمنطقة العربية التي يتوفر بين دولها من مقومات التشابة أكثر ما يكمن فيها من عوامل الاختلاف . وأخيرا هناك التيار الديني الذي يربط بين سكان الوطن العربي علي أساس من العقيدة الإسلامية .

والحديث عن أنماط التيارات الفكرية هو حديث عن أشكال الانتماء أما الحديث عن أنواع الانتماء فهو حديث عن الهوية أو الذاتية الثقافية وخاصة في ظل تحديات العولمة وفرصها ودور الإعلام الإلكتروني في ذلك.

ويتمثل هدف البحث في التعرف على الهوية الثقافية للشباب العربي في ظل العولمة ودور الاعلامي الالكتروني في هذا التغيير.

ولتحقيق هذا الهدف نطرح التساؤل الآتي:

ما تأثير التغيير السريع والمتلاحق الحادث على المستوى العالمي على هوية الشباب العربي؟

التوجه النظري للبحث:

يعتمد البحث على نظرية المجال العام في إطارها النظري التفسيري، حيث يُعرف المجال العام بأنه مساحة عامة للنقاش بين الدولة والمجتمع تتيح فرص النقاش لأفراد مختلفين، ولكن تجمعهم اهتمامات مشتركة، وهو شبكة اتصالية من الشبكات القائمة في المجتمعات المدنية ترتبط ارتباطاً عميقاً بالحياة العامة أو الخبرات الحياتية للأفراد. ومن خلال هذا المجال يتم تبادل الآراء والوصول إلى المعلومات. وفي هذا المجال يتم غربلة هذه المعلومات والآراء وتنقيتها حتى تصبح رأياً عاماً. والاتصال الذي يتم في المجال العام تتراجع فيه مظاهر الإكراه السياسي، كما أن الحوار في هذا المجال يمكن أن يؤسس لخطاب ديمقراطي، ويؤكد "هابرماس"

الدور الكبير لوسائل الإعلام في المجال العام، ويفرّق في هذا الإطار بين الصحافة والتطورات الحالية لتكنولوجيا الاتصال التي تتمثل في الإنترنت. حيث يعمل الإعلام الجديد المتمثل في التطبيقات الإعلامية للتكنولوجيا الجديدة على إعادة إنتاج مفهوم المجال العام المفتوح، الذي يتأسس بتوسيع الفرص أمام الجمهور للوصول إلى المعلومات والحصول عليها، وعلى الفرص المتاحة في إيداع المعلومات وإطلاع الآخرين عليها، والمشاركة في إنتاجها، وإيداع الآراء والمواقف وتشكيل الاتجاهات نحوها. وبالتالي إدارة نقاشات عامة موسعة ونوعية حولها(٢).

ومن مفاهيم المجال العام ما يتعلق بظهور الإذاعة في بداية القرن العشرين، ويعتمد على **استراتيجية** تثقيفية، تصور الجمهور، شيئاً يمكن وضعه في قالب وترويضه. وينظر إلى وظيفة الإعلام على أنها تزويد الجمهور بما يحتاج إليه، وأنها هي إعادة تحديد احتياجاته لكي يرغب فيما هو الأفضل له حتمياً. ولكي تتم مخاطبته كجمهور في مثل هذا السياق يجب وضعه في حالة من الوصاية، في حين تقدم له الخدمات بصورة واضحة (٣).

وفيما يلي نعرض لمحاور البحث وتشتمل على: تعريف الهوية الثقافية ومحدداتها، الهوية بين الوحدة والتنوع في ظل العولمة، ويأتي ثالثا دور التحولات المجتمعية وأثرها على ثقافة الشباب، وأخيرا التنشئة الاجتماعية والهوية الثقافية للشباب.

أولا: تعريف الهوية الثقافية ومحدداتها

يوجد العديد من التعريفات والمعاني للهوية الثقافية تختلف باختلاف اساس التصنيف الذي تنطلق منه، فعلى سبيل المثال: تعرف الهُوية بأنها عبارة عن تأكيد للتماثل داخل الجماعة والاختلاف خارجها ويحظي الأفراد بهويات مختلفة ومتعددة ، بعضها اختياري (مثل العقيدة) وبعضها الأخر مفروض عليهم (مثل السلالة أو

الجنس) وليس وجود الهوية الذاتية وحده هو العامل المهم بل من المهم أيضا رأي المجتمع بها (قبولها أو رفضها) وأهم ما يميز محتوي هوية الجماعة أنها بناء اجتماعي ويظهر ذلك في الشعور بالانتماء لجماعة والإحساس الإيجابي نحوها (مثل الهوية القومية) والتي تتضمن في شكلها الطبيعي (العضوية في الأمة)فنجد إ مشاعر الاقتراب والفخر بهذه العضوية لكونه فرداً من الأمة وقد يتضمن ذلك الشعور بالفوقية والأفضلية أو الانتماء الأعمى ويقصد به الإخلاص الكامل من جانب الفرد لوطنه وأمته ، ويتضمن هذا البناء الوطني المكسب والخسارة وعليه فإن البعد المعياري يتألف من القيم والأفكار الرئيسية التي تميز الوطن بوضوح عن غيره مثل التحرر والذاتية وتعدد الثقافات . فعلى سبيل المثال فالهوية الوطنية الأمريكية هوية مدنية وليست عرقية أي أنها تقوم علي العادات والتقاليد المألوفة(٤).

ولقد قُدم تعريف الذاتية الثقافية في دليل عمل العقد العالمى للتنمية الثقافية ١٩٨٨/١٩٩٧ والذي أصدرته اليونسكو ، وهو أن : " الذاتية الثقافية تعني أولا وقبل كل شيء تعريفنا التلقائي بأننا أفراد ننتمي إلي جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية بما لها من قيم تميزها (أخلاقية ، جمالية ...إلخ) ويتضمن ذلك أيضا الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ هذه الجماعة الوطنية أو الإقليمية وتقاليدها ، وعادتها وأساليب حياتها وإحساسا بالخضوع و المشاركة في أو تشكيل قدر مشترك ، وتعني أيضاً: الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية حيث نري انطباعاتنا الخاصة بصفة مستمرة ، مما يمكننا من بناء شخصياتنا من خلال التعليم و التعبير عنها في العمل الذي يؤثر بدوره في العالم الذي نحيا فيه . وعلي الرغم من أن الذاتية الثقافية لا تتأكد بالضرورة علي هذا المنوال ، وعلي الرغم من أن أشكالها وتكويناتها قد تكون غير واضحة ، إلا أنها تعد بالنسبة لكل منا كأفراد نوعا من المعادلة السياسية التي تقرر ،

بطريقة إيجابية أو سلبية ، الطريقة التى ننتسب بها إلي جماعتنا وإلي العالم بصفة عامة(٥).

كما تعرف **الهوية** الاجتماعية social Identity من قبل tajfel علي أنها ذلك الجانب من المفهوم الذاتي للفرد (مفهوم الفرد الذاتي) الذي ينبعث من واقع معرفته بعضويته في جماعة أو جماعات اجتماعية وذلك إلي جانب المغزي القيمى والانفعالى المرتبط بهذه العضوية .

أما تحديد الهوية داخل الجماعة و الصراع بها فينبثق من دراسة الذات self في سياق اجتماعي ويكون له معاني تحليلية متعددة للكشف عن الشمولية التي تحدث علي مختلف المستويات التي قد يدخلها الفرد في هويته الفردية علي المستوي الإجتماعي علي أنها نوع من الشمولية العرقية ethnic hestility وقد يعمل توفر الهوية في كل جماعة من الداخل علي تعزيز عنصر الشمولية والمنافسة الايجابية بين الجماعات ، كما أنه قد ينظر إليه من قبل الأمم العصرية علي أنه عنف مسلح.

كما تُعرف هوية الجماعة المتماسكة in-group على أنها مجموعة من الصفات التي تجمع بين أفراد الجماعة الواحدة وتميزهم عن غيرهم ممن يقع خارج نطاق تلك الجماعة أما الهوية الاجتماعية social Identification فهي عملية وجدانية تيسر من الارتباط بالجماعة ، فهي تشتمل علي درجة من الترابط تجعل الجماعة أُماً للفرد والفرد جزءا من تلك الجماعة وهذا التكامل و التبعية يشكل أساس الرؤية الإيجابية للجماعة والرغبة من جانب الفرد في التوحد معها واعتبار ذاته جزءا منها وعضوا فيها . ويؤدي ذلك بالتالي إلي الشعور الإيجابي بالذات و التقدير الذاتي.

وتفسر نظرية الانفصال الاختياري السبب الذي يجعل الأفراد يختاروا الانضمام لجماعة ما فهي نصف حالة من العمليات المعرفية والانفعالية يتحكم فيها حافزان قويان هما :الحاجة **للانتماء** و الحاجة للتميز والاختلاف(٦).

الهوية إذن هي ذات الشيء بحيث إذا انتزعت منه افتقد شخصيته ، ولذلك فإن الهوية تعني الشيء ذاته ، المجتمع ذاته الأمة ذاتها فإذا انتزعت منها صارت شيئا آخر . هذه الهوية لم تتشكل بصورة تاريخية فحسب، وإنما تشكلت تحت تأثير ثلاثة سياقات :-

١- **سياق اجتماعى** : ويعنى أن البشر فى مجتمع ما ، هم الذين يصنعون هويتهم وهم فى الوقت نفسه حصيلة هذا الصنع ، والهوية لمجتمع ما تتأسس فى هذا المجتمع بعلاقاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والأخلاقية والدينية ، كل هذا المركب من العلاقات يفضى شيئا فشيئا مع التطور التاريخى إلى تكوين هوية بشرية .

٢- **سياق تاريخى** : تتشكل الهوية في مجتمع ما يتحرك ويكتسب أبعادا جديدة بحيث يمكن القول بأن للهوية القومية أو الوطنية أو الدينية أو الأخلاقية تاريخا ، بمعني أن الهوية ظاهرة تاريخية لا تنشأ مرة واحدة ، و الهوية تتعرض لتغيرات واسعة النطاق لكن هذه التغيرات تبقي في حدود محيطة بهذه الهوية ذاتها .

٣- **سياق تراثي** : فهويتنا نحن العرب المعاصرين الآن ليست هوية منتجة في مرحلتنا الراهنة فحسب ، وليست منتجة فقط في سياق التطور التاريخي ، وإنما أيضا هي منتجة في إطار تراثنا العريق ولذلك فهويتنا تمثل هذا البعد المركب الاجتماعي ، والتاريخي و التراثي(٧).

والملاحظ إن للهوية وجه آخر مكمل لها وهو الانتماء الذي يُعرف بأنه معني موجود داخل كل فرد مع اختلاف المستويات من حيث القوة والضعف، وهو أيضاً الشعور

الذي يوجد لدي الأفراد منذ الصغر ويقوي من خلال نشأتهم ويترجم لأفعال داخل المجتمع ، فإذا كانت الهوية هي عملية الإدراك الداخلية لذاتية الشخص و التي تمدها عوامل خارجية يدعمها المجتمع ، فإن الانتماء هو الشعور بهذه العوامل الخارجية و الذي يترجم من خلال أفعال تتسم بالولاء لهذه المجتمعات التي ينتمون إليها دون سواها(٨).

كما تُعد الهوية والاختلاف من الكلمات شائعة الاستخدام . فنحن نسمع كثيرا عن الهوية علي المستوي العالمي و القومي و المحلي و الشخصي . وفي التغطيات الإعلامية غالبا ما ينظر إلي الهوية من منطلق إشكالى problematic فعلي سبيل المثال ، يطلق مصطلح " فقدان الهوية loss of identity علي مجموعة من التغيرات المتلازمة في التوظيف وفقدان الوظائف و البحث عن الهوية الذي يلي تفكك المجتمعات أو العلاقات الشخصية حتى أن الأمر قد يصل إلي (أزمة في الهوية identity crisis) وفي المعترك العالمي نجد الهويات القومية تمثل الصراع بين الجماعات المختلفة و الذي غالبا ما ينجم عنها من نتائج مدمرة فعلي سبيل المثال فى السنوات الأخيرة في البوسنه وفي روندا حيث يُعبر عن الصراع في شكل أوضاع هوية متصارعة وغير متلائمة ومتطرفة في أغلب الأحوال . وعلي المستوي الشخصي ، فقد تغيرت العلاقات الأسرية وصار الأمر – علي سبيل المثال – في النظرة الغربية للأسرة النووية nuclear family – علي أنها ذكر عائل وزوجة معولة وأطفال يواجهون التحديات – كما ظهرت أشكال جديدة للأسرة والهويات الأسرية ويتضح الاعتراض علي الهويات الجنسية في المعترك العام حيث يبدوا أن موضوع الهوية الجنسية قد صار الشغل الشاغل للمعارضة السياسية . وفي الغرب الغنى _ خاصة _ يلجأ الأفراد إلي

المعالجين والاستشاريين بحثا عن بعض الحلول للمشكلة المثارة في التساؤل " من أكون؟!(٩).

ونرى أن تعريف الهوية الثقافية إجرائيا هو كل ما يكتسبه الشاب من مفاهيم ومعتقدات وخبرات وتجارب وعادات وتقاليد تشكل شخصيته وانتمائه وولائه لوطنه وأمته وتعطي معني للأشياء من وجهة نظره وينعكس ذلك على كل مظاهر حياته من مأكل وملبس وسلوك يومي كل ذلك يتم من خلال مؤسسات التنشئة الاجتماعية المختلفة من أسرة ومدرسة ودور عبادة ووسائل إعلام... ألخ.

ثانياً: الهوية بين الوحدة والتنوع في ظل العولمة

إن إحساسنا بالواقع صار أمرا شديد النسبية في عصرنا الحالي . فقوى العولمة متمثلة في الثقافة والاقتصاد والاعلام وغيرهم التي تتخذ شكل شركات عابرة للقارات وتدفق الهجرة قد أدت إلي خلط أوراق الدولة والهوية و المواطنة . كما أن ارتفاع تيار الفردية صار محل اهتمام في ظل استمرار المجتمع في فقد وعيه الجماعي الذاتى _ كما يبدوا _ وبالتالي فقد مقدرته علي العمل السياسي وفي مقابل ذلك نجد الشركات عابرة القارات (متعددة الجنسيات) التي ترسوا قواعدها في المجتمع العالمي قد اكتسبت أرضا جديدة في العمل السياسي و القوة و النفوذ علي الحكومات القومية و البرلمانات . وكانت نتيجة ذلك أن الوجه الرئيسي للسياسة في مطلع الألفية الجديدة هو ظهور موضوعات اخترقت الواجهة الديمقراطية الوطنية للأمة وصارت بمثابة المحرك الرئيسى للعمل السياسى(١٠).

فالعولمة لا تعرف فقط على أنها مجرد تكامل اقتصادي بين الأسواق في ظل نظام غير عادل يقع تحت الهيمنة الأمريكية فحسب ، بل أنها كذلك تكامل بين مختلف النظم القيميه التي تشكل مجتمعاتنا . فعلى سبيل المثال ، نجد أن الأفكار

والعادات و المعايير التي تقوم بتعريفنا كأفراد أو كأمة تتغير باستخدامنا للإنترنت و القنوات التليفزيونية الفضائية بهدف خلق هويات جديدة وتشكيل مجتمعات حديثة . وتلك العملية تعمل علي خلق وسائل للتكامل الثقافي والاقتصادي و السياسي(١١). وتوصف العولمة بأنها " عملية تدفق التكنولوجيا والاقتصاد و المعرفة والأفراد و القيم والأفكار عبر الحدود . فللعولمة تأثيرها علي كل بلد بشكل مختلف وفقا للتاريخ الذاتي لكل أمه ووفقا لتقاليدها وثقافتها ومصادرها وأولوياتها .

والعولمة عملية متعددة الأوجه فهي تنطوي علي متضمنات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية للتعليم العالي . كما أنها تفرض تحديات جديدة عندما تكون الدول وحدها ليست الموفر الرئيسي للتعليم العالي و المجتمع الأكاديمي ، وعند ما لا تحتكر صناعة القرار في التعليم(١٢).

كما أن هناك من ينظر للعلاقة بين التكنولوجيا و المجتمع و الثقافة من خلال " الإنترنت " علي أنها إما صالحة أو مفسدة للمجتمع وثقافته بوجه عام و بالرغم من التناقض و التنافر بين الإصلاح و الإفساد فكلاً منهما ينظر للتكنولوجيا بعين واحدة وهي أنها وحدها تشكل وتغير ثقافة المجتمعات وهذا ما ظهر في استخدام الفيس بوك في الثورة المصرية والثورات العربية.

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما أثر الإنترنت علي الثقافة و الهوية ؟ أو ما هو أثر الثقافة و الهوية علي الإنترنت واستخدامه ؟ والإجابة قد تلقي مزيدا من الضوء علي العلاقة بين الهوية الثقافية واستخدام التكنولوجيا فالهوية – الحياتية الفعلية – هي أمر هام لاستخدام امكانات الإنترنت في ظل العالم الذي صار قرية صغيرة – Global village فإنه لا بد وأن نري ونشاهد ظهور هويات واختفاء أخري . فنجد بعض النظم والدول ترتفع أسهمها اقتصاديا و عسكريا وبالتالي هذه الدول ستفرض هويتها علي

غيرها وتنشر ثقافتها علي من هو أضعف وكنتيجة لذلك سنري اضمحلال واختفاء هويات تلك الدول المستوردة لهذه الثقافة كضريبة أولي وشرط لاستيراد التكنولوجيا من تلك الدول(١٣).

وفي ضوء ما سبق نتساءل : هل ستقوم العولمة بفرض أي تهديد لاستمرار التنويع الثقافي ؟ وهل النماذج السلوكية الجديدة المكتسبة واللازمة للتكيف مع العولمة ليست قائمة علي النمط الأوروبي– أي النمط الغريب عن القيم الفريدة لمناطق أخري من العالم ؟ وهذان التساؤلان بدورهما يلقيان الضوء علي تساؤلات أخري منها : هل يمكن اعتبار العولمة عملية حتمية لابد لكل الدول أن تتكيف معها في النهاية ؟ أم أنها موضة ستأخذ وقتها القصير ثم تمر ؟ لكن علينا أن نضع بعض النقاط في اعتبارنا ونحن نواجه سلبيات العولمة خصوصاً – الدول النامية – التى لابد وأن تعي كيف تتعامل مع العولمة وفقاً لمصالحها الوطنية وهي:

١- معالجة أسباب الفشل في تفادي التهميش الناتج عن الاتجاه نحو العولمة – أكثر من وقتنا الراهن – حيث يتم اقصاء بعض الدول عن النظام العالمي الجديد خاصة الدول الغير قادرة على المنافسة.

٢- بعيدا عن أي إصلاح داخلي ، فإن غالبية نظم التدريب المهنية و التعليمية تتأثر بشكل مباشر بالاتجاه نحو العولمة بالدرجة التي تفضل ظهور مصادر تعليمية جديدة خاصة من القطاع الخاص ومداخل جديدة مثل حافزية المستهلك في مجال التعليم.

٣- وان كانت العولمة لا بد وأن تتضمن المخاطرة بحدوث الاستعمار الثقافي و التكنولوجي فلا يجب الافتراض بأن محاولات التكيف مع هذه الظاهرة تقوم بفرض

تهديد حقيقي علي الهوية المحلية(١٤) بمعنى آخر يجب المحافظة على الهوية والخصوصية المحلية في ظل مخاطر العولمة .

وهنا تظهر العلاقة بين المكان و الهوية فالمكان هنا لا يشير لمجرد موقع محدد الأبعاد ، بل أنه يشير لتوليفة – إن صح أن نقول ذلك – من التفاعلات الاجتماعية و السياسية والاقتصادية في مكان ما . وقد أثرت عمليات العولمة في عالمنا الحالي علي العلاقة بين الهوية و المكان بشكل جزري فعلي سبيل المثال : فقد أدي تزايد الحراك بين البشر وانتشار تكنولوجيا المعلومات والتحولات الثقافية ، كل ذلك أدي إلي خلخلة الروابط بين الهوية و المكان . وتؤثر العمليات المحلية و العالمية بشكل غير محدود علي كل الظروف البشرية و النظم الاقتصادية التي تحتويها . وهذا التأثير ومن ثم الأشكال الجديدة ينجم عنها أنماط مختلفة وجديدة من الترابطات غير مسبوقة الوجود . وبطبيعة الحال ، سنري صراعا بين القديم و الحديث من العلاقات الاجتماعية و السياسية والاقتصادية الذي سيتأتى عنه مزيدا من التأثير علي بناء المكان وبالتالي الهوية(١٥). فعند النظر للمجتمع الغربي في مراحل تطوره اللغوي و العقائدي فإننا لا نجد أننا بصدد أي مشكلات في الهوية العقائدية و اللغوية بين معظم الأقطار الغربية . ويرجع ذلك إلي اعتناق معظم أفراد هذا المجتمع لديانة واحدة في معظمها في العصور الوسطي وحتى وقت قريب إلي أن بدأ يظهر التعدد الدينى و المذهبي . كما أن المجتمع الغربي في مجملة كان يستخدم لغة واحدة للتفاهم ، مما ترتب عليه عدم وجود مشكلات هوية دينية أو لغوية(١٦). أما في جنوب أسيا نجد أن موضوع الدين صار مصدرا للهوية التي تعتبر وسيلة للحراك السياسي و بالتالي مصدرا للصراع . حيث أن شيوع الهندوسية والإسلام في هذه المنطقة جعل أتباعه ومعتنقيه يحظون بقوة تدعمهم في انطلاقهم نحو قمه الهرم الاجتماعي . وبالتالي فالهوية الدينية

صارت مصدر قوة في الدول الديمقراطية التي تنادي بالحرية ، فالعقيدة و الديمقراطية يمكن أن يؤدي كل منهما دوره فالعقيدة قوة روحانية و الديمقراطية قوة سياسية(١٧). أما في استراليا فيزداد الأمر صعوبة لتحديد وتعريف الهوية الأسترالية ، في ظل العولمة وعملياتها وأثر التكنولوجيا علي الهوية القومية ، وذهب " جون أستن " إلي أن مسئولية تحديد الهوية تقع علي كل فرد من أفراد المجتمع الأسترالي وبخاصة القائمين علي العملية التعليمية في الألفية الجديدة وسوف تتأثر طبيعة المجتمع و الثقافة – بشكل كبير – بالأوضاع التعليمية الحالية و بالتالي ستساهم في تكوين مجتمع أكثر توافقا وتكافئا(١٨).

وعندما ينتمى المرء إلى عقيدة ما فإنه يطور في الواقع هوية إنسانية مميزة تمثل توجه بنائى سيكولوجى له أسسه ومنطلقاته الخاصة ، ويرى " James Marcia " أن هناك احتمال لأن تنتمى عملية تكوين الهوية لدى المراهق إلى واحده من أربع صيغ مختلفة:

١- **الشخص ذو الهوية المائعة أو غير المحددة :** Identity Diffused person والتي تصف الشخص الذى لم يمر بأزمة هوية Identity Crisis والذى يرفض بالتالى أى التزام بمجموعة قيم ومعتقدات معينة .

٢- **الشخص ذو الهوية المنغلقة أو المانعة :** Identity Foreclosed person وهو الشخص الذى فشل فى أن يخبر أية أزمة هوية ، ولكنه نجح فى انشاء تعهد أو التزام Commitments ، وهو ذلك الشخص الذى لا يتساءل مطلقاً عن هويته Who am I ? والذى يكتسب نسق قيمه الدينية عن طريق القهر من قبل الآباء .

٣- **الشخص ذو الهوية المؤجلة :** A person in Identity Moratorium وهو ذلك الشخص الذى يعانى من أزمة هوية ولكن لم يستطع التوصل إلى تعهد أو التزام بقيم ومعتقدات معينة .

٤- **الحالة المرغوبة والتى يمكن تسميتها بالهوية المحققة :** Identity achieved وتوجد هذه الحالة حال نجاح المراهق فى حل أزمة الهوية المرتبطة بأزمات النمو النفسى بشكل عام ، ونجاحه كذلك فى صنع والإلتزام بهوية دينية خاصة به .

والملاحظ أن بعض رجال الدين وقادة الشباب للأسف يدفعون المراهقين إلى تبنى الهوية المنغلقة أو الجامدة Identity Foreclosure عندما يخبرون المراهقين بأن الإيمان أو العقيدة مطلقة الصدق والصحة وضرورة تقبلهم لكل القيم والمعتقدات الدينية دون تساؤل ، والمطلوب بطبيعة الحال أن يساعد رجال الدين والقادة المراهقين على الإختبار والفحص الناقد للعقيدة من أجل الوصول إلى قبول طوعى يُفّعل صحيح المعتقد والقيم فى سلوك إيمانى يتسق مع الجوهر الحقيقى للدين(١٩).

كما تُعد فنون الفولكلور والتعبيرات الثقافية التقليدية التى يحافظ من خلالها المجتمع على أسلوبه فى الحياة وينقلها للأجيال المتعاقبة . فهى – أى فنون الفولكلور – تعبر عن إحساس المجتمع بالجمال والهوية والقيم . وعادة ما يتم تعلم فنون الفولكلور بشكل غير رسمي عن طريق العمل أو الأمثال أو العادات الشفهية الموجودة بين العائلات والأصدقاء والجيران والعمال أكثر من تعلمها في إطار تربوي رسمي . وأهم ما يميز الموروث الثقافي الحي وفنون التراث الشعبي أنها تربط الماضى بالحاضر . وإن فنون التراث الشعبي تتطور بتكيفها مع الظروف المستجدة فى حين تبقى على كفاءتها التقليدية .

ثالثاً: أثر التحولات المجتمعية على ثقافة الشباب

يشكل الشباب فئة متميزة فى أى مجتمع، بل هم أكثر فئات المجتمع حركة ونشاطاً، ومصدراً من مصادر التغيير، كما تتصف هذه الفئة بالإنتاج والعطاء والإبداع فى كافة المجالات، فهم المؤهلون للنهوض بمسئوليات بناء المجتمع ، وتعد القيم هي الضابط والمعيار الأساسى للسلوك الفردى والاجتماعى وأن ترتيب هذه القيم لدي الشباب طبقا لأولويتها بالنسبة لهم، وبالتالى تأتى الثقافة الخاصة بالشباب فى الوقت الحالى كاستجابة لمتغيرات محلية وعالمية، حيث يشهد الواقع الاجتماعى فى العالم العربي، وبخاصة على صعيد فئة الشباب عديداً من المشكلات التي تتخذ صوراً مختلفة من حيث مضمونها وحدتها، وهذا بدوره أثر سلباً على القيم والمعايير الثقافية الاجتماعية والأخلاقية(٢٠). وان ما حدث على المستوي العالمي وما صاحبه من تقدم مذهل في إنتاج وإعادة إنتاج وتطوير كثير من تقنيات وأساليب ووسائل الإعلام والاتصال، مما أسهم بشكل غير مسبوق في الإسراع بتجديد طرائق إنتاج وتداول المعارف والمعلومات والأخبار والمشاهد، بل والأفكار والقيم وأنماط العيش ونماذج السلوك والمواقف والرؤى والمشاعر وتصورات العالم وغيرها(٢١).

كما أن لخطى ونمط إدخال تكنولوجيا الاتصال الجديدة تأثيراً جوهرياً على الاستجابات القومية، فعلى المجتمعات أن تغير استراتيجياتها في السيطرة، وأن تأخذ في اعتبارها التحولات في طريقة دخول ونشر الأفكار داخل حدودها.[٢٢] ونقصد به تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات المتطورة التي تساعد علي التواصل بين الأفراد والمؤسسات والشعوب مع عدم التواجد في نفس المكان والوقت، كالحواسب الآلية والتليفونات والأقمار الصناعية التي أصبحت مظاهرها جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية لسكان العالم عامة والعالم العربي بصفة خاصة.

لقد شهدت الدول العربية مجموعة من التحولات في كثيرٍ من النظم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وما يتعلق بها من دعم للبناء الإنساني للمجتمع، وتلك الثورة العارمة لتدفق المعلومات وما صاحبها من تقدم ملحوظ في كثيرٍ من وسائل الإعلام والاتصال، انعكست جميعها على إيجاد مناخ من التغيرات السريعة التي جعلت الشباب يلهثون في مضمار هذا التطور السريع.[٢٣] وتكاد تُجمع التيارات الفكرية المتعددة على دور التحولات الاقتصادية في حقبة ما وفي مجتمع ما، في تنشيط وتوليد مجموعة كبيرة من التحولات على الأصعدة الأخرى، اجتماعية وسياسية وثقافية، وذلك لاعتبارات تتعلق بأهمية الحياة الاقتصادية بالمعني الواسع، إنتاجاً وتوزيعاً وتداولاً، ودورها المحوري في تشكيل بنية المجتمع السياسية والثقافية، ومن ثم نمطاً معيناً من التحول الاقتصادي، سوف ينعكس بالضرورة على نماذج التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية(٢٤). ونتيجة للتغيرات المتلاحقة التي يعيشها العالم، وقع شبابنا فى تشتت واضح فى الأهداف والغايات، حيث أدت التغيرات العالمية المتسارعة إلى عدم مقدرة الشباب على التمييز الواضح بين ما هو صواب وما هو خطأ، وبالتالى أضعفت قدرتهم على الانتقاء والاختيار من بين القيم المتصارعة الموجودة، ومن هنا ظهر عجزهم عن تطبيق ما يؤمنون به من قيم، وقد أدي كل ذلك إلي حدوث "أزمة قيمية"، كان لها أثر كبير فى دفع الشباب للتمرد، والثورة على قيم المجتمع، واغترابهم شبه التام عن القيم التى جاءت بها الثورة العلمية التكنولوجية(٢٥).

والملاحظ أن العديد من شبابنا يجدون أنفسهم في دوامة عنيفة لصراعٍ حاد بين الأفكار والأيدولوجيات، ومن صيغ للديموقراطية يتمتع فيها الناس بحريات واسعة إلى نظم تقوم على درجة من القمع والإرهاب لم يشهد التاريخ مثلها كما يعانون من الصدمة

الحضارية التي ترتبت على فتح العالم العربي للتأثيرات الأوروبية الغربية بالإضافة إلى عدة تطورات أخرى منها:

١- الإحباطات القومية التي يشعر بها الشباب نتيجة للتأخر الحضاري الاقتصادي والاجتماعي على الأقل بالقياس إلى الدول المتقدمة في العالم واتساع الهوة التي تفصل بينها وبين العالم العربي.

٢- الوعي بالأزمة والبحث عن الهوية كنتيجة للتغيرات العميقة والتأثيرات الواسعة التي لا يستطيع الشباب تجاهلها لأنها تتصل بحاضرهم ومستقبلهم(٢٦).

كما جاءت ثورة العلم والتكنولوجيا، وبخاصة في مجال الإعلام الإلكتروني، تهز كثيراً من القيم والأفكار وأساليب السلوك التي نشأ عليها الشباب، وبخاصة في الحالات التي تبدو فيها الهوة واسعة وعميقة بين القيم والأفكار التي ترد من الخارج، والتي تتعارض مع الصورة أو المثال الذي تقدمه لهم الثقافة ووسائط التنشئة الاجتماعية المختلفة ، هذه الهزة في القيم والأفكار تسبب ظاهرة الرفض عند الشباب، والتي تتبدي في رفضهم للمعايير والقيم والسلطة والتوجيه الذي يمارسه الكبار، بل إن هذا الرفض أصبح يمثل موقفاً عاماً موحداً، يظهر بصورة واضحة في مواقف عديدة ومجتمعات مختلفة، ذلك الرفض الذي يظهر بين الشباب انما يرتبط بالظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية التي يمر بها المجتمع والنسق القيمي السائد فيه(٢٧).

ويلاحظ أن هناك جانبين للقيم، الأول: يتناول قيم المحور المتمثلة فى القيم الدينية بما تشتمل عليه من قيم وميراث ثقافى وحضارى، وتعد من الثوابت المميزة لهوية المجتمع العربي والإسلامي فلا يعتريها أى تغيير، أما الثانى: فيتمثل فى قيم التفاعل الحضارى والعمل والإنجاز، وهى قيم وسيليه يعتريها التغيير طبقاً لمستجدات العصر، ومن هنا تتمثل خطورة العولمة فى محاولة التأثير على قيم المحور، وذلك من

خلال نشر الفكر الغربى الذى يعمل على تغيير تلك القيم الثابتة ومحاولة إقناع الشباب بأن الذي يتمسك بقيمه إنما يتعارض مع التقدم العلمى والفكرى ونهضة العقل(٢٨). مما أدى إلى تفاقم الشعور بالاغتراب لدى الشباب، ووقوعهم فى أزمة حضارية وفى صراع، لأنهم يحيون ويعيشون بين "ثقافتين متعارضتين فى وقت واحد، إحداهما خارج النفس والأخرى مدسوسة فى ثناياها، فترى حضارة العصر فى البيوت والشوارع، بينما تجد حضارة الماضى رابطة خلف الضلوع"(٢٩). لدرجة أن هؤلاء الشباب من شدة تعلقهم بالحضارات الغربية والحلم بالعيش فى محيطها صاروا "يعانون حالة من الاغتراب الثقافى، فهم وإن كانوا يعيشون على أرضنا إلا أن وجداناتهم وعقولهم مهاجرة مغتربة قيمياً وفكرياً(٣٠).

كما أنه فى ظل تأثيرات العولمة صار الأمر يتطلب من الشباب العربى وخصوصاً الشباب الجامعي ضرورة تطوير إمكاناته وقدراته ومهاراته، بحيث تتكون لديه قيم المنافسة الشريفة والقيم العلمية المختلفة، كالرغبة الملحة فى المعرفة والفهم، والإيمان بالتفكير العلمى، واحترام المنطق، واستخدام العلم عادةً وطريقةً، والقيم المرتبطة بالبيئة من حيث حمايتها، والحفاظ عليها، بحيث يؤدى ذلك إلى إعداد مواطنين قادرين على إيجاد حلول لتحسين مستوى حياتهم من خلال النمو الاقتصادى ودون تعريض البيئة للخطر، مع الحفاظ على حق الأجيال المقبلة .

وتشير الدلائل إلى أننا ندخل عصر المعلومات برصيد حضاري هائل، ونظرة مستقبلية ترتكز على قدرات الاختراع والإبداع والابتكار، والتي ترفع مستوى الإنتاجية بكل صورها، وبالتالي تُعد أهم ركائز التنمية، حيث إن إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها بشكل فعال يحقق أهداف التنمية والتقدم، ومن ثم يصبح هو الفيصل بين تقدم وتخلف المجتمعات، بالإضافة إلى أن سياسات تنمية الموارد البشرية وبرامجها

ركن أساسي من أركان مجتمع المعرفة(٣١). ويُعد الإنترنت اليوم من أهم وسائل النشر الإلكترونى، نظراً لتسهيل عملية الاتصال وتداول المعلومات، فقد بدأت العديد من مراكز المعلومات العلمية بتقديم خدماتها عبر الإنترنت، كما بدأت العديد من المكتبات العريقة العالمية بتحويل معلوماتها الورقية إلى معلومات إلكترونية قابلة للتداول عبر الإنترنت، ولقد أتاح الإنترنت البحث فى بنوك المعلومات العالمية وهيأ العالم للدخول في حقبة من تاريخ النشر هى حقبة النشر الإلكترونى والتى تتعامل مع أحدث المعلومات والمعارف(٣٢).

وقد أفرزت الثورة المعلوماتية أو الثورة الرقمية أو ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعرفة حالة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية جديدة. إنها حالة لم يعد فيها العالم كما كان منذ حقب زمنية بعيدة أو قريبة، إنها حالة، كما يعتقد البعض، قادت وتقود إلى عالم بدون قيود يقع خارج إطار سلطة الدولة، بل إنه عالم يقع خارج إطار مفهوم الإقليم بمعناه التقليدي بحدوده الجغرافية المعروفة. كما أنه عالم يقع خارج إطار الضوابط والكوابح المعروفة سواء أكانت هذه الضوابط من صنع الدولة أم المجتمع. أي إنه عالم لم يعد يخضع للضوابط والمعايير التي تحددها الدولة أو المجتمع. فالبناء الاجتماعي في مجتمعاتنا البشرية قد تشكل في ضوء علاقات الإنتاج والإستهلاك وصراع القوة وتراكم الخبرات، وهي القاعدة التي تشكلت في ضوئها ثقافاتنا البشرية المختلفة، وهي ثقافة يعاد إنتاجها من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية التي ينسجها الأفراد داخل المجتمع والتي من خلالها تتم عملية انتقال منظومة القيم الثقافية الحاكمة للسلوك(٣٣). ولأن وسائل الإعلام تحقق كثيراً من رغبات الأفراد بالإضافة إلى إشباع احتياجاتهم الخاصة، فإن المجتمع الذي تؤدي فيه وسائل الإعلام دورها بفاعلية عالية يكون أكثر تقدماً من غيره(٣٤).

وقد أفرد "كاستل" في نظريته اهتماماً خاصاً بالعلاقة بين التكنولوجيا والثقافة إذ يرى أنه في عصر المعلومات تتشكل أنماط من الشبكة من خلال المرونة في الاتصالات الرمزية وتنظم الثقافة بحيث يحدث تكامل في النسق الإلكتروني الإعلامي ويمكن أن يتضح ذلك في الإنترنت، وبهذا تضم الثقافة كل أنماط الأشكال الإلكترونية ومع هذا فهو يرى أن نسق الإعلام الجديد لا يكون ذا اتجاه أحادي غير محدد أو أنه مجرد رسائل ترسل عبر عدد محدود من القنوات الاتصالية إذ إن الرسائل الإعلامية عندما ترسل مباشرة من منتج الرسالة إلى مستقبلها ويستجاب لها بطرق مختلفة فإن وسائل الإعلام تصبح بمثابة قنوات اتصالية متنوعة مثل التلفزيون والراديو والفيديو والكمبيوتر والإنترنت وكل له قواعد لكي يتحدد من خلال نسق الوسائط المتعددة Multimedia Systems وتوصل عديد من القنوات الاتصالية المتفاعلة بين العالمية والمحلية وهنا يظهر دور الجماعة المحتكرة للوسائط المتعددة والقائمين على أعمال الشبكة Networks والمتفاعلين وصانعي القرار الإعلامي والذين يُطلق عليهم غالباً صانعوا المعرفة أو المراسلون المتميزون ولاشك في أن تأثير المعلوماتية يقل إذا كانت المجتمعات مغلقة(٣٥).

رابعاً: التنشئة الاجتماعية والهوية لدى الشباب

تساهم العديد من مؤسسات المجتمع في دعم الهوية والمحافظة عليها لدى أفراده منها على سبيل المثال: الأسرة والمدرسة ودور العبادة ووسائل الإعلام وغيرها. فالأسرة هي أول وأهم المصانع الاجتماعية التي تنتج الوجدان الثقافي الوطني، بواسطة شبكة القيم التي توزعها – من خلال التربية – علي سائر أفرادها وتلقنهم إياها بوصفها الآداب العامة الواجب احترامها ، و المقدسات التي يتعين التزام الإيمان بها وكما يتلقن الطفل في هذه المؤسسة التكوينية من مؤسسات الإنتاج الاجتماعى لغته ، ومبادئ

عقيدته ، والقوالب الأخلاقية العامة والعليا لسلوكه ، كذلك يتلقن بعضنا من المبادئ المؤسسة للشعور بالأنا الجمعي : أي هوية الجماعة الوطنية التي ينتمي إليها وقد تهتز في مراحل الشباب – أي في لحظة الانفصال عن مرجعية الأسرة – ثقة الفرد الاجتماعي في سلطة الأب وشرعيتها ؛ أو قد يتعرض اعتقادة الديني إلي أزمة شك ؛ أو قد يختلط علية شعور الحنق علي النظام السياسي والاجتماعي بالحنق علي وطن مجحف (فتستبين له الهجرة إلي الخارج – مثلا – بوصفه حلاً سحرياً) ... غير أن هذه السلطة جميعها تظل تتمتع بالاستقرار و الرسوخ في وجدانه ووعية طيلة فترات التربية التي يتلقها داخل الأسرة ، بل حتى حينما يجنح إلي التمرد عليها في طور الشباب ، لا يقطع معها قطيعة كامله، إذ تظل أثارها في سلوكة فاعلة علي هذا النحو أو ذاك ، وبهذا القدر أو ذلك(٣٦).

وتمثل المدرسة مؤسسة الإنتاج الاجتماعي الثانية التي تستكمل عمل الأولى وتنتقل بأهدافها إلي مدي أبعد من حيث البرمجة والتوجيه . ربما كانت المدرسة أسرة ثانية للناشئة ، تمارس الوظائف التربوية نفسها؛ غير أن موطن القوة فيها أنها تفعل ذلك علي نحو نوعي متميز ففضلا عن قدرتها علي صقل تكوين الفرد الاجتماعي ، وتنمية ملكة التحصيل والادراك لدية بدرجة لا يستطيعها الفعل التربوي الأسري ، تتفرد بكونها تنتقل بوعية من حدود " الجماعة الطبيعية " أي الأسرة إلي رحاب الجماعة الوطنية وعند هذه النقطة بالذات تؤدي المدرسة وظيفة إنتاج ثقافة وطنية أو قل أساسيات تلك الثقافة ، أما من خلال توحيد الإدراك وتركيزه علي برنامج تكوين عام علي صعيد الوطن برمته ، أو من خلال بث وتكريس جملة من المبادئ التي تؤسس لقيام وعي بالأنا الجمعي أو الوطني والذي يبدو اليوم كما لو أن الاعياء دب في أداء هاتين المؤسستين ، ونال من وظائفهما التربوية و التكوينية ، ومن قدرتهما علي

الاستمرار في ممارسة أدوارهما التقليدية الفعالة في إنتاج وإعادة إنتاج منظومات القيم الاجتماعية ، ورصيد الوعي المدني ، اللذين يؤسسان البُني التحتية للثقافة الوطنية و للسيادة الثقافية ! وفي زعمنا أن هذا الخلل – الطارئ علي العمل الوظيفي " الطبيعي " للأسرة و للمدرسة الوطنية – إنما كان ثمرة مُرة لحقيقتين تقوم علي وجودهما ورسوخهما أوفر الدلائل ، هما إخفاق النظام التعليمي ، و تفكك بنية الأسرة في امتداد الانهيار الكامل – و الشامل – لنظام القيم(٣٧).

كما يلعب التعليم والتنشئة الاجتماعية والتراث الثقافي دورا في اكساب ، وتعميق الهوية والانتماء حيث يذهب الكثيرون إلي أن اهتمام برامج التعليم بالتراث و بالتاريخ و بالثقافة المحلية اتجاه في الطريق الصحيح، حيث تساعد مكونات هذه المجالات علي أن يتعرف أفراد المجتمع علي خصائص ثقافتهم وحياتهم علي أمل أن يتشرب التلميذ قيما تقوي صلته ببلدة ، وتجعل منه مواطنا ملتزما ولائه الأول لمجتمعة ولثقافته، ويلاحظ أن هذه الدعوة تنامت أكثر في عصر العولمة ، وكأن هذا الأسلوب هو السبيل ضد الغزو الثقافي وضد تلاش الشخصية الوطنية أو القومية وذوبانها في ثقافة عالمية إلا أن الاغراق في الإهتمام بالقديم ، والتمادي في تمجيد الماضى قد يقود إلي مخرجات يتشبث أعضاؤها بالماضي علي حساب الحاضر أو المستقبل ، خاصة في المجتمعات التي تعاني حاضرا ملئ بالاخفاقات ، وتاريخا طويلا يحتوي علي أمجاد كثيرة(٣٨).

ويُعد النهج الذي تبنّاه " أريك فروم " في دراسته لما أطلق علية " الشخصية الاجتماعية " لكي يميزه عن " الشخصية الفردية " هو – بوجه عام وبغير الالتزام بكل مسلماته – أقرب الاتجاهات النظرية في دراسة الشخصية القومية ؛ وذلك لأنه ينطلق

من تصور شامل للطبيعة الإنسانية في إطار السياق التاريخي الذي يؤثر عليها ، ويترك بصماته علي ملامحها وقسماتها الرئيسة .

فعلى سبيل المثال نلاحظ أن التيار الإسلامي باتجاهاته كافة والذي يعتبر اليوم أكثر التيارات تشددا في شأن الهوية و الثقافة بعمقها الديني ، لم تجذبه حتى الآن " عولمة الثقافة " لا بل استخدم تقنيات العولمة ووسائلها الحديثة وشبكات الإنترنت للدعاية لنفسه وترويج خطابه السياسى وحتى للتنسيق فيما بين أجنحته. فصارت تقنيات الحداثة والعولمة في خدمة ثقافة هذا التيار وهويته. كما ارتفعت أصوات التمسك بالهوية القومية في مواجهة المشاريع الشرق أوسطية لعملية التسوية التي كانت تهدف إلي استبدال هوية المنطقة العربية الإسلامية بأخرى جغرافية تضم بلدان الشرق الأوسط بما فيها إسرائيل المحتلة. في الوقت ذاته أثارت علي صعيد مواز مؤتمرات الأمم المتحدة في القاهرة وبكين حول المرأة و السكان حفيظة وانتقاد دول عربية وإسلامية في شأن قضايا المرأة والأسرة والجنس والزواج وكانت تلك الاعتراضات بمحتواها الثقافي الديني محط لقاء وتنسيق بين الفاتيكان وبين دول عربية وإسلامية فرقتها المصالح و السياسات(٣٩).

وإن من الكتاب المصريين على سبيل المثال من يضيق المصدر الثقافي الذي ينتمي إليه ويغفل ، أو يقلل من قدر غيرة من المصادر . فهناك من يتبني فرعونية المصدر ، وهناك من يتبني عروبته ، وهناك من يتبنى إسلاميته ...إلخ وتتسع المصادر الثقافية حتى تشمل سبعة مصادر كما أشار إلي ذلك " سيدعويس " وهي :- المصدر المصري القديم " الفرعوني " الفارس ، اليونانى والرومانى ، الديانة المسيحية ، الديانة الاسلامية العربية ، الثقافة السلوكية العثمانية ، الثقافة الغربية . ولا تعارض بينها جميعا في رأي صاحبها(٤٠). ونحن نسعى لإثبات أن المعاني المتأصلة في

العديد من المفاهيم الخاصة بكل ثقافة وما تقدمه من براهين وأدلة تساهم في تشكيل المعنى[٤١] . ولقد أشار " محمد عابد الجابري " إلي عشر أطروحات ترسم إطار عام بين العولمة و الهوية الثقافية كما يمكن أن تُرصد اليوم في الوطن العربى الذي نذكر ثلاثة منهم علي سبيل المثال وهى :

الأطروحة الأولى : ليست هناك ثقافة عالمية واحدة ، بل ثقافات ...

ليست هناك ثقافة عالمية واحدة ، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام ، وإنما وجدت ، وتوجد وستوجد ، ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية ، أو بتدخل إداري من أهلها علي الحفاظ علي كيانها ومقوماتها الخاصة . من هذه الثقافات ما يميل إلي الانغلاق والانكماش ، ومنها ما يسعي إلي الانتشار و التوسع ، ومنها ما ينعزل حينا وينتشر حينا آخر .

الأطروحة الثانية : الهوية الثقافية مستويات ثلاثة : فردية وجمعوية ووطنية قومية ، و العلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع " الآخر " الذي تواجهه

تتحرك الهوية الثقافية علي ثلاث دوائر متداخلة ذات مركز واحد :

- فالفرد داخل الجماعة الواحدة ، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعية مدنية (حزبا أو نقابة ... إلخ) ، هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة ، عبارة عن " أنا " لها " أخر " داخل الجماعة نفسها : " أنا " تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع هذا النوع من " الآخر "
- و الجماعات ، داخل الأمة ، هي كالأفراد داخل الجماعة ، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة ، ولكل منها " أنا " خاصة بها و" آخر " من خلاله وعبره تتعرف علي نفسها بوصفها ليست إياه .

- و الشيء نفسه يقال بالنسبة إلي الأمة الواحدة إزاء الأمم الأخري . غير انها أكثر تجريدا ، وأوسع نطاقا ، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف .

هناك إذن ثلاثة مستويات في الهوية الثقافية ، لشعب من الشعوب: الهوية الفردية ، والهوية الجمعوية، و الهوية الوطنية أو القومية والعلاقة بين هذه المستويات ليست ثابتة ، بل هى فى مد وجزر دائمين ، يتغير مدي كل منهما اتساعاً وضيقاً ، بحسب الظروف وأنواع الصراع واللاصراع ، والتضامن واللاتضامن ، التي تحركها المصالح : المصالح الفردية والمصالح الجمعوية والمصالح الوطنية والقومية(٤٢).

الأطروحة الثالثة : لا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعيتها : جماع الوطن والأمة والدولة .

لا تكتمل الهوية الثقافية ، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية ، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة علي نشدان العالمية ، علي الأخذ والعطاء ، إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر : الوطن والأمة والدولة

الوطن : بوصفه " الأرض والأموات " ، أو الجغرافيا و التاريخ ، وقد أصبحا كيانا روحيا ، واحد ، يعمر قلب كل مواطن : الجغرافيا وقد أصبحت معطي تاريخيا و التاريخ وقد صار موقعا جغرافيا .

الأمة : بوصفها النسب الروحى الذي تنسجه الثقافة المشتركة : وقوامها ذاكرة تاريخية وطموحات تعبر عنها الإدارة الجماعية التي يصنعها حب الوطن ، أعني الوفاء " الأرض و الأموات " للتاريخ الذي ينجب ، والأرض التي تستقبل وتحتضن

الدولة : بوصفها التجسيد القانوني لوحدة الوطن و الأمة ، و الجهاز الساهر علي سلامتهما ووحدتهما وحماية مصالحهما ، وتمثيلهما إزاء الدول الأخرى ، في زمن السلم كما في زمن الحرب . ولا بد من التمييز بين " الدولة " ككيان مجرد ، ومن ناحية

أخرى ككيان يجسد وحدة الوطن والأمة ، وكذلك التمييز بين الدولة والحكومة أو النظام السياسي الذي يمارس السلطة ويتحدث باسمها من جهة أخري . وواضح أننا نقصد هنا المعني الأول .

وإذن فكل ضرر يلحق بالوطن أو بالأمة أو بالدولة ينعكس على الهوية الثقافية والعكس صحيح (٤٣).

وهذا ما اقترب منه أبرز علماء الاجتماع المعاصرين " مانول كاستي " إذ ركز المجلد الثاني " قوة الهوية " من (ثلاثية كاستى) علي تفحص الحركات الاجتماعية في عصرنا والتحديات التي تواجه نظمنا السياسية التي تنهض علي الدولة – القومية. ويميز "مانول كاستي" بين ثلاثة أشكال للهويات الجمعية هي :-

١- الهوية المشروعة التي تشير إلي الحركات الجمعية التي لعبت دورا في بناء دولة الرفاهية الحديثة

٢- الهوية المقاومة التي يصفها بأنها استبعاد المستبعدين (بكسر العين) من قبل المستبعدين (بفتح العين) ويعد هذا هو الشكل الذي تولد نتيجة لمقاومة التدفقات العالمية للنظام الاقتصادي الجديد ، هو الشكل السائد حاليا للحركات الاجتماعية

٣- الهوية المقترحة التي تتمتع بالقدرة المحتملة علي إعادة بناء عناصر من المجتمع المدني الجديد(٤٤).

في التحليل الأخير نتسائل أين نقف نحن وما هي هويتنا التي تشكل ذواتنا وهذا يتطلب منا مزيدا من البحث فيما نعانيه في عالمنا العربي والذي لا يعود بالطبع إلى قلة بشرية أو مادية وأنما يتطلب آلية للحوار وأسلوب للتعامل والتعايش السلمي في ضوء الإطار التفسيري لنظرية المجال العام والتى تتيح فرص النقاش وتبادل الخبرات الحياتية للأفراد وتبادل المعلومات و يساعد ذلك في الحفاظ على الهوية الذاتية من

خلال التعامل مع ايجابيات وسلبيات العولمة عن طريق تطوير التعليم والتدريب المستمر والقدرة على المنافسة كما يقع علي وسائل الاعلام دور كبير في توعية الشباب بضرورة التمسك بالقيم والمعتقدات الأصيلة التى يزخر بها تراثنا العربى الاسلامي كل ذلك يساعد بشكل كبير فى التغلب على بعض الظواهر السلبية كالاغتراب والأنماليه وعزوف الشباب عن المشاركة .

إن مسألة التغير عالمية تخطت حدود الدول وتجاوزت خصوصيتها وأن سرعة هذا التغير وتداخل عوامله وأسبابه وتشابكها والذي أصبح واقعاً مفروضاً بصورة نسبية أفقد المجتمعات النامية الوزن النسبي لتراثها القديم وبالتالي هدد هويتها مما انعكس على منظومة القيم والفكر لدي شعوبها ، وفي ظل ازدياد الاعتماد على الخارج وتنامي الاستهلاك أفقد المواطن القدرة على العمل المنتج والشعور بحالة من الاغتراب وزيادة العنف والتطرف والمحصلة تتمثل في تدهور التعليم والصحة والخدمات انعكس على انخفاض في قدرات البشر وبالتالي الخدمات التي تقدم اليهم في ظل عالم فضائي يستطيع الشباب من خلاله أن يري المجتمعات الأخري وتقدمها ورفاهيتها وعقد المقارنات وهنا تفرز هذه الحالة وتشكل شخصية سلبية تعزف عن المشاركة الحقيقية في العملية الانتاجية وتتطلع الى الهجرة ولا تبالي بالقضايا المصيرية للمجتمع ولا تشارك في القرار السياسي وتصبح شخصية غير مبالية وتنتشر الجرائم والانحرافات في ظل اختفاء قيم أصيلة يحض عليها ديننا الحنيف مثل قيم الحب والتعاون والعطاء والتضحية والايثار والتسامح والتساند الاجتماعي يضاف الي ذلك محاكاة لكل ما هو أجنبي والتقليل من شأن كل ما هو وطني (ضعف للهوية) ، ما سبق أدي الى تكوين شخصية تبحث عن مصالحها الذاتية حتى لو كان علي حساب المصالح الوطنية.

نخلص الى أن الهوية الثقافية كيان يصير ، يتطور ، وليست معطي جاهزا ونهائيا كما تصير وتتطور ، إما في اتجاه الانكماش ، وإما في اتجاه الانتشار ، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم ، انتصاراتهم و تطلعاتهم ، وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما.

نتائج البحث

- إن اتاحة فرص المشاركة لجميع أفراد المجتمع يضمن السلام الاجتماعي والحفاظ على الهوية الثقافية للوطن.
- إن اكتساب المهارات الجديدة أمر ضروريا وحيويا في ظل التعامل مع التحولات التي أحدثتها العولمة في الاتجاهات الاجتماعية ونمط الحياة و الهوية
- إن الهوية الثقافية يبنيها أفراد المجتمع بعملهم سويا وتراثهم وخبراتهم والأحداث التي خبروها من خلال تاريخ مشترك .
- إن الهوية تمنحنا مكانا في العالم وتعرض لنا الرابط بيننا وبين المجتمع الذي نحيا فيه وبه فالهوية تعطينا فكرة عمن نكون وكيف نرتبط بالآخرين و بالعالم .
- ضرورة الحفاظ على الهوية الذاتية للوطن من خلال تطوير مناهج التعليم وتقوية الاقتصاد لنصبح قادرين على المنافسة .

المراجع

١- مسعود ضاهر ، الذات الشخصية و الذات اللبنانية في كتاب أمين معلوف " الهوية القاتله " في أوراق المؤتمر العلمي الثامن " الحوار مع الذات"، تحرير صالح أبو أصبع ، منشورات جامعة فيلادلفيا ، عمان ، ٢٠٠٤ ص ص ٥٢٧- ٥٤٧.

٢- باسم الطويسي، الفكرة القومية في الخطاب الصحفي والمجال العام الجديد: دراسة تحليلية في الصحافة الأردنية، المجلة العربية للعلوم السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٣٥، صيف ٢٠١٢، ص ص ٩٢ – ٩٣.

٣- ستيفن كولمان و كارين روس، ترجمة صباح حسن عبد القادر و عادل يوسف أبو غنيمة، الإعلام والجمهور، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢، ص ص ٥٣ – ٥٤.

4- critin, wong and Duff " the Meaning of American National Identity patterns of Ethnic conflict and consensus ، " 2004.

٥- رشدي أحمد طعيمة ، الثقافة العربية الاسلامية بين التأليف و التدريس ، دار الفكر العربي ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٨، ص ٣٧ .

6- Marilynn B. Brewer, Ingroup Identification and Intergroup conflict , 2004.

٧- الطيب تبزيني ، الواقع العربي وتحديات ، قرن جديد ، مؤسسة عبد الحميد شومان ،عمان ، الأردن ، ١٩٩٩ ، ص ٣٨.

٨- سناء مبروك ، الهوية والانتماء الاجتماعي في شمال سيناء ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٢١٨.

9- Kathryn Woodward, Identity and Difference, SAGE, London, 1997, Introduction, P .1-5

10- lisa Tsaliki ،the Global civil society :some theoretical considerations, 2002,

11- course- workshop: “ Latin@s in the Era of Globalization: Migration, culture and Identity “ (April – June, 2002)

12- UNESCO Education, Higher Education in a Globalized society, 2003, P.4.

13- Nils Zurawski, culture, Identity and the Internet،١٩٩٨ ،pp.12

14- Education and Globalization ،the llep Newsletter ، isavailable :http // :www .Education .Unesco.org educprog / llep / news // st. htm, 1998.pp.2-6

15- faculty of Arts , Education and social sciences , people, Identity and place, 2004

16- Asghar Ali Engineer, Religion, Identity and Democracy, November, 2004, pp. 1-3, www . Countercurrents. Org.

17- Ibid, p.3

18- jon Austin, Identity and culture in Education, 2002, p.3

19- youth and Discipleship in the commitment level model ، ١٩٩٩،http: //www. Youth. Co.za/model / ages.htm

٢٠- مهدي محمد القصاص، الإعلام الإلكتروني وأثره على قيم الشباب في القرية المصرية (دراسة حالة)، المؤتمر العلمي الثاني بعنوان "نحو استيراتيجية لتنمية القرية المصرية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، الإدارة المركزية للدراسات والبحوث، يناير ٢٠١٤، ص ١.

٢١- مصطفى محسن، التربية ومهام التنمية والتحديث في عالم متغير: تحديات ورهانات في زمن العولمة، مجلة الكلمة، العدد ٣٩، السنة العاشرة، ربيع ٢٠٠٣.

22- http://WWW.Kalema.net/articles/39_6.htm

23- 12-Abromson, Paul & Inglehart. Ronald : Value Change in global Persepective, Anno Arbor : The Univirisity of Michigan Press – U. S. A, 1995.

٢٤- المجالس القومية المتخصصة، تقرير المجلس القومي للخدمات والتنمية الاجتماعية، الدورة الثالثة والعشرون، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص ٣٤٠.

٢٥- محمود عودة، بعض ملامح التحولات الاجتماعية في العقدين الأخيرين، بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٦٠٠.

٢٦- سعد الدين إبراهيم وآخرون، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص ص ٤٢٣ – ٤٢٥.

٢٧- إسماعيل إبراهيم، الشباب بين التطرف والإنحراف، الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٩٨.

٢٨- المرجع السابق، ص ٩٩.

٢٩- زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر، ط٣، دار الشروق : القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٦٠ .

٣٠- أحمد أبو الفتوح شبل : "الانفتاح الحضارى، مبرراته، شروطه، متطلباته التربوية"، مجلة كلية تربية المنصورة، ع٣٤، مايو ١٩٩٧، ص ٢٦٨ .

٣١- أندرو فلاناجين وميريام ميتزجر، ترجمة مصطفى محمود وهبه متولي، الإعلام الرقمي والشباب، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ص ص ١٣- ١٤.

٣٢- أحمد مجدي حجازي وأمل حسن أحمد، الثقافة الإلكترونية في ظل مجتمع المعرفة (تحليل سوسيولوجي حول استخدام الشباب لشبكة الإنترنت والمدونات)، المجلة العربية لعلم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الثامن، يوليه ٢٠١١، ص ٥١.

٣٣- مها الكردي، رؤى طلبة الجامعة للزواج العرفي السري معرفة وآثاراً (دراسة استطلاعية)، المؤتمر السنوي الثامن قضايا الشباب في مطلع القرن الحادي والعشرين ٢٣ – ٢٥ مايو ٢٠٠٦، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، المجلد الأول، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ص ١٦١ – ١٦٢.

٣٤- باقر النجار، الفضاء السيبريني وتحولات القيم: مقاربة عربية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٨٢، السنة الثالثة والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٠، ص ص ٦٠-٦١.

35- Jon c. Merrill & Edward Jay Friedlander, Modern Mass Media, 2nd edition, Harper Collins College Publishers, 1994, p.57.

٣٦- عبد الاله بلقزيز ، العولمة و الهوية الثقافية : عولمة الثقافةأم ثقافة العولمة ندوة : العرب و العولمة ، مرجع سابق ،ص ٣١٢

٣٧- المرجع السابق ، ص ص ٣١٢-٣١٣

٣٨- مصطفي عمر التير ، العولمة و امكانية النهوض بالتنمية البشرية ، في اجتماع الخبراء " العولمة و التعليم و التنمية البشرية ، جامعة الدول العربية ، فبراير ، ٢٠٠١ ، ص ص ٤٥-٤٦

٣٩- طلال عتريس ، تعقيب ، ندوة العرب والعولمة ، مرجع سابق ، ص ص ٤٦،٤٧.

٤٠- رشدي أحمد طعيمة ، مرجع سابق، ص ٢٩

٤١- جيروم كيفان، الثقافات الثلاث، العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانيات في القرن الحادي والعشرين، ترجمة: د/ صديق محمد جوهر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير ٢٠١٤، ص ٢٤٢.

٤٢- محمد عابر الجابري ، العولمة و الهوية الثقافية : عشر أطروحات ، في ندوة العرب و العولمة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٨-٢٩٩

٤٣- المرجع السابق ، ص ٢٩٩.

٤٤- مانول كاستي ، عالم جديد يتخلق " حول عصر المعلومات " عرض : محمد محي الدين ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ٣٢، يوليو – سبتمبر ، الكويت ، ٢٠٠٣، ص ص ٢٧٥-٢٨٠.

الفهرس